الكتاب الذهبي
مؤسسة روز اليوسف

الأصولية اليهودية فى إسرائيل

تأليف: إسرائيل شاحاك
نورتون متسفينسكى
ترجمة: ناصر عفيفى



اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية

الأصولية اليهودية
فـــى إســـرائيـــل

الكتاب الذهبى
مؤسسة روز اليوسف



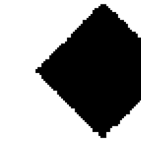
رئيس التحرير : **محمد عبد المنعم**
المؤلف : **إسرائيل شاحاك**
نورتون متسفينسكى
المترجم : **ناصر عفيفى**



الغلاف : **محمد الصباغ**
الإخراج : **أحمد رزق**



رقم الإيداع : ٢٠٠١/١٣٧١٦
الترقيم الدولى : 0 - 055 - 201 - 977



المراسلات باسم : **محمد عبد المنعم**
رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير روز اليوسف
٨٩ أ شارع قصر العينى ـ القاهرة
ت ـ ٧٩٢٠٥٤٠ /٧٩٢٠٥٣٩/٧٩٢٠٥٣٨/٧٩٢٠٥٣٧
فاكسميلى : روز اليوسف ٧٩٥٦٤١٣
E-mail rosa
rosa @gega.net



الأصولية اليهودية في إسرائيل

تأليف: إسرائيل شاحاك
نورتون متسفينسكي

ترجمة: ناصر عفيفي
مراجعة: عاطف حلمي
إسلام كمال

الناشر:
الكتاب الذهبي
مؤسسة روز اليوسف

المحتويات

تقديم

نقدم للقارئ العربى هذا الكتاب فى إطار مشروعنا الذى نتبناه ألا وهو نشر مؤلفات من يسمون بـ «حركة المؤرخين الجدد» فى إسرائيل.. وهى حركة أماطت اللثام عن الكثير من الأساطير الإسرائيلية، وكشفت النقاب عن كم ضخم من الأكاذيب والافتراءات اليهودية على مر التاريخ وحتى يومنا هذا، بالإضافة إلى فضحها لعورات العنصرية الصهيونية.

ولعل من أبرز الأسباب المهمة لقيامنا بنشر هذه المؤلفات التى يقوم بها أعضاء حركة المؤرخين الجدد.. كونهم يهودا وإسرائيليين استطاعوا أن يحكموا ضمائرهم ولو للحظات، ويضعوا أيديهم على مثالب الصهيونية التى نشأت عنصرية وستظل كذلك.

الأمر الثانى الذى لا يجب أن نغفله.. أن الأسلوب الذى يحلو للبعض استخدامه فى الدفاع عن حقوق الشعب الفلسطينى المشروعة.. والصوت العالى الأجوف وبيانات الاستنكار والإدانة التقليدية.. وتلك الهتافات الصاخبة التى قد نسمعها هنا أو هناك فى أرجاء الوطن العربى، لم تعد مجدية، بل أثبتت فشلها على طول الخط، ومن ثم ليس أمامنا سوى التحلى بأساليب العصر فى فضح الممارسات الصهيونية وأعمال القمع والقهر التى تمارس ضد الشعب الفلسطينى فى الأرض

العربية المحتلة.. ولعل ما يقدمه لنا المؤرخون الجدد من معلومات ووقائع ودراسات.. تجعلنا مطالبين باستثمارها فى الاتجاه الصحيح من أجل تغيير كثير من المفاهيم المغلوطة لدى الرأى العام العالمى وإيقاظ الضمير الإنسانى فى الدول الغربية التى تعرضت عقولها لعمليات غسيل فكرى على مدى العقود الماضية من خلال ماكينات الإعلام الصهيونية التى لا تكف أبدا عن بث الأفكار الزائفة والصور المغلوطة عن حقيقة الأوضاع فى الصراع العربى الإسرائيلى.

وما حدث خلال الفترة الماضية وإعادة طرح القضية الفلسطينية والصراع العربى الإسرائيلى بشكل جديد يوضح بما لا يدع مجالا للشك مدى عدالة حقوق الشعب الفلسطينى ومطالبه.. وهذا ما جعل الرأى العام العالمى بشكل عام والغربى بشكل خاص يعيد تقييم موقفه من الصراع العربى الإسرائيلى، فعندما تحركت مصر وتبعتها بعد ذلك الدول العربية الأخرى، وتم فضح الممارسات الهمجية الإسرائيلية وما يتم من مذابح فى الأراضى العربية المحتلة أمام الرأى العام العالمى.. تغيرت الكثير من المفاهيم، وهذا ما كنا نصبو إليه دائما، فهو بداية الطريق للضغط على إسرائيل ومن يساندها، وهو ليس أمرا يسيرا، لكنه حتمى ومطلوب بشدة.. لقد ولى عصر الشعارات والهتافات الصاخبة، وعلينا أن نخوض المعركة فى ميدان آخر وهو ميدان الحوار والإقناع وكشف الأكاذيب الإسرائيلية من أجل الوصول إلى حل عادل وشامل بعودة كافة الأراضى المحتلة.

لكن.. حتى نكون واقعيين، لابد أن ندرك أن من يكتب هذه الكتب أو قام بهذه الأبحاث من أعضاء حركة المؤرخين الجدد، مهما كان حياده فهو يهودى إسرائيلى.. وهذا يجعلنا دائما نضع نصب أعيننا هذه

الحقيقة عند قراءتنا لها . . فالبعض قد يحدث لديه التباس أو سوء فهم .

ورغم قيامنا بتبنى هذه الأفكار ونشرها باللغة العربية . . فهذا لا يعنى بأية حال من الأحوال أننا نتفق مع كل ما جاء بها ، وأيضا فى نفس الوقت لا يعنى أن نرفضها ، فلابد من إعمال العقل فى مثل هذه الحالات ، فليس من المعقول أن نرفض ترجمة كتب تفضح وتكشف زيف الادعاءات والأكاذيب الإسرائيلية ، وتعرى العنصرية الصهيونية . . لمجرد أن مؤلف هذا الكتاب أو ذاك يهودى إسرائيلى .

هذا يجعلنا أيضا نشجع وبقوة نشر هذه الأفكار التى جاءت بمثابة شهادة من أهلهم تفضحهم أمام الرأى العام العالمى بدلا من أن نتركها تضيع وسط محاولات التعتيم التى تقوم بها القوى الصهيونية تجاه هذه الكتابات الجريئة .

ما نريد أن نقوله ونؤكد عليه . . أن حماسنا وغيرتنا الشديدة على القضية العربية يجب ألا تفقدنا مميزات مهمة نحتاج إليها فى جولات صراعنا مع الصهيونية والكيان الإسرائيلى ، وعلينا أن نعمل العقل دائما ، فكما كانت هناك جولات للسلاح خلال الخمسين عاما الماضية ، وكما توجد الآن جولات أخرى داخل الأراضى المحتلة من خلال الانتفاضة الباسلة ، كذلك هناك معركة أخرى موازية لها لا تقل ضراوة وحمية ، ألا وهى توصيل الحقائق إلى وسائل الإعلام العالمية حتى يستيقظ الضمير الدولى ويعى أهمية وحتمية عودة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى وضرورة تنفيذ قرارات الشرعية الدولية وإنًا لهذا اليوم لمنتظرون وهو آتٍ . . إذا ما لجأنا إلى أسلوب ولغة العصر والتزمنا بالعقل بدلا من الانفعالات والعواطف . ■

«روزاليوسف»

تمهيد

لأن الأصولية الإسلامية كانت دائما مرادفة للإرهاب العربى فإنها تحصل على نصيب وافر من كراهية العالم غير الإسلامى. ولأن الأصولية المسيحية مصحوبة دائما بالجهل والخرافة وعدم التسامح والتمييز العنصرى فقد أصبحت هدفا لبغض الصفوة الثقافية والحضارية فى الولايات المتحدة. وأدت الزيادة الكبيرة فى أعداد معتنقيها مؤخرا، إلى جانب اتساع نفوذها السياسى، إلى تحول الأصولية المسيحية إلى خطر حقيقى على الديمقراطية فى الولايات المتحدة. وعلى الرغم من احتوائها على كل السمات العلمية الاجتماعية للأصولية الإسلامية والمسيحية، على وجه التقريب، فإن الأصولية اليهودية مجهولة خارج إسرائيل وقطاعات معينة من بعض الأماكن الأخرى. وحينما يتم العلم بها، فإن أهميتها يتم التقليل منها إلى أدنى حد أو تقتصر على الممارسات الدينية السرية والزى اليهودى التقليدى الأوروبى، وذلك ـ غالبا ـ من خلال المعلقين غير الإسرائيليين الذين يرون الشرور الكامنة فى أبناء عمومتها الأصولية الإسلامية والأصولية المسيحية.

وباعتبارنا دارسين للمجتمع المعاصر وكيهوديين، أحدهما إسرائيلى والآخر أمريكى، وبما لدينا من التزامات وارتباطات بالشرق الأوسط، فإننا لا نستطيع المساهمة فى رؤية الأصولية اليهودية فى إسرائيل كعائق جوهرى أمام السلام فى المنطقة. كما أننا لا نستطيع المساهمة فى تجاهل الخطر الداهم للأصولية اليهودية على السلام وعلى ضحاياها من خلال أولئك الذين يعرفونها معرفة جيدة، وسرعان ما يشيرون بأصابع الاتهام إلى العنف الكامن فى المناهج الأصولية الأخرى.

هذا الكتاب هو رحلة للفهم - غالبا مؤلمة وموحشة وتبعث على القلق - بالنسبة لنا كيهود يعلقون الكثير على اليهودية. ومن كل قلوبنا وعقولنا نرغب فى أن يقوم اليهود إلى جانب الشعوب الأخرى بالكفاح من أجل تحقيق القيم العليا، حتى لو قصرنا عن بلوغها، ونحن نرى أن هذه القيم تقع من الحضارة الغربية موقع القلب، ويعمل فى سبيلها كل العالم المتحضر. إننا نؤمن بأن هذه القيم لاتقف فى طريق السلام بأى شكل من الأشكال. وإساءة استخدام هذه القيم باسم الأصولية اليهودية تقف عقبة على طريق السلام وأمام تنمية الديمقراطية الإسرائيلية وحتى على طريق التحضر، مما يسيء إلينا كيهود وكبشر. ومن أجل التعرف على والحد من - وليس التخلص النهائى - من هذه الإساءة، كتبنا هذا الكتاب وشرعنا فى هذه الرحلة.. على أمل أن نصل بقرائنا إلى شاطئ الفهم ونحن معهم.

إننا نفترض أن السلام فى الشرق الأوسط لايمكن أن يتحقق إلا إذا تم فهم التيارات والتيارات المعارضة للحياة المعاصرة فى المنطقة. وفى هذه المنطقة ذات السمات التاريخية والدينية البارزة، يتضمن ذلك الفهم سبر غور الماضى الذى لايزال يخيم

بظلاله على المواقف والقيم والافتراضات والسلوك لكل شعوب هذه الأرض الجميلة والمليئة بالمتاعب. والمعارضة اليهودية فى إسرائيل للأصولية اليهودية زادت إلى حد بعيد بعد أن أصر أحد المتعصبين الأصوليين الدينيين اليهود، وهو إيجال عامير، بأنه كان يتصرف طبقا لتعليمات الشريعة اليهودية حينما قام بإطلاق الرصاص على إسحاق رابين رئيس الوزراء الراحل وأرداه قتيلا.

وأدى قيام العديد من الجماعات الدينية اليهودية بعد الاغتيال بتأييد جريمة القتل هذه باسم الديانة اليهودية «الحقيقية» إلى إثارة الاهتمام فى إسرائيل بجرائم القتل الماضية التى قام بها يهود ضد يهود آخرين اعتبروا مهرطقين أو آثمين.

وفى كتابنا هذا سوف نستشهد بتحقيقات حالية وسابقة لباحثين إسرائيليين يؤكدون أن اليهود قبل قرون من ظهور الدولة القومية المعاصرة، من خلال اعتقادهم بأنهم يعملون تبعا لكلمة الرب واستعدادا للجنة الأبدية، قاموا بمعاقبة أو قتل المهرطقين ومرتكبى الآثام. إن الأصولية اليهودية المعاصرة محاولة للعودة إلى المجتمع الذى كان موجودا قبل ظهور الحياة المعاصرة.

والقواعد الأساسية للأصولية اليهودية هى نفسها الخاصة بالديانات الأخرى: إعادة بعث وإحياء المجتمع الدينى «النقى» والورع المفترض وجوده فى الماضى.

كما سوف نقوم بوصف أصول وأيديولوجيات وممارسات وتأثير الأصولية على المجتمع ببعض التفصيل.

كما أننا سوف نؤكد بشكل خاص على الاتجاه المسيانى أو المسيحانى (الذى يبشر بظهور المسيح أو المخلص اليهودى وقيام مملكة اليهود).

وذلك لأننا نعتقد أنه الاتجاه الأكثر تأثيرا والأكثر خطورة فى إسرائيل.

وفيما يتعلق بالسياسة الخارجية، نجد أن الحزب القومى الدينى، الذى يسيطر عليه أنصار الاتجاه المسيانى (المبشر بالخلاص) للأصولية اليهودية، يعارض بشكل مستمر أى انسحاب من الأراضى التى احتلتها إسرائيل فى عام ١٩٦٧.

وقد عارض هؤلاء الأصوليون الانسحاب الإسرائيلى من سيناء عام ١٩٧٨، وبعد مرور عشرين عاما على ذلك مازالوا يعارضون أى انسحاب من الضفة الغربية، ونفس اليهود هم الذين قاموا بطباعة وتوزيع أطلس يبين أرض إسرائيل المزعومة، التى تنتمى فى رأيهم لليهود وتنتظر التحرير وتشتمل على سيناء والأردن ولبنان ومعظم سوريا والكويت. كما دافع الأصوليون اليهود عن المقترحات المسرفة فى التمييز العنصرى ضد الفلسطينيين.

إذن لاعجب أن باروخ جولدشتاين وإيجال عامير، أشهر السفاحين اليهود فى التسعينيات ومعظم المعجبين بهم كانوا من الأصوليين اليهود ذوى النزعة المسيانية.

وفى التسعينيات، ركز علماء الاجتماع والباحثون الإسرائيليون العاملون فى المجالات الأكاديمية أكثر من أى وقت مضى على الآثار الاجتماعية للأصولية اليهودية على المجتمع الإسرائيلى. والرأى الشائع بين هؤلاء الباحثين هو أن الأصولية اليهودية فى إسرائيل معادية للديمقراطية. ويعارض الأصوليون المساواة بين جميع المواطنين، وخاصة غير اليهود واليهود المنحرفين مثل الشواذ، والغالبية العظمى من اليهود المتدينين فى إسرائيل، بسبب تأثرهم بالأصوليين، يشاركونهم وجهات نظرهم إلى حد ما.

وفى عرض أحد الكتب التى نشرت فى ١٤ أكتوبر ١٩٩٨، يستشهد باروخ كيمرلنج، أحد علماء الاجتماع الإسرائيليين البارزين، ببعض الدلائل المأخوذة عن إحدى الدراسات التى قام

بها باحثون آخرون، قائلا:

«إن قيم الديانة (اليهودية)، على الأقل فى شكلها الأرثوذكسى والقومى الذى يسود إسرائيل، لا يمكن أن تتوافق مع القيم الديمقراطية، ولايوجد أى متغير آخر - سواء كان القومية أو الموقف من الأمن أو القيم الاجتماعية أو الاقتصادية أو السلالة العرقية أو التعليم - يؤثر على مواقف اليهود (الإسرائيليين) على نحو يضر بالديمقراطية كما يفعل التشدد الدينى».

ومن خلال الاستشهاد بأدلة إضافية، يقول كيمرلنج أيضا أن اليهود الإسرائيليين العلمانيين الذين حصلوا على تعليم جامعى أو متوسط هم أكثر التصاقا بالقيم الديمقراطية وأن اليهود المتدينين الذين تلقوا تعليمهم فى المدارس الدينية (اليشيفوت) هم الأكثر اعتراضا على الديمقراطية، ومن الواضح أن عداء الأصوليين للقيم الديمقراطية، وكذلك لمعظم جوانب الثقافة العلمانية ونمط الحياة السائدة، مغروس بعمق فى المدارس الدينية الإسرائيلية.

إن الأدلة التى تشير إلى عداء الأصوليين لأسلوب الحياة العلمانى للغالبية العظمى من اليهود الإسرائيليين بالغة الوضوح. والعدد الصادر يوم ٢٠ سبتمبر عام ١٩٩٨ من صحيفة «يديعوت أحرونوت»، أوسع الصحف اليومية الإسرائيلية انتشارا، على سبيل المثال، يحتوى على دراسة مسحية «للخصائص الثقافية» للمجتمع اليهودى الإسرائيلى. وكشفت الدراسة عن أن المستهلكين الإسرائيليين الأساسيين للثقافة، الذين يزورون المتاحف ويحضرون الحفلات الموسيقية ويشاهدون العروض المسرحية، هم أولئك الذين أتموا الدراسة بالمدرسة العليا، ووصفوا أنفسهم بأنهم لا علمانيون ولا متدينون أرثوذكس. وأكدت الصحافة الدينية الإسرائيلية وتصريحات الحاخامات الإسرائيليين، التى تدين

النشاط الثقافى، على نتائج الدراسة.

وأبدى الأصوليون اليهود عداء سافرا تجاه اليهود الذين يتبعون نمط حياة جنسية مختلفا، كما كان رد فعل الكثير من الحاخامات الإسرائيليين والأحزاب السياسية الدينية الإسرائيلية فى التسعينيات عنيفا تجاه تنامى قوة جماعات الشواذ والشاذات فى إسرائيل. وتبعا للهالاخاه (الشريعة اليهودية) فإن عقوبة الشذوذ هى الرجم حتى الموت، وعلى الرغم من أن العقوبة غير واضحة بالنسبة للسحاق، فإنه محرم أيضا. وركزت الصحافة العلمانية فى التسعينيات على بعض المقترحات الحاخامية الغاضبة للتعامل مع الشواذ، والتى اشتملت على «العلاج الإجبارى» وقضاء فترة فى «معهد تعليمى مغلق».

وأشار الكثير من الحاخامات إلى أنهم يفضلون تطبيق عقوبة الموت على الشواذ اليهود. (ومالوا إلى تنحية موضوع السحاق جانبا). وفى الدعاية الانتخابية التليفزيونية، كانت الأحزاب السياسية الإسرائيلية الدينية تؤكد على أن اليهود الشواذ يشكلون أحد أعظم الأخطار التى تهدد إسرائيل.

والصراعات فى المجتمع الإسرائيلى بين أنصار ومناوئى الأصولية اليهودية تعتبر ضمن أهم قضايا السياسة الإسرائيلية.

وفى هذا الكتاب لن نحاول مناقشة كل هذه المشاكل والقضايا. ولكننا سوف نركز على ما نعتبره المشاكل والقضايا الأكثر حيوية للأصولية اليهودية.

إن المدافعين عن «المصالح اليهودية» يهاجمون غالبا الأشخاص الذين يكتبون بشكل نقدى عن اليهود واليهودية بسبب عدم تأكيدهم فى نفس المكان على السمات الإيجابية والتى قد لايكون لها أى تأثير يذكر على الموضوع الذى تتم معالجته، وبعض هؤلاء

المدافعين، على سبيل المثال، قاموا بالهجوم على سيفى راكلفسكى بعد نشره كتابه الشهير «حمار المسيح». وفى كتابه زعم راكلفسكى أن الحاخام الأعظم كوك، الأب الروحى للنزعة المسيانية فى الأصولية اليهودية (والذى يشار إليه على نحو بارز فى هذا الكتاب)، قال أن «الفرق بين روح اليهود وأرواح غير اليهود - على مختلف المستويات - أكبر وأعمق من الفرق بين روح الإنسان وأرواح البهائم» ولم يحاول مناوئو راكلفسكى نفى علاقة كوك بهذه المقولة. ولكنهم، بدلا من ذلك، قالوا أن الحاخام كوك قال أشياء أخرى وأن راكلفسكى، من خلال إغفاله ذكرها، قد شوه تعاليم الحاخام كوك. وأشار راكلفسكى إلى أن مجمل تعاليم الحاخام كوك كانت قائمة على «القبالاه اللوريانية»، وهى تلك المدرسة من مدارس التصوف اليهودى التى سادت اليهودية من أواخر القرن السادس عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر (وقام بتأسيسها الحاخام إسحاق لوريا). وإحدى العقائد الأساسية للقبالاه اللوريانية تتمثل فى السمو المطلق للروح اليهودية والجسد اليهودى على الروح والجسد غير اليهوديين. وتبعا للقبالاه اللوريانية، فإن العالم خلق فقط من أجل اليهود، ووجود غير اليهود هو أمر ثانوى. فلو قام أحد القساوسة المسيحيين أو أحد رجال الدين الإسلامى البارزين بالقول بأن الفرق بين الأرواح السامية لغير اليهود والأرواح الأدنى لليهود أكبر من الفرق بين روح الإنسان وروح البهيمة، فإنه سوف يشعل غضب معظم الباحثين اليهود ويتهمونه بمعاداة السامية بصرف النظر عن العبارات الإيجابية التى يمكن أن تكون قد جاءت فى كلامه. ومن هذا المنظور يعتبر مناوئو راكلفسكى من معتنقى الرياء. ولكون الحاخام كوك كان نباتيا، وكونه كان حتى يحترم حقوق النباتات

لدرجة عدم سماحه بقطف الزهور من أجل أن يستمتع بها، لايضيف ولاينقص من موقفه الخاص بالمقارنة بين أرواح اليهود وغير اليهود شيئا. كما أن استنكاره للوحشية اليهودية غير الضرورية ضد غير اليهود لايجب أن يقلل من النقد الموجه لابتهاجه النابع من إيمانه بأن موت ملايين الجنود أثناء الحرب العالمية الأولى كان إحدى علامات قرب خلاص اليهود ومجيء المسيح.

إن المنتقصين من قدر راكلفسكى وأولئك الذين قد يمطروننا بوابل من النقد لنا ولكتابنا على السواء ليسوا المنافقين الوحيدين فى المنطقة. فأرفف المكتبات فى الدول التى تتحدث الإنجليزية وفى دول أخرى تئن تحت وطأة الكتب التى تتحدث عن التصوف اليهودى بشكل عام وعن القبالاه اللوريانية والحسيدية (وهى حركة صوفية أسسها بعل شيم طوف)، بشكل خاص. والكثير من مؤلفى هذه الكتب يعتبرون من أشهر الباحثين بسبب اهتمامهم بالتفاصيل. ومع ذلك، فإن من يقرأ هذه الكتب لاينتابه الشك فى أن التصوف اليهودى والقبالاه الليوريانية والحسيدية وتعاليم الحاخام كوك تحتوى على أفكار أساسية عن التفوق اليهودى مقارنة بأسوأ أشكال معاداة السامية.

فمؤلفو هذه الكتب، ومنهم جيرشون شوليم على سبيل المثال، قد أغفلوا الإشارة إلى هذه الأفكار. فهؤلاء المؤلفون منافقون على أعلى مستوى. وهم بذلك يشبهون الكثير من مؤلفى الكتب التى تتناول ستالين والستالينية، فحتى وقت قريب، لم يكن يستطيع قراء الكتب التى كتبت بواسطة أنصار ستالين أن يعلموا شيئا عن جرائم ستالين كما كانت لديهم أفكار خاطئة عن الأنظمة الستالينية وأيديولوجياتها الفعلية.

والواقع أن هناك يهودا معينين، بعضهم يملك نفوذا سياسيا،

يعتبرون أن اليهود أعلى منزلة من غير اليهود، وينظرون إلى العالم على أنه خلق فقط أو بشكل أساسى من أجل اليهود، وهذا الإيمان بالتفوق اليهودى يكون أخطر ما يمكن حينما يكون متغلغلا فى نفوس يهود يحبون أطفالهم، ويتميزون بالأمانة فى علاقاتهم باليهود الآخرين وفى معاملاتهم وتتميز أعمالهم، كما هى الحال بالنسبة للأصوليين فى كل الديانات، بالتقوى.

كما يكون هذا الاعتقاد أقل خطورة حينما يؤمن به يهود لايهتمون كثيرا بالدين أو بالفساد. ونفس الشىء يمكن أن نراه حينما يكون هناك نظام علمانى شمولى، فإن الشخص المخلص لهذا النظام أو القومى المتشدد يكون عادة أكثر خطورة وضررا من أى شخص فاسد فى نفس النظام الأيديولوجى.

والمحصلة النهائية لهذه المقدمة هى محصلة شخصية وعامة. فنحن كيهود، ندرك أن أجدادنا أو أسلافنا آمنوا على الأقل ببعض الأفكار التى جاءت فى هذا الكتاب.

ونفس العبارة يمكن أن تنطبق على يهود معاصرين آخرين.

ففى الماضى اعتنق الكثير من غير اليهود، أفرادا وجماعات، أفكارا معادية للسامية، والتى - حينما أصبحت الظروف مواتية - أثرت على سلوك الآخرين تجاه اليهود. وبالمثل، فى الماضى، كانت العبودية تمارس فى أركان البسيطة الأربعة وتجد من يبرر وجودها، وكانت المنزلة المتدنية للمرأة ظاهرة عالمية، وكان هناك إيمان بانتماء بلد معين لفرد معين أو عائلة معينة وكان يورث. والأصوليون اليهود مازالوا يؤمنون، كما كانوا فى الماضى، بأن هناك عصرا ذهبيا، كان، أو سوف يكون - كل شىء فيه بالغ الكمال. وهذا العصر الذهبى يكون أقرب ما يكون إلى الواقع بالنسبة لهم لدرجة أنهم عندما يواجهون بمعتقداتهم

وممارساتهم الضارة فإنهم يلوذون بكلمة الرب، كما يلجأون إلى الوصف الكاذب للماضى وإدانة غير اليهود بأنهم يضمرون الإحساس بالتفوق ويزدرون اليهود.

كما يقوم الأصوليون أيضا بتبرير إيمانهم بالتفوق اليهودى وشعورهم بالاحتقار تجاه غير اليهود ويسعون إلى إحياء العصر الذهبى الأسطورى الذى يسود فيه ما يؤمنون به.

لقد كتبنا هذا الكتاب من أجل الكشف عن الشخصية الحقيقية للأصولية اليهودية ومعتنقيها. هذه الشخصية التى تهدد السمات الديمقراطية للمجتمع اليهودى. ونحن نؤمن بأن الوعى هو أولى خطوات المعارضة.

كما ندرك أنه من خلال نقد الأصولية اليهودية فإننا ننقد جزءا من الماضى الذى نحبه. إننا نرغب فى أن يقوم أعضاء كل المجتمعات البشرية بنقد ماضيهم، حتى قبل أن ينقدوا الآخرين. وهذا - كما نعتقد - يمكن أن يؤدى إلى تفاهم أفضل بين المجتمعات الإنسانية، ويمكن أن تتبعه، ربما على نحو بطئ ومتردد، معاملة أفضل للأقليات. ومعظم ما جاء فى كتابنا يتعلق بالمعتقدات الأساسية للمجتمع اليهودى الإسرائيلى والسياسات الناجمة عن ذلك. ونحن نؤمن بأن نقد الأصولية اليهودية، الذى يتضمن نقدا للماضى اليهودى، يمكن أن يساعد اليهود على اكتساب المزيد من الفهم وتحسين سلوكهم تجاه الفلسطينيين، وخاصة فى الأراضى المحتلة عام ١٩٦٧، كما نأمل أن يؤدى نقدنا إلى تحفيز أشخاص آخرين فى الشرق الأوسط على نقد ماضيهم برمته من أجل زيادة معرفتهم بأنفسهم وتحسين سلوكهم تجاه الآخرين.

وكل ذلك يمكن أن يشكل عاملا جوهريا فى تحقيق السلام فى الشرق الأوسط.

مقدمة

هذا كتاب سياسى عن الأصولية اليهودية. وهو يشتمل على بعض البحوث الأصيلة ولكنه يعتمد إلى حد بعيد على بحوث الآخرين. ونأمل أن يكون هذا الكتاب تحليليا.

وقد أوردنا فى هذا الكتاب الكثير من الاقتباسات الوفيرة المأخوذة من مقالات جادة نشرت فى الصحف الإسرائيلية الناطقة بالعبرية. والغالبية العظمى من اليهود الإسرائيليين على دراية بالأصولية اليهودية وببعض ردود الأفعال التى أحدثتها هذه المقالات على مدى العشر السنوات إلى الخمس عشرة سنة الماضية. وبعض هذه المقالات قد قدمت ملخصات وتحليلات بواسطة باحثين رواد قاموا بالبحث فى أعمق جوانب الأصولية اليهودية.

وقد قمنا باقتباس وشرح نصوص مأخوذة من التلمود (على الرغم من أن هناك تلمودين، أحدهما فلسطينى والآخر بابلى، فإن كلمة «تلمود» دون تحديد تشير إلى التلمود البابلى، الذى يعتبر أكثر النصوص قداسة لدى اليهود الأرثوذكس). وهذه النصوص قد استخدمت ومازالت تستخدم فى السياسة الإسرائيلية ويستشهد بها غالبا فى الصحافة الإسرائيلية الناطقة بالعبرية. وقد وجدنا أنه فى الترجمات الإنجليزية المعتادة لنصوص التلمود هناك بعض الفقرات

الأكثر حساسية لاتترجم على النحو الصحيح أو يكون بها بعض التحريف، ولذلك قمنا بترجمة كل النصوص المأخوذة من التلمود والتى استشهدنا بها فى هذا الكتاب.

ومع ذلك فإن الأجزاء المقتبسة من الكتاب المقدس تتبع الترجمات القياسية المعترف بها، فى بعض الأحيان من خلال إنجليزية أكثر حداثة، إلا إذا أشرنا إلى ما يخالف ذلك.

ونحن ندرك أننا قدمنا عددا من الاقتباسات المطولة، ولكننا رأينا أن ذلك ضرورى من أجل شرح مانريد على نحو كاف. كما أننا نعتقد أن هذه الاقتباسات تستحق ويجب أن تقرأ كاملة. وبدلا من أن نشير إلى مكان اقتباس كل جزء على نحو منفصل حسب طريقة البحث التقليدية، قررنا أن نشير إلى المكان الذى أخذت منه بشكل تفصيلى مصاحب لها. وعلى الرغم من أن ذلك قد يبدو أحيانا به بعض التطويل، فإنه يجعل الفهم أكثر سلاسة.

وعلى الرغم من أن كتابنا يتعامل بشكل أساسى مع التطورات الحديثة فى الأصولية اليهودية، فإنه يضرب بجذوره فى التاريخ اليهودى. والقيام بمراجعة شاملة موجزة للتاريخ اليهودى، وخاصة لأولئك القراء الذين ليست لديهم المعرفة الكافية به، هو أمر ضرورى من أجل توفير الإطار العام للموضوع. والأصوليون فى كل الأديان يرغبون فى العودة بالمجتمع إلى «الأزمنة القديمة الطيبة» حيث كانت العقيدة خالصة ويمارسها كل فرد. ويؤمن الأصوليون بأنه فى «الزمن القديم الخير» لم تكن هناك أى شرور من تلك المصاحبة للعصر الحديث. ومن أجل فهم الأصولية اليهودية يجب التعرف على الحقبة التاريخية التى يؤمن الأصوليون بأنها يجب أن تعود. ومن أجل القيام بذلك، يجب أن نحدد الفترات

المختلفة للتاريخ اليهودى.

يقسم التاريخ اليهودى عادة إلى أربع فترات رئيسية. الأولى هى الفترة البابلية والتى خلالها كتب معظم الكتاب المقدس اليهودى (العهد القديم حسب التعبير المسيحى). وعلى الرغم من أن بداية هذه الفترة غير معروفة، فإنها استمرت حتى القرن الخامس قبل الميلاد على وجه التقريب.

واليهودية، على الأقل من حيث خصائصها الجوهرية، لم تكن موجودة فى تلك الفترة الزمنية. والكلمة العبرية «يهوديم» (أى «اليهود» فى عبرية ما بعد الكتاب الكتاب المقدس) وما يقابلها فى الكتاب المقدس اليهودى تشير إلى سكان مملكة يهودا الصغيرة، وتستخدم لتمييز هؤلاء السكان عن كل الشعوب الأخرى الذين يطلق عليهم الإسرائيليون أو «أبناء إسرائيل» أو نادرا، «العبرانيون». وعلى كل حال فإن الكتاب المقدس ليس هو الكتاب الذى يحدد بشكل أساسى ممارسات ومذاهب اليهود الأرثوذكس. واليهود الأرثوذكس الأكثر تشددا يجهلون إلى حد بعيد أجزاء كبيرة من الكتاب المقدس ويلمون ببعض أجزائه فقط من خلال التفسيرات التى تشوه المعنى. علاوة على ذلك، فإن الخلافات تمزق هذه الحقبة الخاصة بالكتاب المقدس. فمعظم الإسرائيليين، بما فى ذلك سكان يهودا، كانوا من الوثنيين خلال الجانب الأعظم من هذه الحقبة. فقط قلة قليلة من الإسرائيليين اتبعوا النزعات التى انبثقت منها اليهودية فى وقت لاحق.

بإيجاز، لم تكن اليهودية، كما نعرفها الآن، موجودة خلال حقبة الكتاب المقدس.

الحقبة الثانية فى التاريخ اليهودى، والتى تسمى عادة حقبة

الهيكل الثانى، بدأت فى القرن الخامس قبل الميلاد واستمرت حتى تدمير الهيكل الثانى بواسطة الرومان فى عام ٧٠ بعد الميلاد. وكانت هذه هى الفترة الرسمية لليهود بكل خصائصها اللاحقة. ومصطلح «يهود» الذى يشير إلى الشعب الذى يتبع الديانة اليهودية، وكلمة يهودا التى تشير إلى الأرض التى يعيش فيها اليهود، ظهرا فى تلك الحقبة. ومع اقتراب تلك الحقبة من نهايتها، بعد أن قام اليهود باجتياح فلسطين. استخدم الرومان كلمة «يهودا» لوصف فلسطين، وأهم خاصيتين يهوديتين جديدتين تبلورتا فى هذه الفترة هما انغلاق المجتمع اليهودى والانفصال اللاحق لليهود عن كل الأمم الأخرى. ولأول مرة يشار إلى أفراد الأمم الأخرى باسم الأغيار (غير اليهود وهو لفظ توراتي). والخاصية الجديدة الثانية كانت قائمة على افتراض أن اليهود يجب أن يتبعوا شريعة الكتاب المقدس، التى تمثل التفسير الحقيقي للشريعة. ومع ذلك، طوال الجانب الأعظم من هذه الحقبة، كان هناك الكثير من الخلافات حول التفسيرات المختلفة والمتصارعة للشريعة الموجودة فى الكتاب المقدس. وفى بعض الأحيان، تحولت هذه الخلافات إلى حروب أهلية. ولم يكن الصراع الطويل الأمد الذى نشب بين الفريسيين والصدوقيين إلا أحد أمثلة ذلك. وبعد وقت قصير من بداية هذه الحقبة، قام الإسكندر الأكبر بغزو فلسطين. وحكمت الدول الخاضعة للنفوذ الهلينى فلسطين لما يقرب من ألف عام، فحتى الدولة اليهودية المستقلة التى لم تعش طويلا فى ظل الأسرة الهاسمونية كانت أحد أنماط الدول الهلينية.

وبناء على ذلك، فإن المجتمع اليهودى واللغة العبرية، على الرغم من احتفاظهما بالخصائص اليهودية، قد شهدا عملية تحول

بسبب النفوذ الهليني. كما أثرت الهلينية على نحو أكثر عمقا على الشتات اليهودى (الدياسبورا) فى بلدان البحر الأبيض المتوسط. واليهود فى تلك الدول كانوا يتحدثون ويصلون باليونانية. ولسوء الحظ أن معظم الكتابات اليهودية التى كتبت باللغة اليونانية فى تلك الفترة فقدت فى وقت لاحق، وبقى فقط ذلك الجزء الذى احتفظت به الكنائس المسيحية المختلفة.

يرجع معظم المؤرخين بداية الحقبة الثالثة إلى عام ٧٠ بعد الميلاد مع تدمير الهيكل الثانى. وهناك مؤرخون آخرون يفضلون إرجاع بداية الفترة الثالثة إلى عام ١٣٥ بعد الميلاد، حينما انتهى آخر التمردات اليهودية الكبرى ضد الإمبراطورية الرومانية. وانتهت هذه الحقبة فى أزمنة مختلفة فى دول مختلفة بظهور المعاصرة ونشوء دول قومية حديثة.

ولقد بدأت المعاصرة حينما منح اليهود حقوقهم كمواطنين على نحو مساو لتلك الممنوحة لغير اليهود، وحينما انتهى استقلالهم الذى كان ينطوى على الخضوع للحاخامات. وحدث ذلك فى الولايات المتحدة وفرنسا، على سبيل المثال، مع نهاية القرن الثامن عشر، ولكنه لم يحدث فى روسيا حتى عام ١٩١٧ أو فى اليمن حتى الخمسينيات. وأدى التمرد اليهودى ضد الرومان إلى فقدان دائم للسكان اليهود فى فلسطين، مما أدى إلى المزيد من تزايد أهمية الدياسبورا اليهودية.

وأصبح هذا التحول فعالا إلى حد بعيد فى القرن الخامس بعد الميلاد.

بالإضافة إلى ذلك، أدى فشل التمرد اليهودى إلى جعل اليهود يفقدون الأمل فى إعادة بناء الهيكل، وفى استئناف التضحية

بالحيوانات داخل الهيكل، الذى كان فى السابق قلب الديانة اليهودية، قبل مجىء المسيح. وأدت الهزائم المتتالية إلى جعل اليهود يتعايشون مع السلطة الحاكمة فى روما ومع دول أخرى فى مقابل منحهم حكما ذاتيا محدودا يديره الحاخامات.

وعلى ذلك، فى الإمبراطورية الرومانية فى القرن الرابع الميلادى، من خلال نظام أنشئ قبل وقت طويل من هذا التاريخ، كان اليهود جميعا خاضعين فى أمورهم الدينية للبطريرك الذى كان يمتلك سلطة معاقبتهم بالجلد والغرامة نتيجة لارتكاب المخالفات الدينية، وكذلك بفرض الضرائب، والشخص الرفيع المقام الذى كان يسمى البطريرك فى المصادر الرومانية كان يسمى فى المصادر العبرية الرئيس («ناسى» بالعبرية).

وكان يرأس المحكمة اليهودية العليا (السانهدرين) ويقوم بتعيين أعضاء المحكمة فى فلسطين والموظفين الدينيين الآخرين. وكان البطريرك، الذى كان منصبه ذا طبيعة هرمية، يحتل منزلة مرتفعة فى نظام الدولة الرومانية. ووجد نظام مشابه فى نفس الوقت فى العراق حيث كان هناك مسئول أعلى يسمى عميد الدياسبورا. وكل من البطريرك وعميد الدياسبورا كانا يدعيان أنهما من نسل الملك داود.

وقد بقى منصب البطريرك بعد وقت وجيز من عام ٤٢٩ من الميلاد، ومنصب عميد الدياسبورا حتى حوالى عام ١١٠٠ ميلادية. وكلا المنصبين كان يمثل الإطار العام لنماذج الحكم الذاتى اليهودى.

وقد ساهم هذا الحكم الذاتى، الذى استمر حتى الحقبة الحديثة، وكانت له أصداؤه بعد ذلك، فى نشوء الأصولية اليهودية. والجانب الكبير من الكتابات التى تم إنتاجها فى الحقبة الثالثة،

أطول حقب التاريخ اليهودى، كتب معظمها بالعبرية، ولكن أيضا بالآرامية واليونانية والعربية والييديشية (خليط من العبرية والألمانية) ولغات أخرى. وكان الموضوع الأساسى لهذه الكتابات هو الدين، وتم التأكيد على دقائق الشعائر اليهودية. كما ظهرت الفلسفة والشعر والعلوم، المنتمية لأرسطو بشكل أساسى، فى بعض الأوقات فى بعض الأماكن، ولكنها لم تكن شاملة ولامستمرة، وفى الكثير من مناطق الشتات (الدياسبورا)، خاصة فى وسط أوروبا، كانت الكتابات الوحيدة التى يتم إنتاجها حتى عام ١٧٥٠ هى كتابات دينية.

ومن منظور الأصولية اليهودية، كانت أهم مكتسبات الحقبة الثالثة هى تنامى التصوف اليهودى، والذى يشار إليه عادة باسم القبالاه، وأدى التصوف اليهودى إلى إحداث تحول فى المعتقدات اليهودية دون المساس بالشعائر الدينية باستثناء بعض التفاصيل القليلة.

وفيما بين عامى ١٥٥٠ و١٧٥٠، اعتنقت الغالبية العظمى من اليهود فى غرب أوروبا القبالاه وكل المعتقدات المتصلة به، وكان ذلك يمثل نهاية الحقبة الثالثة من التاريخ اليهودى التى سبقت ظهور الدول القومية المعاصرة وبداية التأثيرات الحديثة. ولايزال التصوف معتنقا بواسطة الأصولية اليهودية ويشكل جانبا حيويا من معتقداتها وخاصة بالنسبة لأنصار الاتجاه المسيانى.

وكما سوف يتضح ذلك فى كتابنا هذا، فإن أيديولوجية الاتجاه المسيانى فى الأصولية اليهودية تعتمد على القبالاه.

وعلى الرغم من الإشارة العابرة إلى الكتاب المقدس فى بعض المواضع، فإن الأصوليين اليهود يشيرون دائما ويصفون الجزء

الأخير من هذه الحقبة الثالثة على أنه العصر الذهبى الذى يرغبون فى نفخ روح الحياة فيه. ويجدر بنا أن نلاحظ، على نحو يتجاوز تفريخ الأصولية اليهودية، الانتشار الواسع للكتابات الدينية فى تلك المرحلة الثالثة مما أدى إلى خلق شعور قوى بالوحدة اليهودية، بناء على الديانة المشتركة واللغة العبرية. (فكل اليهود المتعلمين، بصرف النظر عن اللغة التى كانوا يتحدثونها، استوعبوا واستخدموا العبرية كلغة مكتوبة لديانتهم).

الحقبة الرابعة والمعاصرة هى تلك التى نعيش فيها.

وقد بدأت فى أزمنة مختلفة فى بلدان مختلفة، حيث انتقل الكثير من اليهود الإسرائيليين، من عصور ما قبل المعاصرة إلى الأزمنة المعاصرة. وكما سوف نرى فى الفصل الثالث من هذا الكتاب، تعتبر هذه ظاهرة مهمة وخاصة بالنسبة لليهود الشرقيين.

ويؤكد كتابنا على أن الأصولية اليهودية نشأت كرد فعل لتأثير المعاصرة علي اليهود، ويمكن فهم تأثير الأصولية اليهودية على المجتمع اليهودى الإسرائيلى فقط من خلال سياق المسار الكلى للتاريخ اليهودى.

1

الأصولية اليهودية داخـــل المجتمع اليهودى



إن كل يهودى إسرائيلى متوسط الثقافة، على وجه التقريب، يعرف الحقائق الواردة بهذا الكتاب عن المجتمع اليهودى الإسرائيلى. ومع ذلك، فإن هذه الحقائق غير معروفة لمعظم اليهود وغير اليهود خارج إسرائيل الذين لا يعرفون العبرية وبذلك لا يستطيعون قراءة معظم ما يكتبه اليهود الإسرائيليون عن أنفسهم بالعبرية. وهذه الحقائق نادرا ما تذكر أو توصف بدقة فى التغطية الإعلامية الهائلة لإسرائيل فى الولايات المتحدة وفى أماكن أخرى. والهدف الأساسى من هذا الكتاب هو تمكين أولئك الأشخاص الذين لا يقرأون العبرية من المزيد من فهم أحد الجوانب المهمة للمجتمع اليهودى الإسرائيلى.

ويشير هذا الكتاب إلى الأهمية السياسية للأصولية اليهودية فى إسرائيل، تلك الدولة التى تمارس نفوذا عظيما فى الولايات المتحدة. والأصولية اليهودية تعرف هنا على نحو موجز على أنها الإيمان بأن الأرثوذكسية اليهودية، القائمة على التلمود البابلى وبقية الكتابات التلمودية ومجمل الشريعة اليهودية (الهالاخاه)، مازالت صالحة وسوف تظل كذلك أبدا. ويؤمن الأصوليون اليهود بأن الكتاب المقدس نفسه لا يعتد به ما لم يفسر على النحو الصحيح من خلال كتابات التلمود.

ولا توجد الأصولية اليهودية فى إسرائيل فقط، ولكن فى كل بلد به مجتمع يهودى كبير العدد. وفى بلاد أخرى غير إسرائيل، حيث يشكل اليهود أقلية صغيرة بالنسبة لمجمل السكان، فإن الأهمية العامة

للأصولية اليهودية تكون مقتصرة بشكل رئيسى على حشد الدعم المالى والسياسى للأصوليين فى إسرائيل. أما أهميتها فى إسرائيل فإنها أكبر إلى حد بعيد لأن معتنقيها يستطيعون التأثير فى الدولة بطرق عديدة ويفعلون. وتنوع الأصولية اليهودية فى إسرائيل يثير الدهشة. فالكثير من الأصوليين، على سبيل المثال، يرغبون فى إعادة بناء الهيكل على «جبل الهيكل» فى القدس أو يريدون على الأقل الحفاظ على موقعه، الذى هو الآن مصلى للمسلمين، خاليا من الزائرين، وفى الولايات المتحدة لا يوافق معظم المسيحيين على ذلك، ولكن عددا كبيرا من اليهود الإسرائيليين داخل إسرائيل والذين لا يعتبرون من الأصوليين يتفقون على ذلك، ويؤيدون هذا المطلب، ومطالب مشابهة، وبعض أنواع الأصولية اليهودية تمثل خطرا يفوق الأنواع الأخرى إلى حد كبير. والأصولية اليهودية ليست قادرة على التأثير فقط فى السياسات الإسرائيلية التقليدية ولكنها قادرة أيضا على التأثير على السياسات الإسرائيلية النووية. ونفس عواقب الأصولية التى يخشاها الكثير من الأشخاص فى بلدان أخرى يمكن أن تحدث فى إسرائيل.

إن أهمية الأصولية فى إسرائيل يمكن فهمها فقط فى سياق المجتمع اليهودى الإسرائيلى وكجزء من إسهام الديانة اليهودية فى الانقسامات الداخلية للمجتمع. وتناولنا لهذا الموضوع الواسع يبدأ التركيز على الوسائل التى من خلالها يقوم المراقبون المطلعون بتقسيم المجتمع اليهودى الإسرائيلى سياسيا ودينيا. وبعد ذلك سوف نمضى قدما فى شرح أسباب تأثير الأصولية اليهودية بدرجات متفاوتة على اليهود الإسرائيليين الآخرين، مما يسمح لليهود الأصوليين بالحصول على قوة سياسية، فى إسرائيل أكبر من حجمهم الحقيقى من حيث العدد.

إن التقسيم الثنائى المعتاد للمجتمع اليهودى الإسرائيلى يعتمد بشكل جوهرى على إدراك أن اليهود الإسرائيليين يتميزون بدرجة عالية من الأيديولوجية، ويتضح ذلك إلى حد بعيد من خلال نسبة التصويت

المرتفعة، والتى تزيد عادة على ٨٠٪، وفى انتخابات مايو ١٩٩٦، شارك فى التصويت ما يزيد على ٩٠٪ من اليهود العلمانيين الأفضل تعليما والأكثر ثراء واليهود المتدينين من كل فئات التعليم والدخل، وبعد استبعاد العدد الكبير من اليهود الإسرائيليين الذين يقيمون خارج إسرائيل (ما يزيد على ٤٠٠٠٠٠ فرد)، والذين لم يصوت معظمهم، يمكن القول دون أدنى شك أن كل من له حق التصويت فى القطاعين اللذين يمثلان المجتمع اليهودى الإسرائيلى، أدلى بصوته فى الانتخابات. إن معظم المراقبين السياسيين الإسرائيليين يفترضون الآن أن اليهود الإسرائيليين ينقسمون إلى فئتين: إسرائيل (أ) وإسرائيل (ب). ويشار إلى إسرائيل (أ) غالبا بـ «اليسار» الذى يمثله سياسيا حزبا العمل وميرتس، وإلى إسرائيل (ب) بـ «اليمين» أو «اليمين والأحزاب الدينية» ويتكون من كل الأحزاب اليهودية الأخرى. وكل إسرائيل (أ) تقريبا والغالبية العظمى من إسرائيل (ب) فيما عدا بعض اليهود الأصوليين، تعتنق الأيديولوجية الصهيونية بقوة والتى تتلخص فى أن كل أو على الأقل الغالبية العظمى من اليهود يجب أن يهاجروا إلى فلسطين باعتبارها أرض إسرائيل، والتى تنتمى إلى كل اليهود، ويجب أن تكون دولة يهودية. ومع ذلك فهناك عداء متزايد بين هذين القطاعين للمجتمع الإسرائيلى. وأسباب هذا العداء عديدة، والسبب المرتبط بهذه الدراسة هو أن إسرائيل (ب)، متضمنة أعضاءها العلمانيين، تتعاطف مع الأصولية اليهودية بينما إسرائيل (أ) ليست كذلك.

ويتضح من دراسة نتائج الانتخابات على مدى فترة زمنية طويلة أن إسرائيل (ب) تحصل بشكل مستمر على تفوق عددى على إسرائيل (أ). وهذا يدل على أن عدد اليهود المتأثرين بالأصولية اليهودية فى ازدياد مستمر.

وفى مقاله المسمى «الدين والقومية والديمقراطية فى إسرائيل» الذى نشر فى العدد الصادر فى خريف ١٩٩٤ من مطبوعة «زائمنيم» (رقم ٥٠ - ٥١)، قدم البروفيسور باروخ كيمرلنج، عضو هيئة التدريس بقسم

الاجتماع بالجامعة العبرية، بيانات خاصة بالتصنيف الدينى للمجتمع اليهودى الإسرائيلى، ومن خلال الاستشهاد بالعديد من الدراسات البحثية، بين كيمرلنج بشكل قاطع أن المجتمع اليهودى الإسرائيلى منقسم حول القضايا الدينية بدرجة أكبر مما يعتقد عادة إلى حد بعيد خارج إسرائيل، حيث تسود مفاهيم وجود أشياء «مشتركة بين كل اليهود».

ومن خلال الاستعانة بالبيانات الواردة فى إحدى دراسات استطلاع الرأى والتى قام بها معهد جوتمان الذائع الصيت والتابع للجامعة العبرية فى القدس، يشير كيمرلنج إلى أنه بينما أفاد ١٩٪ من اليهود الإسرائيليين بأنهم يصلون يوميا، أعلن ١٩٪ آخرين بأنهم لم يدخلوا المعبد تحت أى ظرف من الظروف.

ومن خلال تأثرهم بتحليل معهد جوتمان ودراسات مشابهة، توصل كيمرلنج وباحثون آخرون إلى أن إسرائيل (أ) وإسرائيل (ب) تحتوى على أشخاص يعتنقون وجهات نظر معارضة تماما للديانة اليهودية، وهذا صحيح بالتأكيد.

على نحو أكثر عمومية، يمكن تقسيم الموقف من الدين فى المجتمع اليهودى الإسرائيلى إلى ثلاثة أقسام: اليهود المتدينون الذين يلتزمون بتعاليم الدين اليهودى، كما يحددها الحاخامات الأرثوذكس، والكثير منهم يركزون على الشعائر أكثر من تركيزهم على جوهر الإيمان، (عدد اليهود الإصلاحيين والمحافظين صغير فى إسرائيل) ويقوم اليهود التقليديون بالحفاظ على بعض التعاليم المهمة للديانة اليهودية بينما يقومون فى نفس الوقت بانتهاك التعاليم غير الملائمة من وجهة نظرهم ويقدسون الحاخامات والدين. وربما يقوم العلمانيون فى بعض الأحيان بدخول المعابد ولكنهم، لا يكنون أى احترام للحاخامات أو للمؤسسات الدينية، والخط الفاصل بين اليهود التقليديين واليهود العلمانيين فى الغالب يفتقد الوضوح، ولكن تشير الدراسات إلى أن ٢٥ إلى ٣٠٪ من اليهود الإسرائيليين هم من العلمانيين، و٥٠ إلى ٥٥٪ من

التقليديين وحوالى ٢٠٪ متدينون وينتمى اليهود التقليديون على نحو واضح إلى كل من إسرائيل (أ) وإسرائيل (ب).

وينقسم اليهود الإسرائيليون المتدينون إلى مجموعتين مختلفتين. ويسمى أعضاء الجماعة الأكثر تطرفا «أو تشددا» منهما «الحريديم». (وهى جمع لكلمة «حريدى» بمعنى الذى يخشى الله أو المتقى). أما أعضاء الجماعة الأكثر اعتدالا فيطلق عليهم اليهود المتدينون القوميون.

ويطلق أحيانا على اليهود المتدينين القوميين «ذوى الطواقى المشغولة» نسبة إلى ما يضعونه فوق رؤوسهم. أما الحريديم فإنهم يرتدون عادة أغطية رأس سوداء ولكنها لا تكون مشغولة أبدا، أو يرتدون قبعات سوداء. ويرتدى اليهود المتدينون القوميون عادة الملابس العادية التى يرتديها بقية أفراد الشعب الإسرائيلى بينما يرتدى الحريديم دائما الملابس السوداء.

وينقسم الحريديم فى حد ذاتهم إلى حزبين: الأول، يسمى ياهدوت هاتوراه «أى يهود التوراة» وهو حزب الحريديم الإشكناز القادمين من أوروبا الشرقية. (الإشكناز عموما هم اليهود من أصل غربى)، وحزب ياهدوت هاتوراه عبارة عن ائتلاف من جماعتين.

الحزب الثانى للحريديم هو حزب شاس، وهو حزب الحريديم الشرقيين الذين يعود أصلهم إلى الشرق الأوسط.

(والفرق بين مجموعتى الحريديم سوف يناقش على نحو أكثر تفصيلا فى الفصل الثالث). واليهود المتدينون القوميون منتظمون فيما يسمى بالحزب الدينى القومى (NRP). ومن خلال تحليل التصويت الانتخابى لعام ١٩٩٦ وإجراء بعض التعديلات الضرورية، نستطيع أن نقدر النسب المئوية لشعبية هاتين المجموعتين من اليهود المتدينين.

ففى انتخابات ١٩٩٦ حصل الحزبان المنتميان للحريديم معا على ١٤ مقعدا من إجمالى عدد مقاعد الكنيست البالغة ١٢٠ مقعدا، فحصل شاس على عشرة مقاعد وياهدوت هاتوراه على أربعة مقاعد. أما الحزب

الدينى القومى ففاز بتسعة مقاعد، وأقر بعض اليهود الإسرائيليين بأنهم صوتوا لصالح شاس لأن التمائم والتعويذات التى وزعها الحزب تكون صالحة فقط بعد التصويت «الصحيح».

علاوة على ذلك فإن بعض أعضاء الحزب الدينى القومى وأنصارهم اعترفوا بأنهم صوتوا لصالح أحزاب علمانية يمينية. وعلى كل حال، فإن الحريديم يشكلون غالبا ١١٪ من عدد سكان إسرائيل و١٣,٤٪ من اليهود الإسرائيليين وأنصار الحزب الدينى القومى يمثلون حوالى ٩٪ من عدد السكان و١١٪ من اليهود الإسرائيليين.

والمعتقدات الأساسية للمجموعتين من اليهود المتدينين تحتاج إلى بعض التفسير التمهيدى. فكلمة «حريدى» هى كلمة عبرية شائعة تعنى «الخائف» وخلال التاريخ اليهودى المبكر، كانت تعنى «خشية الله» أو تجاوزا «التقِى» وفى منتصف القرن التاسع عشر تم استخدامها، أولا فى ألمانيا والمجر وبعد ذلك فى أجزاء أخرى من الشتات، كاسم لحزب اليهود المتدينين الذين يعارضون أى اختراع حديث «أى بدعة». وظهر الحريديم الإشكناز كمجموعة رجعية تعارض التنوير اليهودى عموما، وبشكل خاص أولئك اليهود الذين يرفضون الخضوع لسلطة الحاخامات والذين أدخلوا البدع فى العبادة اليهودية ونمط الحياة اليهودى. ومن خلال رؤيتهم لقبول كل اليهود تقريبا لهذه البدع، كان رد فعل الحريديم أكثر تطرفا وحرموا أى ابتكار «أو بدعة». ويصر الحريديم حتى اليوم على الالتزام الصارم بالهالاخاه (الشريعة اليهودية) ومن الأمثلة الدالة على معارضتهم لأى ابتكار إصرارهم على ارتداء الزى الأسود الذى أشرنا إليه آنفا والذى كان يرتديه يهود شرق أوروبا حينما شكل الحريديم الحزب الخاص بهم.

وقبل ذلك الوقت كان اليهود يرتدون مختلف الأزياء وكانوا فى الغالب لا يختلفون فى ملابسهم عن جيرانهم. وبعد فترة وجيزة، كان كل اليهود تقريبا فيما عدا الحريديم يرتدون ملابس مختلفة. علاوة على

ذلك، لم تلزم الشريعة اليهودية (الهالاخاه) اليهود بأن يرتدوا ملابس سوداء، ولا بأن يرتدوا معاطف سوداء ثقيلة وقبعات مبطنة بالفرو فى الصيف الحار ولا فى أى وقت آخر، ومع ذلك فإن الحريديم فى إسرائيل يواصلون فعل ذلك، من أجل الاعتراض على البدع، ويصرون على استمرار الزى الذى كان يتم ارتداؤه فى أوروبا فى حوالى عام ١٨٥٠ . وكل الاعتبارات الأخرى بما فيها اعتبارات الطقس، باطلة.

وعلى النقيض من الحريديم، قام اليهود المتدينون القوميون بالحزب الدينى القومى بالتصالح مع المعاصرة فى بداية العشرينيات حينما ظهر الانشقاق بين التجمعين الكبيرين من اليهود المتدينين للمرة الأولى فى فلسطين، وهذا يمكن أن يلاحظ بشكل واضح فى ملابسهم التقليدية باستثناء غطاء الرأس الصغير (القلنسوة) والأمر الأكثر أهمية يتمثل فى تعاملهم الانتقائى مع الشريعة اليهودية (هالاخاه)، فهم يرفضون، على سبيل المثال الكثير من التعاليم الخاصة بالمرأة، ولا يتردد أعضاء الحزب الدينى القومى فى قبول النساء بمواقع السلطة فى كثير من تنظيماتهم، وفى الحزب نفسه. وقبل انتخابات ١٩٩٢ و١٩٩٦ قام الحزب الدينى القومى بنشر وتوزيع إعلان يحتوى على صور فوتوغرافية لمختلف الشخصيات العامة تحتوى على بعض النساء اللائى يؤيدن الحزب كما ظهرت النساء فى الدعاية التليفزيونية بدرجة أكثر كثافة.

أما الحريديم فإنهم لم ولن يفعلوا، فحتى عندما قرر الحريديم، الذين يحرمون مشاهدة التليفزيون على أنفسهم، أن يقدموا بعض البرامج الانتخابية التليفزيونية الموجهة لليهود الآخرين، أصروا على أن يكون كل المشاركين فيها من الذكور، وأثناء الحملة الانتخابية لعام ١٩٩٢، قام محررو إحدى المطبوعات الحريدية الأسبوعية باستشارة الرقيب الحاخامى بشأن نشر أو عدم نشر إعلان الحزب الدينى القومى المشار إليه آنفا. وأمر الرقيب الحاخامى الصحيفة بأن تنشر الإعلان، ولكن مع شطب كل صور النساء. واستشاط الحزب غضبا وقام بمقاضاة

الصحيفة بتهمة السب والتشهير وطالب بالتعويض أمام محاكم إسرائيلية علمانية متجاهلا تعليمات الحاخامات الحريديين بعدم استخدام المحاكم العلمانية لتسوية النزاعات بين اليهود.

إن التصالح اليهودى الدينى القومى مع الاتجاه المعاصر فيما يتعلق بالنساء هو أمر بالغ التعقيد من نواح عديدة، فالشريعة اليهودية تحرم على اليهود الذكور الاستماع إلى غناء المرأة سواء فى مجموعة أو على نحو منفرد بصرف النظر عما يغنى. وهذا منصوص عليها بشكل مباشر فى تعاليم الهالاخاه التى تقول إن صوت المرأة عورة.

وتم تفسير ذلك لاحقا من خلال تعاليم الحاخامات على أن كلمة «صوت» تعنى غناء وليس حديث المرأة، وهذا الأمر الذى نشأ فى التلمود، يوجد فى كل نصوص الشريعة اليهودية، فاليهودى الذى يستمع عمدا إلى غناء امرأة يرتكب إثما يعادل الزنى أو الفسوق. والغالبية العظمى من أعضاء الحزب الدينى القومى الملتزمين، يستمعون إلى غناء المرأة، وبذلك فهم يرتكبون «الزنى» بشكل روتينى. وبعض أعضاء الحزب الدينى القومى الأكثر تشددا، وخاصة ضمن مستوطنى الضفة الغربية، لم يفكروا مليا فى هذه المشكلة فقط ولكنهم أيضا حاولوا حل مشكلة التكيف من خلال استنباط حلول مبتكرة، ففى أوائل التسعينيات، قام بعض المستوطنين بإنشاء محطة إذاعية جديدة، وهى عروتس ٧، أو القناة ٧. ولكى تكون المحطة ناجحة وتجذب أكبر عدد من اليهود الإسرائيليين، أدرك المستوطنون أن أغانى المغنين الذائعى الصيت، وبعضهم من النساء، يجب أن يتم بثها، ومع ذلك رفض الرقيب الحاخامى السماح بخرق الشريعة حيث يستمع الذكور لغناء الإناث، وبذلك يرتكبون جريمة «الزنى». وبعد الكثير من المشاورات مع الرقيب، اقترح المستوطنون حلا حظى بالقبول ومازال يستخدم حتى اليوم، فيقوم الرجال بغناء الأغانى الشهيرة للمطربات وبعد ذلك يتم تحويل الأصوات إلكترونيا إلى الطبقات الصوتية النسائية، ويتم بثها عبر القناة ٧. وهناك جانب من الجمهور التقليدى

يشعر بالرضا عن هذا الحل النفعى، أما الحاخامات المثقفون بالحزب الدينى القومى فيصرون على أن استماع الرجال إلى غناء النساء لا غبار عليه.

وقام الحريديم برفض وإدانة هذا التكيف وحتى اليوم يرفضون الاستماع إلى القناة ٧. والأمر الأكثر أهمية، أن الحريديم بعد زيادة قوتهم السياسية إلى حد ما فى انتخابات ١٩٨٨، كانوا قادرين على فرض موقفهم فى هذا الشأن على الدولة ككل من خلال فرض التغيير على الجلسة الافتتاحية بالكنيست. وكانت مراسم الافتتاح فى السابق تبدأ بغناء نشيد إسرائيل القومى «الهاتيكفاه»، من خلال مجموعة من الرجال والنساء. وبعد انتخابات ١٩٨٨، ونزولا على رغبة الحريديم، قام مغن رجل بالغناء بدلا من المجموعة المشتركة وبعد انتخابات ١٩٩٢، التى فاز فيها حزب العمل، قامت مجموعة من المتشددين العسكريين بغناء النشيد.

كيف يمكن للحريديم، الذين يشكلون مجرد نسبة صغيرة من المجتمع اليهودى الإسرائيلى، سواء وحدهم أو بمساعدة الحزب الدينى القومى، أن يفرضوا مشيئتهم على بقية المجتمع؟ الإجابة البسيطة تتمثل فى أن كلا من حزبى العمل والليكود يتملقان الحريديم للحصول على مساندتهم السياسية، وهذا التفسير غير كاف، فهذا التملق قد استمر فيما بين ١٩٨٤، ١٩٩٠ أثناء الوقت الذى كان فيه العمل والليكود يشكلان ائتلافا، وكانت مداهنة الحريديم من أجل ضمان انحيازهم ليست لها ضرورة سياسية، علاوة على ذلك، فإن التفسير الحالى لا يأخذ فى الاعتبار، بدرجة كافية، النزعة الخاصة لكل الأحزاب الدينية، التى اعتبرت أصولية منذ عام ١٩٨٠، للانجذاب نحو الليكود وأحزاب يمينية علمانية أخرى، وهذه الصلة، خاصة بين الليكود والأحزاب الدينية المتشددة، والتى تقوم على نظرة مشتركة للعالم، هى لب السياسة الإسرائيلية (وهذه الصلة تناظر تلك الصلة الموجودة بين الأصوليين المسيحيين والمسلمين وأحزابهم اليمينية العلمانية).

والنموذج البسيط نسبيا للحزب الدينى القومى يعبر عن ذلك بشكل جيد، فالحزب الدينى القومى يعترف على الرغم من عدم اتباعه لذلك دائما، بنفس سلطات الهالاخاه كما تفعل الأحزاب الحريدية، والحزب الدينى القومى يعتنق دائما نفس الأفكار المتصلة بالماضى اليهودى، وعلى نحو أكثر أهمية، تلك المتصلة بالمستقبل حينما تنتصر إسرائيل على أعدائها من غير اليهود.

والفروق بين الحزب الدينى القومى والحريديم تنبع من إيمان الحزب بأن الخلاص قد بدأ وسرعان ما يكتمل من خلال المجئ الوشيك للمسيح. أما الحريديم فإنهم لا يشاركون الحزب هذا الاعتقاد، وَيؤمن الحزب الدينى القومى بأن هناك ظروفا خاصة عند بداية الخلاص تبرر التخلى مؤقتا عن المبدأ مما يساعد على التعجيل بعملية الخلاص، وتأييد الحزب فى بعض المناسبات للخدمة العسكرية لمعلمى التلمود هو مثال لذلك، وهذه الأفكار التحريفية للحزب قد تعرضت للتقويض منذ السبعينيات من خلال اتساع تأثير النفوذ الحريدى على أعداد متزايدة من مؤيدى الحزب الدينى القومى الذين عارضوا الخروج على تعاليم التلمود الصارمة وفضلوا المواقف الحريدية، وهذه العملية قد توازنت إلى حد ما مع تصاعد مكانة مستوطنى الحزب الدينى القومى الذين ينظر إليهم كرواد للفكر المسيانى «المتمثل فى الخلاص وظهور المسيح»، حتى على الرغم من أن اغتيال رابين، رئيس الوزراء الراحل، على يد مسيانى ربما يكون قد أدى إلى تزايد مكانة الحريديم على نحو مؤقت.

إن النفوذ الدينى المؤثر على الجناح اليمينى الإسرائيلى لإسرائيل (ب) يعزى إلى طبيعته العسكرية ونظرتهما المشتركة نحو العالم. فاليهود الإسرائيليون اليمينيون العلمانيون المشبعون بالروح الحربية يعتنقون وجهات نظر سياسية ويتحدثون بلغة مشابهة لتلك الخاصة باليهود المتدينين.

وبالنسبة لمعظم أتباع الليكود، فإن «الدم اليهودى» هو السبب فى أن اليهود يحتلون منزلة مختلفة عن غير اليهود، بمن فيهم بالطبع المواطنون الإسرائيليون غير اليهود، والذين يخدمون فى الجيش الإسرائيلى.

وبالنسبة لليهود المتدينين، فإن دم غير اليهود ليس له قيمة جوهرية، وبالنسبة لليكود، فإن له قيمة محدودة، واستخدام مناحم بيجن البارع لتلك اللغة التى تتحدث عن الأغيار جلبت له الأصوات والشعبية، وهذا هو مربط الفرس. فالفرق بين العمل والليكود يتمثل فى اللغة ولكنه فرق مهم لأنه يكشف عن جانب من نظرتهما إلى العالم. ففى عام ١٩٨٢، على سبيل المثال حينما قام الجيش الإسرائيلى باحتلال بيروت، لم يستطع رابين الذى يمثل حزب العمل، على الرغم من دفاعه عن نفس السياسات التى يحبذها شارون والليكود، أن يقدم أى تفسير لمذابح صبرا وشاتيلا من خلال القول، كما فعل بيجن: «إن الأغيار يقتلون الأغيار ويلقون باللوم على اليهود» وحتى إذا كان رابين نفسه قادرا على قول ذلك، فإنه كان يعلم أن معظم مؤيديه العلمانيين فى حزب العمل، الذين يميزون بين الأغيار الذين يكرهون اليهود وأولئك الذين لا يفعلون، لن يغفروا له تلك العبارة. فهم يرفضون تلك اللغة باعتبارها غير صحيحة وضارة.

ويتضح التأثير الدينى من خلال تعلق اليمن بأهداب الماضى اليهودى وإصراره على أن اليهود لديهم حق تاريخى فى توسيع أراضى إسرائيل إلى ما وراء الحدود الحالية. وعلى نحو أكثر من الإسرائيليين العلمانيين الآخرين، يصر أعضاء اليمين الإسرائيلى على التفرد اليهودى.

وخلال قرون عديدة من وجودهم، كانت الغالبية العظمى من اليهود تشبه على نحو ما حريديم اليوم. وعلى ذلك، فإن أولئك اليهود الذين ينفخون الروح فى الماضى اليهودى كدليل على التفرد اليهودى يحترمون إلى حد ما اليهود المتدينين باعتبارهم حملة شعلة ذلك الماضى. والجانب الأساسى لتأكيد اليمين على التفرد يتمثل فى بغضه لمفهوم (الاستواء)، بمعنى تساوى اليهود مع الشعوب الأخرى ورغبتهم فى الاستقرار، مثل الأمم الأخرى، وبعض الصلات الثقافية بين اليهود والعلمانيين والمتدينين باليمين الإسرائيلى ليست أيديولوجية فى

جوهرها. والكثير من مؤيدى الليكود، سواء كانوا من أصل سفاردى «شرقى» أو اشكنازى «غربى»، هم من التقليديين الذين ينظرون إلى الحاخامات على أنهم شخصيات تحيط بهم هالة من السحر والقداسة، والمتأثرون بذكريات الطفولة الخاصة بالعائلة الأبوية، حيث يتولى الجد مسئولية التعليم، أما النساء «فيعرفن حدودهن» وعلى الرغم من أن هذه الاعتبارات أكثر تجسدا فى الطليعة المتدينة، فإنها تؤثر أيضا على يهود اليمين العلمانيين. ويقوم اليمين غالبا بالمبالغة فى بهاء وتفوق الماضى اليهودى، وخاصة حينما يطالب بالحفاظ على التفرد اليهودى.

ويشترك أعضاء اليمين المتدينون والعلمانيون فى المخاوف كما يشتركون فى المعتقدات. ففى يوم ٦ أكتوبر ١٩٩٣، فى مقال نشر بصحيفة هاآرتس، أشهر الصحف العبرية الناطقة بالعبرية فى إسرائيل، يعبر دورون روزنبلام من خلال الاعتماد على مصادر متنوعة، عن ذلك بواسطة الاستشهاد بتصريحات زعماء الليكود التى تمت صياغتها لكى تبين للإسرائيليين مدى أخطار وتهديدات عملية السلام، وفى نفس الوقت الاستمرار فى التذكير بأن الليكود هو من بدأ العملية.

وقام روزنبلام بالاستشهاد بالعبارة الآتية لعضو الكنيست الإسرائيلى عوزى لانداو، الذى تم تعيينه بعد انتخابات ١٩٩٦ رئيسا للجنة الدفاع والشئون الخارجية بالكنيست:

«إذا تم اتباع سياسات رابين تجاه سوريا، فذات صباح سوف يستيقظ اليهود الإسرائيليون على صوت هدير الدبابات السورية وهى تتهادى من مرتفعات الجولان مثل قطعان الأغنام.. وعندئذ تهاجم مستوطنات الجليل بقوة نيران أقوى من تلك التى استخدمت فى حرب ١٩٧٣، وبما أن فكرة استئصال شأفة الإسرائيليين لاتزال فى بؤرة اهتمام السوريين. فإن لحظة أى انسحاب إسرائيلى من مرتفعات الجولان هى نفس لحظة اقتراب السكين السورى من رقبة كل مواطن فى الجليل.. فالسياسة السورية يحكمها قانون ثابت لا يخضع للتغيرات السريعة».

ومن الواضح أن وسائل الإعلام الغربية التى تكيل بمكيالين، والتى من المؤكد أنها كان يمكن أن تفتك بأى مسئول غير يهودى يصف السياسة الإسرائيلية بأنها يحكمها قانون ثابت وغير خاضعة للتغيرات السريعة، تجنبت التعليق على عبارة لانداو.

كما قام روزنبلام أيضا بالاستشهاد بعبارة عضو الكنيست الإسرائيلى بنى بيجن، وأحد كبار قادة حزب الليكود، حينما أعرب عن تخوفه من أن تقوم سوريا بهجوم مباشر على إسرائيل. وهذا التخوف يعبر عنه بشكل شائع بين أعضاء معظم الأحزاب السياسية الإسرائيلية.

ومع ذلك فإن ما يميز إسرائيل «ب» هو، كما أعلن بنى بيجن، الاعتقاد بأن أهداف الغزو هى نفس «أهداف سفاحى الكيشينيف فى قطع رقاب اليهود»(*). وأضاف بيجن أنه فى هذه المرة سوف يقوم علماء الذرة بالمساعدة فى تنفيذ المشروع السورى. ومقارنة المجتمع اليهودى غير المسلح، الذى كان يمثل أقلية صغيرة فى الامبراطورية الروسية، بإسرائيل وجيشها تمثل موقفا مشتركا يتعلق بالماضى اليهودى من خلال الأحزاب الإسرائيلية اليمينية العلمانية واليهود المتدينين. وهذا الموقف لا يضع فى اعتباره أى تطور تاريخى. فاليهود تحت أى ظرف من الظروف هم دائما ضحايا حاليون أو مستقبلون للأغيار.

واعتبر روزنبلام الذى ينتمى لإسرائيل «أ» كل هذه الأشياء متنافرة مع بعضها البعض، ومن خلال النظر إلى ما أسماه لانداو بقطيع الأغنام السورى، تساءل: «هل يقصد لانداو بذلك أننا ذئاب؟» ويقدم روزنبلام تحليله عن السبب فى عدم قدرة هذه الصورة على الإقناع:

«هناك الكثير من الشكوك العميقة الطويلة الأمد التى تقول أن أعضاء المعسكرات القومية «وهم اليمين العلمانى» يستخدمون لغة القوة من أجل إخفاء خوفهم الكامن من العالم بأسره، وهذا الخوف لم يتبدد ولو قليلا مع إنشاء دولة إسرائيل. ورغم كل أخطائه ينجح حزب العمل أيا

(*) هذه مذابح يقال أنها ارتكبت ضد اليهود فى فترات التوتر فى روسيا القيصرية

كانت الوسائل فى أن ينحى جانبا تلك المخاوف وأن يستبدلها بنظرة بناءة وبراجماتية نحو العالم. أما الليكود، الذى استأنف هوايته التاريخية فإنه لم يفعل ذلك.

وهؤلاء اليهود المغالون فى الوطنية الذين يتحدثون بثقة مطلقة عن قوة وقدرة إسرائيل لفرض مشيئتها على الشرق الأوسط هم الأكثر عرضة لتلك المخاوف.

ونفس هؤلاء الأشخاص الذين يتوقعون قدوم هولوكوست أخرى فور أن تقوم إسرائيل بتقديم أية تنازلات للعرب كانوا يرددون دائما أن الجيش الإسرائيلى إذا لم يقيد بواسطة السياسيين أو الأمريكيين أو اليهود اليساريين فإنه يستطيع أن يجتاح بغداد فى غضون أسبوع واحد. وقام «آريئيل شارون بالفعل بإعلان هذا التصريح قبل أسابيع قليلة من حرب أكتوبر ١٩٧٣»، إن الخوف والثقة بالنفس يتعايشان على نحو متناغم والإيمان بالتفرد اليهودى يعزز هذا التعايش ولا يدرك معظم المراقبين الأجانب أن قطاعا ضخما من الجمهور اليهودى الإسرائيلى يؤمن بهذه الآراء المسرفة فى الوطنية. إن خليط الشيزوفرينيا المكون من المخاوف الجامحة والثقة المفرطة بالنفس الموجود بوفرة لدى اليمين الإسرائيلى العلمانى واليهود المتدينين، يشبه الأفكار التى يعتنقها المعادون للسامية الذين ينظرون إلى اليهود نفس النظرة التى كانوا ينظرون بها إليهم عندما كانوا أقوياء ومن السهل هزيمتهم، وهذا أحد أسباب أن المواقف التى يقفها أفراد اليمين الإسرائيلى من الأغيار وخاصة العرب تشبه إلى حد بعيد مواقف المعادين للسامية من اليهود.

كما يتقاسم اليمين العلمانى واليهود المتدينون مخاوف أخرى. فهم يخافون الغرب كما يخافون الرأى العام الداخلى.

كما أنهم يخافون ويدينون اليساريين اليهود، وهذا المصطلح يتسع ليشمل معظم أتباع العمل، لتفضيلهم العرب على اليهود ولأنهم يعيشون فى الأوهام، كما أنهم ينظرون إلى اليسار باعتبارهم خطرين بسبب

قدرتهم على جذب أنصار جدد وخاصة من صفوف الصفوة المثقفة.

إن موضوع التساوى «أى تساوى اليهود مع غير اليهود» هو أبرز الموضوعات التى تفصل بين اليمين واليسار، فاليسار يتوق إلى التساوى ويرغب فى أن يكون اليهود أمة مثل بقية الأمم. أما اليمين الإسرائيلى على الجانب الآخر فإنهم متحدون فى استيائهم من فكرة التساوى وإيمانهم تبعا لاتجاهات الدين اليهودى بأن اليهود مختلفون عن الأمم والشعوب الأخرى. كما أن تبجيل الماضى اليهودى يعزز هذا التفرد. ويؤمن اليهود المتدينون بأن الله خلق اليهود متفردين، أما اليمين العلمانى فيؤمن بأن اليهود كتب عليهم هذا التفرد من خلال ماضيهم وليس لديهم أى خيار فى ذلك.

وهناك سبب آخر ولكنه أقل أهمية للصلة الموجودة بين اليمين العلمانى واليهود المتدينين وهو أن هؤلاء قادرون على تقديم حجج «مقنعة» لوجوب السيطرة اليهودية الأبدية على أرض إسرائيل وإنكار حقوق أساسية معينة للفلسطينيين. وهذه الحجج لا توضع فقط فى إطار الأمن القومى ولكن من خلال الحق الذى يمنحه الله لليهود لامتلاك هذه الأراضى.

كما أن الباحثين والسياسيين العلمانيين المنتمين لليكود غالبا ما يكونون أبعد ما يمكن عن الماضى اليهودى والقيم اليهودية لكى يتحدثوا أو حتى يفهموا تلك الأمور على نحو مناسب، فالمتدينون فقط هم من يستطيعون تقديم منطق راسخ لسياسات الليكود، التى تعتمد ليس فقط على الاعتبارات الاستراتيجية القصيرة الأمد ولكنها تعتمد على التاريخ الطويل للعلاقة الخاصة بين الله وشعبه المختار.

وعلى الرغم من تواجدها على نحو مكثف بين أعضاء إسرائيل «ب» فإن نفس هذه الآراء يمكن تبنيها بين أعضاء إسرائيل «أ». وهذه الحقيقة تقدم تفسيرا للتنازلات السياسية التى تقدم للأحزاب الدينية. «كثيرا ما يقوم المراقبون الأجانب بإرجاع هذه التنازلات فقط إلى حجم وتكتل الأحزاب الدينية». وهذه الآراء قد أثرت أيضا على التأريخ والتعليم اليهودى. ومنذ أواخر الخمسينيات وخاصة بعد حرب ١٩٦٧

والمؤرخون والباحثون والمعلمون اليهود الإسرائيليون على الرغم من أنهم عموما أكثر أمانة فى كتاباتهم من معظم زملائهم فى الشتات فقد قاموا غالبا بتجميل مجتمعات الماضى اليهودى وإلباسها ثوبا رومانسيا كما قاموا بتجنب النقد. وهذا النوع من الكتابات التبريرية كان يمثل اتجاها جديدا. فمنذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين والصهاينة الأوائل وآخرون ينتمون إلى الحركات اليهودية المعاصرة ينتقدون بشدة الكثير من جوانب تقاليدهم الثقافية الدينية ويحاولون تغيير أو حتى تدمير أجزاء من هذه التقاليد.

ومنذ أواخر الثمانينيات وبعض المؤرخين الأصغر عمرا، ربما بسبب الاستقطاب المتزايد للمجتمع اليهودى الإسرائيلى يقومون بكتابة ونشر بعض الأعمال النقدية التى خلخلت إلى حد ما الاتجاه الدفاعى السارى.

تحتاج المقارنة بين مخاوف ونظرة اليمين العلمانى إلى العالم وتلك الخاصة بالحريديم إلى المزيد من الإيضاح، فالمفاهيم الحريدية فى رؤية العالم يمكن فهمها فقط كآثار للأزمنة القديمة. وقام مناحم فريدمان وهو أحد المراقبين اليهود الغربيين بدراسة الحريديم فى كل من فلسطين تحت الانتداب ودولة إسرائيل حيث قام بوصفه أستاذا بجامعة بار إيلان الدينية بتقديم وصف ممتاز لمفاهيم الحريديم فى مقال بصحيفة «دافار» نشر فى ٤ نوفمبر ١٩٨٨ وقام فريدمان بكتابة هذا المقال من أجل شرح أسباب الفشل الانتخابى الذى نتج عن المحاولة غير الناجحة التى قام بها بعض المرشحين على قائمة المتدينين فى عام ١٩٨٨ للدفاع عن القيام ببعض الاعتدال فيما يتعلق بالتعامل مع الفلسطينيين. وقام فريدمان بالتوضيح على النحو التالى: «إن العالم الحريدى يدور حول اليهودية. وجوهر الفكر الحريدى يتمثل فى مقولة فصل اليهود عن الأغيار. وهذا هو السبب فى أن أى تحالف بين حمائم الحريديم وحمائم العمل مستحيل. فليس هناك فى الواقع شىء اسمه حمائم الحريديم. والناس الذين يتحدثون عن العالم الحريدى لا يعرفون عادة كيف يقرأون علاماته».

فهم لا يفهمون هذا العالم ولا شخصياته البارزة. والمسافة بين حمائم الحريديم وصقورهم ليست كبيرة، فكلاهما يرى العلاقة بين غير اليهود واليهود كما كانت قبل إنشاء إسرائيل. كما أنهم يفترضون أن غير اليهود واليهود على طرفي نقيض فغير اليهود يريدون قتل وتدمير اليهود، والفروق الصحيحة التى توجد بين اليهود يجب أن تكون فقط بشأن كيفية الرد على هذه الرغبة غير اليهودية الموجودة دائما. والآن هناك زوج من ردود الأفعال الحريدية المتبادلة على هذا الافتراض المزعوم. فيقول الحاخام شاخ «الأب الروحى لإحدى الجماعتين الحريديتين» أنه بما أن غير اليهود يكرهوننا فإننا نحتاج إلى التزام الهدوء والإحجام عن استفزازهم من خلال عدم تذكيرهم بوجودنا. أما الحاخام لوبوفتشر فيقول إننا يجب أن نكون أقوياء، وهاتان إجابتان تبادليتان، كلتاهما تنشأ عن مفهوم مشترك بأن هناك فجوة تفصل اليهود وغير اليهود. والحاخام شاخ ليس حمامة بنفس مفهوم شولاميت آلونى «الزعيمة السابقة لحزب ميرتس» فآلونى حمامة لأنها تؤمن بأن الإنسانية يجب أن تؤكد على المساواة بين كل البشر ومقدرة كل البشر والأمم على التواصل. ويؤمن الحاخام شاخ بأن التواصل مع غير اليهود غير ممكن وأنهم يمكنهم فقط أن ينسوا وجود اليهود. ويقول لوبوفتشر بأننا يجب أن نكون أقوياء من أجل الدفاع عن أنفسنا ضد غير اليهود الذين يريدون دائما أن يدمرونا. فالفرق بين الزعيمين يمكن أن يعبر عنه من خلال مواقفهما تجاه اتفاقية السلام مع مصر. فالاثنان يتفقان على أنه ليس هناك سلام ولن يكون أبدا، لأن المصريين يريدون القضاء علينا.

ومع ذلك يضيف الحاخام شاخ قائلا إننا يجب أن نحاول الحد من «الضحايا اليهود» لأقصى درجة ممكنة من خلال التزام الهدوء. أما رابى لوبوفتشر فيقول: لأن السلام لا يتوافر على أى حال فإننا يجب أن نرفض تقديم أى تنازلات فالحمامة الحريدية لا تؤمن بأى نوع من أنواع السلام وعلى ذلك فإن أى حديث عن ائتلاف محدود برئاسة العمل

«ويضم الحريديم لا أساس له».

أكدت التطورات السياسية اللاحقة فى إسرائيل بما فى ذلك انتخاب نتنياهو فى مايو ١٩٩٦ على صحة تحليل البروفيسور فريدمان ومن منظور حريدى آخر قام الحاخام عوفيديا يوسف الأب الروحى لحزب شاس بتعزيز هذا المقال، فقال الحاخام يوسف فى مقال بتاريخ ١٨ سبتمبر ١٩٨٩ فى جريدة «ياتيد هانعمان» بأنه بما أن إسرائيل ضعيفة جدا لدرجة أنها لا تستطيع تدمير كل الكنائس المسيحية فى الأرض المقدسة فإنها أيضا أضعف من أن تحتفظ بكل الأراضى التى قامت بفتحها. وباستخدام هذا المنطق يدافع الحاخام يوسف عن قيام إسرائيل بتقديم تنازلات متعلقة بالأرض من أجل تجنب حرب تضيع فيها أرواح اليهود. ولم يرد فى كلمات الحاخام يوسف أى ذكر للفلسطينيين ولا حتى أدنى حقوقهم، النظرة الحريدية للعالم تشبه نظرة اليمين الإسرائيلى العلمانى. ونظرة سياسيى الليكود للعالم التى يؤيدها أتباعه بحماس، هى تماما نظرة اليهود المتدينين، فقد شهدت بعض التحول العلمانى ولكنها احتفظت بقيمها الأساسية.

أدى التحالف بين الأحزاب الدينية والعلمانية لليمين إلى انتصار نتنياهو فى انتخابات ١٩٩٦ . وخرج هذا التحالف إلى النور على الرغم من الخلافين السياسيين العميقين بين الحزبين. الخلاف الأول يتصل بالديمقراطية وخاصة كما يظهر ذلك من خلال تركيب الأحزاب الإسرائيلية، أما الخلاف الثانى فيدور حول الصهيونية.

وكل الأحزاب السياسية الإسرائيلية فيما عدا الأحزاب الحريدية كانت ولاتزال منشأة على غرار الأحزاب الموجودة فى الدول الغربية وخاصة الولايات المتحدة. ومعظم الأحزاب الإسرائيلية على سبيل المثال تقوم بإجراء انتخابات أولية من أجل اختيار مرشحيها فى انتخابات الكنيست، ومع ذلك فإن نظام الحزب الحريدى يكون مختلفا عن ذلك وقائما بذاته وربما يكون مناظرا فقط لما يحدث فى إيران. فكل الأحزاب الحريدية لديها نظام ثنائى الأطر. الإطار الأقل أهمية

ويشتمل على السياسيين النشطين الذين حتى لو كانوا وزراء أو أعضاء فى الكنيست فإنهم يعترفون بتواضع على الملأ بأنهم مجرد خدم للمجالس الحاخامية للحزب التى يقومون باستشارتها قبل اتخاذ أى قرار. ولا يقبل أى من السياسيين الحريديم من حزب معين أى توجيه من المجالس الحاخامية لأى حزب حريدى آخر. ومداولات المجلس يتم الاحتفاظ بها سرا وقراراته غير قابلة للمراجعة باعتبارها وحيا من السماء. وعندما يموت أحد أعضاء المجلس فإن خليفته يتم تعيينه بواسطة بقية الأعضاء. وأعضاء المجلس لا ينتخبون بواسطة الحاخامات أو عامة الناس.

كما أن أعضاء المجالس الحاخامية للأحزاب الحريدية يلقبون بواسطة أتباعهم بالحكماء، ويتخذون كل القرارات وينظرون بعين الشك إلى التركيب العادى للحزب باعتباره شيئا معاصرا وبدعة والنظام الحزبى السياسى المعاصر بما فى ذلك العضوية والفروع والانتخابات الداخلية وعناصر أخرى موجودة فى الحزب الدينى القومى، غائبة تماما عن الأحزاب الحريدية. والتنافر بين الأحزاب الحريدية الذى يصل أحيانا إلى درجة البغضاء ينبثق من اعتبار «الحكماء» التابعين لكل منهم سلطات نهائية. وقد حافظ النظام الحزبى الحريدى على احتكار الذكور للحزب. وحتى اليوم لم تطأ قدم أية أنثى عتبة السياسة الحريدية. كما أدى التعنت الحريدى إلى الوقوف عقبة فى وجه المزيد من تشدد «أو حريدية» - إذا جاز التعبير- قطاعات من المجتمع الإسرائيلى. وكان هناك نظام مشابه للنظام الحريدى شائعا فى المجتمعات اليهودية من القرن الثانى للحقبة المشتركة وحتى ضياع النظام اليهودى الكوميونى بسبب الدول القومية المعاصرة. وكان هدف الممارسات الحريدية ولايزال يتمثل فى الحفاظ على أسلوب الحياة اليهودية كما كان قبل الأزمنة الحديثة. فالأحزاب الحريدية، فى محاولتها للحفاظ على النظام اليهودى القديم، كان عليها أن تقف فى وجه تيار المعاصرة الذى جرف الحزب الدينى القومى. ورد الفعل الحريدى مثل العديد من

ردود الأفعال الأخرى، يتخفى دائما فى الرغبة الرومانسية للعودة إلى الماضى الذى يقال دائما بأنه أجمل وأكثر أمانا لليهود من الحياة المعاصرة بشكوكها وريبها.

ويكافح المجتمع الحريدى المشرب بأفكاره الخاصة لكى يقمع كل شكوك أعضائه ولكى يؤمن بتحقيق السعادة.

إن الخلاف بين الحريديم ومعظم اليهود الإسرائيليين الآخرين حول الصهيونية هو خلاف معقد. فيتفق الحريديم والصهاينة حول القاعدة الصهيونية المهمة التى تقول بأن معاداة السامية تمثل اتجاها أبديا لدى غير اليهود بلا استثناء، وأنه يختلف عن ظاهرة الخوف من الأجانب أو بغض الأقليات. وهذا المنظور يشبه بالطبع ما يعتقده المعادون للسامية بالنسبة لليهود. فهذا التشابه يفسر غالبا الاتصال السياسى بين بعض الصهاينة، بدءا من هرتزل والمعادين «المعتدلين» للسامية الذين كانوا يرغبون فقط فى طرد التجمعات اليهودية من مجتمعاتهم أو الحد من أعدادها دون قتل اليهود». ووجهات النظر المتعلقة بمعاداة السامية والمخاوف التى تدور حولها والتى يشترك فيها اليمين العلمانى والحريديم تتفق مع هذه القاعدة المركزية للصهيونية على نحو أفضل من ذلك الخاص بوجهات النظر التى يعتنقها حزب العمل اليسارى وأحزاب ميرتس التى تتهم دائما من قبل الليكود بأنها غير صهيونية بما يكفى.

ومع ذلك فإن الأيديولوجية الحريدية تتصادم مع الصهيونية حين يتعلق الأمر بمبادئ معينة. وهناك مثالان رئيسيان لذلك يتمثلان فى الأهداف الصهيونية لتجميع كل اليهود، أو أكبر عدد منهم فى فلسطين وتكوين دولة يهودية. وهذه الأهداف أو العقائد تتناقض مع التفسيرات الحريدية للتلمود والتعاليم التلمودية.

وبسبب هذا التناقض المحسوس أعلن الحريديم ومازالوا معارضتهم القوية للصهيونية حيث يزعمون أن دولة إسرائيل إنما هى مجرد شتات آخر لليهود ويتجنبون استخدام الرموز الصهيونية. فكل حزب سياسى إسرائيلى يبدأ أو يختتم اجتماعاته بإنشاد النشيد القومى الإسرائيلى

«الهاتيكفاه» والذى هو فى نفس الوقت نشيد الحركة الصهيونية العالمية، أما الأحزاب والمنظمات الحريدية فإنها لا تفعل ذلك ولكنها تتلو الصلوات اليهودية. وتقوم وسائل الإعلام غالبا بإدانة الحريديم لعدم إنشاد «الهاتيكفاه» فى المناسبات الرسمية. وفى كل المؤتمرات الصهيونية الدولية التى عقدت فى إسرائيل يتم رفع العلم الإسرائيلى فقط. أما فى المؤتمرات الحريدية التى تعقد فى إسرائيل فإنه يتم رفع أعلام جميع الدول التى جاءت منها الوفود حسب الحروف الأبجدية.

والمعارضة الحريدية للصهيونية تقوم على التناقض بين اليهودية الكلاسيكية «أو التقليدية» التى يعتبر الحريديم امتدادا لها، والصهيونية. وقد قام العديد من المؤرخين الصهاينة لسوء الحظ بالتعتيم على هذه القضايا. ولذلك يكون من الضرورى القيام ببعض الشرح التفصيلى. ففى فقرة تلمودية شهيرة فى الجزء المسمى «كيتوبوت» ص ١١١ والتى تتردد فى أجزاء أخرى من التلمود، يقول الله أنه فرض على اليهود ثلاثة مواثيق. اثنان منهما يتعارضان بوضوح مع المعتقدات الصهيونية وهما : ١ - يجب على اليهود ألا يتمردوا على غير اليهود، ٢ - يجب ألا يقوم اليهود بالهجرة الجماعية إلى فلسطين قبل مجىء المسيح.

والميثاق الثالث والذى لن نناقشه هنا يفرض على اليهود عدم الصلاة بقوة طلبا لقدوم المسيح، حتى لا يأتى قبل موعده المحدد». وخلال التاريخ اللاحق على التلمود قام الحاخامات بالمناقشة الموسعة للمواثيق الثلاثة. وكان أحد الجوانب الجوهرية لهذه المناقشة هو السؤال القائل ما إذا كانت الهجرة الجزئية إلى فلسطين تعتبر جانبا من الهجرة الجماعية المحرمة أم لا. وأثناء الألف والخمسمائة عام الماضية قامت الغالبية العظمى من أهم حاخامات اليهودية التقليدية بتفسير المواثيق الثلاثة وواصلت اعتبار وجود اليهود فى المنفى التزاما دينيا للتكفير عن الآثام اليهودية التى جعلت الله يقوم بنفيهم.

وفى الأعوام الحديثة قام عدد من الباحثين اليهود الإسرائيليين، الذين

أنشأوا تأريخا يهوديا جديدا يتسم بمقدار أكبر من الصدق بإلقاء الضوء على جوهر التفسيرات الحاخامية للمواثيق الثلاثة. ففى كتابه البحثى القيم المسمى «المسيانية والصهيونية والتطرف الدينى اليهودى» «الذى نشر بالعبرية فى إسرائيل عام ١٩٩٣»، قدم أفيتزير رافيتسكى، على سبيل المثال تلخيصا جيدا للتفسيرات الحاخامية للمواثيق الثلاثة بدءا من القرن الخامس الميلادى «أو الحقبة المشتركة». وفى تحليله قام رافيتسكى بالإشارة إلى أنه فى القرن التاسع قام الحاخام صموئيل، ابن هوشانا وهو أحد زعماء يهود فلسطين المهمين بالاستشهاد بما يلى فى إحدى صلواته باعتبارها كلمات الله. «لقد أخذت العهد على شعبى بألا يثوروا على المسيحيين والمسلمين، وطلبت منهم أن يلتزموا الصمت حتى أنزل بهم عقابى كما فعلت فى سدوم».

وفى القرن الثالث عشر أثناء الفترة التى هاجر فيها بعض الحاخامات والشعراء إلى فلسطين لأسباب دينية كما يقول رافيتسكى قام حاخامات آخرون فى بقاع عديدة من العالم بالاستشهاد بنظرية المواثيق الثلاثة للتحذير من انتشار هذه الظاهرة الخطرة. وقام الحاخام إليعازر ابن موشيه الزعيم الروحى للتجمع اليهودى فى فوتسبرج بألمانيا فى القرن الثالث عشر بتحذير اليهود الذين يهاجرون بكثافة إلى فلسطين من أن الله سوف يعاقبهم بالموت. وفى نفس الوقت تقريبا قام الحاخام عيزرا بمدينة جيرونا بإسبانيا وهو أحد متصوفة القبالاه المشاهير بكتابة أن اليهودى الذى يهاجر إلى فلسطين إنما يهجر الله الذى يوجد فقط فى الشتات، حيث يعيش أغلب اليهود وليس فى فلسطين. كما أكد رافيتسكى فى كتابه على أن هناك آراء مماثلة وحتى أكثر تطرفا استمرت حتى القرن التاسع عشر وقد كتب الحاخام الألمانى الشهير يوناثان أيبشوتز فى منتصف القرن الثامن عشر أن الهجرة المكثفة إلى فلسطين حتى مع موافقة كل دول العالم هى أمر محظور قبل مجىء المسيح. وفى أوائل القرن التاسع عشر قام موسى مندلسون ومؤيدون آخرون للتنوير اليهودى وكذلك معارضوهم مثل الحاخام رفائيل

هيرش الأب الروحى للأرثوذكسية المعاصرة فى ألمانيا بالاتفاق على والاستمرار فى تحريم الهجرة بناء على المواثيق الثلاثة. وكتب هيرش فى عام ١٨٣٧ يقول: إن الله أمر اليهود «بألا يقوموا أبدا بإنشاء دولتهم بأنفسهم ومن خلال جهودهم».

وكان الحاخامات فى وسط أوروبا أكثر تطرفا. وفى عام ١٨٣٧ فى نفس العام الذى حظر فيه هيرش على اليهود إعلان دولة يهودية، حدث زلزال فى شمال فلسطين قتل الغالبية العظمى من سكان مدينة «صفد» والذين كان الكثير منهم من اليهود، وكانوا قد هاجروا حديثا إلى فلسطين. وقد أرجع الحاخام موشيه تيتلباوم وهو حاخام بولندى شهير هذا الزلزال إلى عدم رضاء الله عن الهجرة اليهودية الزائدة إلى فلسطين. وقال تيتلباوم: «ليست مشيئة الله أن نذهب إلى أرض إسرائيل عن طريق جهودنا ومشيئتنا». أما الحاخام موشيه نخمانيدس الذى توفى عام ١٢٧٠ فقد كان الزعيم اليهودى الوحيد الذى كان يؤمن بأن اليهود يجب عليهم ليس فقط الهجرة ولكن أيضا أن يقوموا بغزو أرض إسرائيل، وهناك حاخامات آخرون ذوو أهمية فى ذاك الوقت وفى أوقات أخرى لمدة قرون عديدة تجاهلوا أو اختلفوا بقوة مع رأى نخمانيدس.

وفى سبعينيات القرن العشرين بعد سبعة قرون من وفاته أصبح نخمانيدس القديس الراعى للحزب الدينى القومى ولمستوطنى جوش أمونيم. كما زعم أيضا حاخامات الحزب الدينى القومى أن المواثيق الثلاثة لا تنطبق على الأزمنة المسيانية، وأنه على الرغم من أن المسيح لم يأت بعد فإن هناك عملية كونية تسمى بداية الخلاص قد بدأت.

وأثناء هذه الفترة يجب تجاهل بعض التعاليم الدينية السابقة وهناك تعاليم أخرى يجب تغييرها. وعلى ذلك فإن النزاع بين الحزب الدينى القومى والحريديم قد تمحور حول قضية ما إذا كان يجب على اليهود أن يعيشوا فى الزمن العادى أم فى زمن بداية الخلاص. فبعد أن حصلوا على بعض المكاسب السياسية وأصبحوا أكثر ثقة بأنفسهم إبان

انتخابات ١٩٨٨ شدد الحريديم من معارضتهم المبدئية للصهيونية وللحزب الديني القومي. وفي عام ١٩٨٩ قام أهم حاخامين حريديين وهما الحاخام شاخ والحاخام يوسف بعقد مؤتمر ضد الصهيونية في بناي براك بإسرائيل، وتم نشر الخطب التي ألقياها والتي كانت مخصصة للتعبير عن معارضتهما المبدئية للصهيونية ومعتقد بداية الخلاص، في الجريدة الحريدية «ياتيد هانعمان» في ١٨ سبتمبر ١٩٨٩ . كما قام الحاخامان من منظور «الهالاخاه» أيضا بمعالجة الموضوع السياسي الإسرائيلي الحيوي المتعلق بما إذا كان يجب إعطاء بعض أراضي إسرائيل - على حد زعمهم - لغير اليهود أي الفلسطينيين. كما قاما أيضا بتفنيد وجهة نظر الحزب الديني القومي وجوش أمونيم التي تقول بأنه مع بداية الخلاص لا يجب إعطاء أرض إسرائيل لغير اليهود، وأعلن الحاخامان يوسف وشاخ أن اليهود لايزالون يعيشون في الأزمنة العادية حيث المساعدة المرئية من الله لإنقاذ حياة اليهود غير متوقعة دائما.

كما قام الحاخام يوسف الشهير بمعرفته الواسعة للهالاخاه، بتقديم تحليل متعمق وأشار على نحو صحيح إلى أن الحاخام شاخ يتفق معه تماما.

واستهل الحاخام يوسف حديثه بالاختلاف مع الحزب الديني القومي وحاخامات جوش أمونيم الذين يقولون بأن بداية الخلاص وأوامر الله بغزو أرض إسرائيل هي أكثر أهمية من إنقاذ حياة اليهود الذين قد يسقطون في غمار حرب التحرير. واعترف الحاخام يوسف بأنه في الأزمنة المسيانية سوف يكون اليهود أكثر قوة من غير اليهود ويكون لزاما عليهم فتح أرض إسرائيل وطرد غير اليهود وتدمير الكنائس المسيحية الوثنية، ومع ذلك أكد الحاخام يوسف أن زمن الخلاص المسيحي - أي مجئ المسيح طبقا للعقيدة اليهودية - لم يأت بعد.

وكتب يقول:

«إن اليهود ليسوا في الواقع أكثر قوة من غير اليهود كما أنهم غير

قادرين على طرد غير اليهود من أرض إسرائيل لأن اليهود يخشون غير اليهود، وعلى ذلك فإن أمر الله لم يحن بعد . . فحتى غير اليهود من الوثنيين يعيشون بيننا دون أن نستطيع طردهم أو حتى نقلهم. فالحكومة الإسرائيلية ملزمة تبعا للقانون الدولى بحماية الكنائس المسيحية فى أرض إسرائيل، حتى على الرغم من أن هذه الكنائس هى أماكن وثنية وتعبد فيها الأوثان، يحدث هذا على الرغم من أن ديننا يأمرنا بتحطيم الأوثان وخدمها حتى نجتث جذورها من كل بقاع الأرض وأى مكان نستطيع الوصول إليه . . ومن المؤكد أن ذلك يؤدى إلى إضعاف المغزى الدينى لفتوحات جيش إسرائيل «فى ١٩٦٧».

إن الفقرة التى استشهدنا بها آنفا تمثل على نحو معبر جانبا من السياسة الواقعية لإسرائيل. فقبل انتخابات ١٩٩٦ اعتبر كل من بيريز ونتنياهو الحاخام يوسف شخصية سياسية مهمة، وتوددا إليه على نحو غير خفى. وتم ذلك على الرغم من إعلان يوسف أن اليهود حينما يكونون أقوياء بما فيه الكفاية فإنهم ملزمون دينيا بطرد غير اليهود من البلد وتدمير كل الكنائس المسيحية وقد قام اليساريون وأنصار السلام فى إسرائيل بالثناء على يوسف وشاخ بموافقتهما على الانسحاب من الأراضى المحتلة ولكنهم أغفلوا ذكر المعتقد الجوهرى ليوسف وشاخ. كما أغفلت معظم وسائل الإعلام الغربية الإشارة إلى معظم النقاط الجوهرية فى خطاب يوسف، والحقيقة هنا هى أن رأى يوسف -شاخ يمثل أحد جوانب عقيدة الصقور فى السياسة الإسرائيلية.

كما اعترف الحاخام يوسف فى خطابه أيضا بتحريم الهالاخاه بيع العقارات لغير اليهود فى أرض إسرائيل، ولكنه قصر ذلك على الزمن الذى يكون فيه فعل ذلك لا يعرض حياة اليهود للخطر. وبنفس الطريقة تعامل مع موضوع ما إذا كان يجب على اليهود أن يضعوا ثقتهم فقط فى معونة الله أم يجب عليهم اتخاذ احتياطاتهم الخاصة ضد الخطر أو الحرب. وأفاد يوسف بأن هذا الموضوع مناظر للسؤال الخاص بما إذا كان يجب إعطاء الطعام لليهودى المريض فى يوم كيبور «عيد الغفران» لإنقاذ حياته أم لا.

ففى الحالة الأخيرة، كما يقول الحاخام يوسف يجب إعطاء الطعام لليهودى المريض حتى إذا اختلف الأطباء مع بعضهم البعض حول مدى خطورة الصيام على حياته. وتبعا لهذا المنطق أشار الحاخام يوسف إلى أنه حتى لو كان الخبراء العسكريون يختلفون مع بعضهم البعض حول ما إذا كان الانسحاب من بعض الأراضى يمكن أن يمنع الحرب فإن الحكومة يجب أن تأمر بالانسحاب وأشار الحاخام يوسف دون تأثر بذريعة الثقة فى الله إلى أن اليهود قد قتلوا فى حروب سابقة وأن معجزة مجىء المسيح وحكمه للعالم سوف تحدث دون إراقة دم يهودى واحد. كما أشار الحاخام يوسف أيضا إلى أن دولة إسرائيل مليئة باليهود الآثمين الذين يغضبون الله. كما استشهد بالعديد من أقوال الحاخامات الذين يتفقون معه فى أن المواثيق الثلاثة لاتزال سارية.

إن وجهة نظر الحاخام يوسف لم تثر اهتمام رابين ولا بيريز ولا نتنياهو. فعملية استعراض علمه الواسع التى استغرقت ثلاث صفحات كبيرة من القطع الصغير لم تقنع حاخاما واحدا من الحزب الدينى القومى. واستمر الحاخامان يوسف وشاخ، اللذان أصبحا بعد وقت قليل من ألد الأعداء فى معارضة الصهيونية ومذهب بداية الخلاص، كما واصلا الدفاع عن منظورهما الخاص للأصولية اليهودية وإصدار الأوامر لأعضاء الكنيست الأربعة عشر التابعين لهما فى عام ١٩٩٦ بالولاء لأفكارهما.

وقد قام الحاخام شاخ الأكثر تطرفا فى معارضته للصهيونية من الحاخام يوسف بمنع أعضاء الكنيست المنتمين لحزبه السياسى، ياهدوت هاتوراه من أن يصبحوا وزراء فى حكومة نتنياهو الصهيونية. ومع ذلك أمر شاخ أعضاء الكنيست المنتمين لحزبه بتأييد حكومة نتنياهو، وكافأ نتنياهو «ياهدوت هاتوراه» من خلال إعطائه زمام السيطرة على وزارة الإسكان فتولى نتنياهو وزارة الإسكان بنفسه وقام بالتوقيع على أى شىء يرسله له نائبه رافيتس المنتمى لحزب ياهدوت هاتوراه. وتم القيام بهذا الإجراء من أجل تجنب الانضمام الرسمى لحزب

ياهدوت هاتوراه إلى حكومة صهيونية، وفى نفس الوقت جنى ثمارها، وعلى النقيض من الحاخام شاخ أمر الحاخام يوسف أتباعه من أعضاء الكنيست بأن يصبحوا وزراء فى حكومة نتنياهو. وهذه الحقائق تعبر عن الأهمية السياسية لآراء الحاخامين يوسف وشاخ.

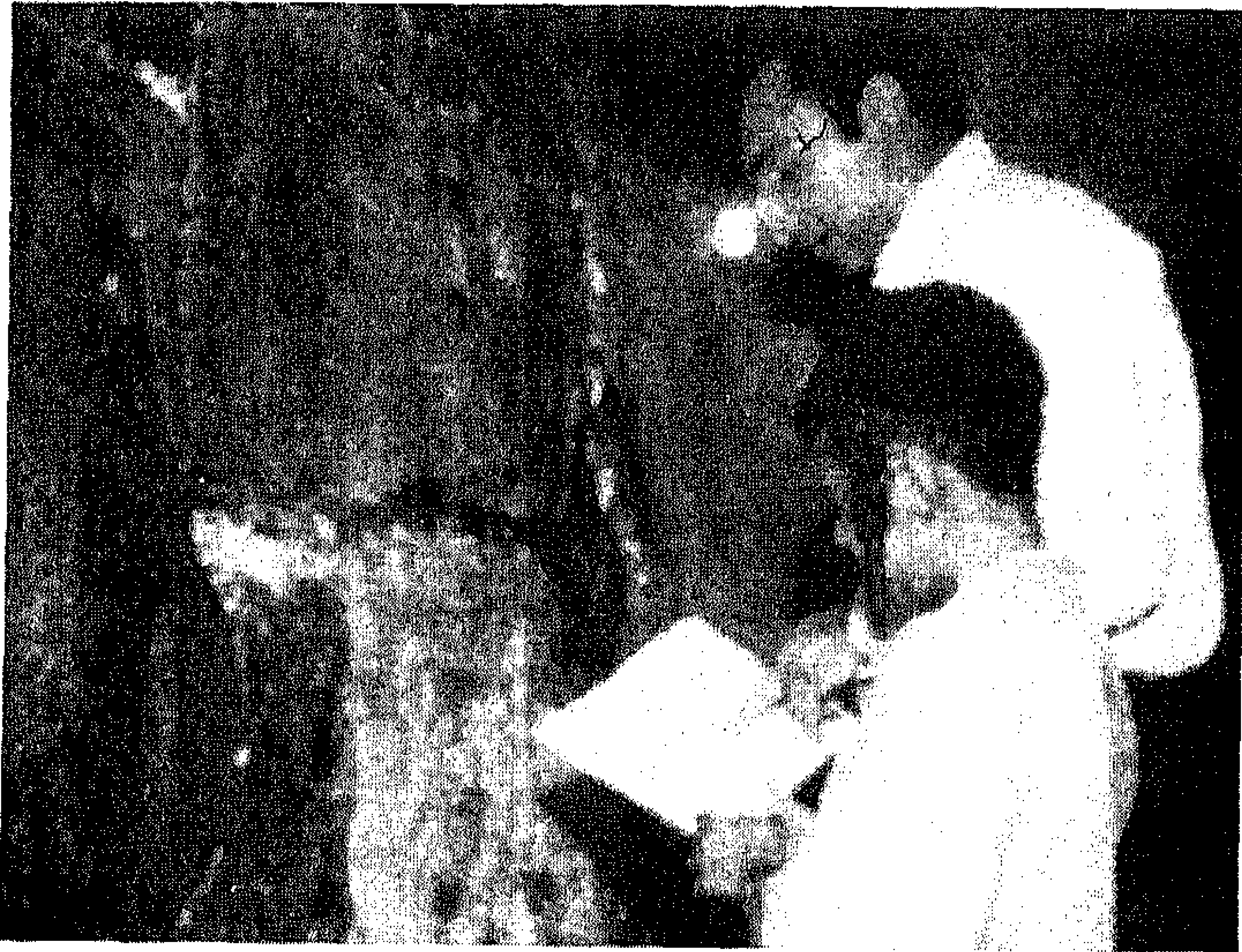
إن قيام الحاخام يوسف بالتعبير عن رأيه بوضوح فى موضوع الأراضى لا يعكس فقط وجهة النظر الحريدية، ولكنه أيضا يعبر عن جانب كبير من السياسة الخارجية الفعلية لدولة إسرائيل. كما أعلن الحاخام يوسف عن أن اليهود لديهم واجب دينى يتمثل فى طرد جميع المسيحيين من دولة إسرائيل فقط إذا كان ذلك لا يعرض حياة اليهود للخطر. كما افترض الحاخام يوسف أن أى تنازلات يهودية تقدم لغير اليهود فى دولة إسرائيل يجب أن تقوم فقط على اعتبار أن رفض القيام بذلك يمكن أن يعرض اليهود للخطر.

كما يفضل الحاخام يوسف بالتأكيد الاحتلال الدائم لكل أراضى فلسطين إذا اقتنع تماما بأن ذلك لن يدفع العرب لإيذاء اليهود. كما آمن الزعماء الحكوميون الإسرائيليون مع تأييد كامل من اليهود الإسرائيليين بعد حرب يونيو ١٩٦٧ بأن العرب غير قادرين على إيذاء إسرائيل ولذلك فإنهم يرفضون تقديم أية تنازلات فقط بعد المعاناة المريرة من الخسائر الجسيمة فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ والخوف من حرب أخرى وافقت حكومة دولة إسرائيل، مرة أخرى مع التأييد الكامل من اليهود الإسرائيليين على إعادة سيناء إلى مصر، وفى عام ١٩٨٣ حتى بعد مذابح صبرا وشاتيلا فكر القادة الإسرائيليون فى الاحتلال الدائم لثلث لبنان والهيمنة على الثلثين المتبقيين. وقام شارون بإبرام اتفاقية سلام تقوم على هذين الشرطين مع الحكومة اللبنانية التى لا حول لها ولا قوة. ودفعت حرب العصابات التى قام بشنها اللبنانيون فى ١٩٨٤ و١٩٨٥، وأدت إلى سقوط العديد من الضحايا الإسرائيليين، دفعت القادة الإسرائيليين إلى التخلى عن هذا المخطط والانسحاب. فالسياسة الخارجية الإسرائيلية، على الرغم من صياغتها وممارستها بواسطة

يهود علمانيين تبدو حتى اليوم مشتقة فى جانب منها من الماضى الدينى اليهودى. والواقع أن الحركة الصهيونية أيضا التى شهدت تحولا علمانيا جزئيا حافظت أيضا على الكثير من المبادئ الدينية اليهودية الأساسية. فالحاخام يوسف وبن جوريون وشارون وكل السياسيين الإسرائيليين الكبار يقفون على أرضية مشتركة فى الدفاع عن السياسة التى ينتهجونها.

2

صعود نجم الحريديم فى إسرائيل



على الرغم من اتساعها المستمر منذ أوائل السبعينيات، جذبت الأصولية الدينية اليهودية فى إسرائيل القليل من الاهتمام فى أوساط المجتمع الإسرائيلى حتى عام ١٩٨٨، فأعضاء الطوائف الحريدية المتنوعة المجتمعون فى مناطق معينة معزولة فى المدن الإسرائيلية، أفنوا حياتهم فى الاهتمام والانشغال بأشياء بدت لمن هم خارج هذه التجمعات، على أحسن الأحوال، غريبة. وعلى الرغم من اصطدام بعض أعضاء هذه الطوائف بسبب بعض القضايا التى تحتوى على جانب علمانى من جوانب المجتمع الإسرائيلى والتى اكتسبت فى ذلك الوقت بعض الاهتمام الشعبى، فإنها كانت فى الغالب يتم تجاهلها. وقد أدى النجاح السياسى الحريدى المدوى فى الانتخابات البرلمانية لعام ١٩٨٨، والذى لم يتوقعه أحد من خبراء استطلاع الرأى إلى إدهاش الكثير من الأشخاص. وبسبب نجاحاتهم السياسية المستمرة بعد الانتخابات وخلال التسعينيات، تبوأ الحريديم(*) مكانة مكنتهم من فرض أنفسهم على الغالبية العلمانية الإسرائيلية.

لم تؤد النجاحات السياسية الحريدية فقط إلى جعل الكثير من اليهود الإسرائيليين ينظرون للحريديم عن قرب وعلى نحو أكثر اهتماما، ولكنها أدت أيضا إلى لفت الانتباه إليهم بدرجة أكبر فى الخارج،

(*) فرقة دينية يهودية متطرفة وتعنى الكلمة بالعبرية «المتشددين»

وخاصة فى الولايات المتحدة، وأدى الاهتمام المتزايد بهم فى الولايات المتحدة إلى تشجيع كتابة ونشر الكثير من الكتب الجديدة والمقالات الصادرة بالإنجليزية، والتى ركزت على الجوانب الفولكلورية «الشعبية» للحريديم ولكنها ولسوء الحظ أغفلت أيديولوجيتهم الجوهرية ونظرتهم إلى العالم. وتحاول المناقشة التالية تحليل، وخاصة لأولئك القراء الذين لا يقرأون العبرية، الأهمية السياسية للمد الحريدى. وهناك جانب مهم فى هذا التحليل يتمثل فى قبول الفرض الجيد التوثيق الذى يقول أن فهم اليمين السياسى الإسرائيلى بأكمله يعتمد إلى حد ما على فهم العناصر الأساسية للسياسة الحريدية، بعيدا عن الخلافات والانشقاقات وجهود إعادة التوحد لكثير من الطوائف والأفراد الحريديين، والسؤالان الجوهريان المطلوب تحليلهما هما:

- كيف قامت الأحزاب الحريدية بالحصول على نفوذها السياسى؟
- ما هو البناء التنظيمى الذى استخدمه الحريديم من أجل تحقيق أقصى نجاح سياسى؟

إن الاهتمام بالتعليم يقدم الإجابة الجوهرية على كلا السؤالين. فقد قام الحريديم على نحو متوازن بتعليم أطفالنا وأطفال اليهود الآخرين، حيث أصبحوا أوصياء عليهم، مما ضمن لهم الاستمرارية القصوى، وقام الحريديم بالتأثير على الكثير من اليهود الإسرائيليين بالإضافة إلى أنصارهم من خلال الإمساك بزمام السلطة المباشرة على العديد من شبكات المدارس والتأثير غير المباشر فى عدد من المدارس الأخرى.

وخلال القرن العشرين، حاول الحريديم الاستمرار فى التعليم اليهودى كما كان فى الشتات قبل أن يحظى المجتمع اليهودى بقدر من التنوير، ومع ذلك فإن حكومات الدول التى عاش فيها الحريديم أصرت فى بعض الأوقات على أن بعض محتوى المناهج المعاصرة لا يتفق- كما أنه متعارض- مع ما سبق تعلمه فى المدارس اليهودية. وكان هذا هو الحال فى إسرائيل حتى عام ١٩٨٠. ومنذ عام ١٩٨٠ ومن خلال

المساعدات السخية الحكومية الإسرائيلية حاول الحريديم، وأدركهم بعض النجاح، إعادة تطبيق النمط القديم من التعليم اليهودى ونظام شبكات المدارس السابق فى الكثير من المدن الإسرائيلية الفقيرة وفى الأحياء ذات مستوى المعيشة المتدنى بالمدن الإسرائيلية الكبرى. لقد كان الهدف الحريدى دائما هو مواصلة نفوذهم التعليمى إلى الأبد على قطاع متزايد من الجيل الإسرائيلى الأصغر.

ومن الناحية التاريخية، بدأ التعليم اليهودى بالأطفال الذكور من سن ثلاث وأربع سنوات فى المدرسة المسماة «بالغرفة». (والغرفة هو اسم المدرسة الابتدائية اليهودية التقليدية كما كانت توجد منذ الأزمنة التلمودية فى العصور المبكرة للحقبة المشتركة وحتى إنشاء أول دول قومية معاصرة فى الوقت الذى كان يكافح فيه الكثير من اليهود لتعديل أو إلغاء مدرسة «الغرفة»). وكانت مدرسة الغرفة فى السابق للذكور فقط. وتبعا للتلمود والهالاخاه، فإن الإناث لا يحتجن إلى التعليم كما أنهن ممنوعات من بعض أنواع الدراسة. وحتى الأزمنة المعاصرة، كانت معظم النساء اليهوديات لا يحصلن على أى تعليم رسمى وكن غير متعلمات.

وهذا يتناقض تناقضا صارخا مع اليهود الذكور، وبسبب التصادم مع حكومات الدول القومية المعاصرة وبسبب اعتراض الكثير من اليهود على استبعاد الإناث من التعليم الرسمى، قام الحريديم بإقامة مؤسسات خاصة لتدريب، أو بمعنى أدق تلقين الفتيات الحريديات الصغيرات لكى تقبلن وتوافقن على التعليم المتدنى. وكان تعليم «الغرفة» يتكون فقط من دراسات يهودية مقدسة. أما المواد العلمانية مثل الحساب واللغات الأجنبية والعلوم والأدب وقواعد اللغة العبرية فلم يكن لها مكان، ومعظم محتويات الكتاب المقدس كانت موجودة ضمن مواد لم يتم تدريسها. وبعد دراسة أسفار موسى الخمسة بمساعدة الشارح «الحاخام شلومو إسحاقى الذى توفى عام ١٠٩٩» يمضى الطلاب قدما فى دراسة الأجزاء الأسهل من التلمود. وبعد دراسة مدتها

ثمانى سنوات فإن الطلاب ذوى القدرات الأقل يتم إرسالهم إلى أماكن متنوعة من أجل تعلم حرفة ما أو مهنة أو أى عمل آخر، أما الطلاب الأكثر قدرة فيتم قبولهم فى مؤسسة تعليم عال تسمى «الياشيفاه». (والياشيفاه بالعبرية تعنى الجلسة أو الاجتماع). وعادة توجد عدة مستويات من الياشيفوت. وتستمر عملية غربلة الطلاب عند كل مرحلة. وأولئك الطلاب الذين يرى أنهم أقل قدرة يتم توجيههم لجمع المال وفى وقت لاحق يدخلون الخدمة الدينية كحاخامات صغار أو كمشرفين على قوانين «الكيشوروت» (أى إعداد الطعام حسب الشريعة اليهودية). فى المطاعم والمستشفيات والجيش والمؤسسات الأخرى.

والطلاب الأكثر قدرة يستمرون فى التعليم متنقلين من ياشيفاه إلى أخرى. وبعد التخرج من الياشيفاه الأعلى والزواج، يقضى أفضل الطلاب حياتهم فى مؤسسة تسمى «كوليل». (وهو مصطلح مشتق من الكلمة التى معناها «الكامل»). حيث يدرسون التلمود فقط. وبعض الطلاب الأكثر قدرة يتم تعيينهم بعد ذلك فى مراكز حاخامية عليا أو يصبحون نظارا للياشيفوت أو الكوليل.

وكما ذكرنا من قبل، فإن التعليم اليهودى التقليدى الذى وصف فى الأسطر السابقة لا يحتوى على أية دراسات علمانية أو إنسانية. وتجدر الإشارة إلى أن هذا الاستبعاد للمواد العلمانية لا يشتمل فقط على الرياضيات وكل العلوم واللغات الأجنبية ولكنه يشتمل أيضا على الآداب العبرية التى تشتمل على الشعر الذى يتناول الموضوعات الدينية وقواعد اللغة والتاريخ اليهودى. وعلى ذلك ليس هناك ما يدعو إلى الدهشة عندما نعلم أن الشعر الدينى العبرى، وحتى الأعمال الرائعة للعصور الوسطى، مجهولة بالنسبة للحريديم. أما الدراسات المقدسة فقط، (وهذا مصطلح كان يستخدم فى اليهودية قبل العصر الحديث)، فكانت تدرس بأكبر كثافة ممكنة، وتتكون الدراسات المقدسة فى معظمها من التلمود وبعض الكتابات التلمودية اللاحقة. وعلى أعلى مستوى من «الياشيفاه» يتم تخصيص ساعة من ١٢ إلى ١٤ ساعة فى

اليوم من الدراسات المقدسة لدراسة الأخلاق والتى تتكون فى الأساس من وصف رهيب للعقاب الذى ينزله الله سواء فى الحياة الدنيا أو فى الجحيم بمن ينحرف قيد أنملة عن تعاليم الدين.

أما تعاليم رسل الكتاب المقدس، وكتب الأعمال والمواد الإكليركية والعديد من أجزاء الكتاب المقدس فإنها لا تدرس سواء فى مدارس الغرفة أو فى الياشيفاه، وبذلك تكون مجهولة للحريديم. وباستثناء أسفار موسى الخمسة، فإن الحريديم يعرفون فقط تلك الأجزاء من الكتاب المقدس المستشهد بها فى التلمود وداخل سياق التفسير التلمودى فقط. ويفتقد الحريديم بشكل عام المعرفة بأجزاء كبرى من الكتاب المقدس، وهذا الافتقار إلى المعرفة يمثل أحد مصادر الخلاف بين الحريديم وبعض اليهود المتدينين الآخرين وكذلك معظم اليهود الإسرائيليين العلمانيين. وطلاب الياشيفاه يحرمون عادة من النوم. وبعد الوصول إلى سن السادسة عشرة يخصص طلاب الياشيفاه من ١٢ إلى ١٤ ساعة على الأقل للدراسة. وتكون حجرات الدراسة مليئة بالضجيج لأن الطلاب يصرخون بما يدرسون. فالدراسة فى صمت تعتبر إثما. وتكون نتيجة ذلك حدوث تشوش واضطراب، فغالبا يقوم مختلف الطلاب بالصراخ بقطع مختلفة من النصوص، وقد يطرح الطلاب أسئلة عن الأمور الداخلية لما يدرس ولكنهم لا يسألون أبدا عن الافتراضات التى بناء عليها قامت التفسيرات أو عن العالم الخارجى. فالطلاب يكونون فى الغالب معزولين عن العالم الخارجى، وخاصة العالم العلمانى، ويحظر على الطلاب القيام بأى اتصال مع غير المؤمنين. وسلطة المعلم تكون شاملة ومطلقة تقريبا. ويقوم المدرس الأول أو ناظر الياشيفاه عادة باختيار زوجات الطلاب.

ونوعية التعليم الموصوفة هنا قد شكلت الشخصية الإنسانية. كما أنها أنتجت أيضا منشقين. وقد ثار المنشقون اليهود الأول عن اليهودية فى العصور الحديثة على نوعية التعليم وأصبحوا خصوما للدين الذى حاول حسب رأيهم إخضاعهم لسيطرته على نحو مستبد. وهناك أفراد آخرون،

تعلموا حسب التقاليد الحريدية، استسلموا لإغواءات المعاصرة. مثل مشاهدة التليفزيون والذهاب إلى دور العرض السينمائى، وأدى ذلك عادة إلى إضعاف الالتزام باليهودية الحريدية، ولكنه نادرا ما أدى إلى التخلى الكامل عنها. وفى إسرائيل يسمى الشخص الذى يفعل ذلك «تقليدى» أو «مصراتى». وأولئك الأشخاص يظلون عادة - ولا يزالون - غير ناقدين لما درسوه، كما أنهم يواصلون الصلاة خلف الحاخامات المشاهير دون أن يدفعوا ثمن رفضهم تحريم المتع الدنيوية المحرمة، وهناك أشخاص آخرون يضلون ولكنهم لا يشردون شرودا كاملا حيث إنهم بعد فترة انقطاع مؤقتة يعودون إلى الدراسات المقدسة من أجل مواصلة التلقين.

ويؤكد الحريديم على قداسة وأهمية الدراسات المقدسة حيث إنهم يؤمنون بأن الفضيلة النابعة من أولئك المنخرطين فى الدراسات المقدسة هى المسئولة عن كل خير يجنيه اليهود. ولهذا السبب فإن أولئك المنخرطين فى الدراسات المقدسة غير مطلوب منهم التضحية بأرواحهم ويمنحون العديد من المزايا ويعفون من واجبات المجتمع. ومن خلال المعيشة فى مجتمعات مستقلة، حيث يسود قانون محلى، يمكن لليهود - كما قاموا بالفعل - أن يقرروا إعفاء الأفراد المنخرطين فى دراسات مقدسة من دفع الضرائب ومن معظم الالتزامات والتبعات التى يكون مسئولا عنها أفراد المجتمع؛ بالإضافة إلى ذلك، فإن أتباع الحكماء الذين يصلون هم أيضا إلى درجة عالية من التخصص فى الدراسات المقدسة، تم منحهم مزايا خاصة فى كثير من مجالات الحياة التى يسيطر عليها المجتمع اليهودى. وأثناء الأزمنة التلمودية «٢٠٠ - ٥٠٠ بعد الميلاد»، تم منح أتباع الحكماء فى العراق - على سبيل المثال - الذين كانوا من التجار، ميزة بيع بضائعهم قبل أن يسمح لليهود العاديين بفعل ذلك فى أسواق المدن اليهودية. وكان هذا يعنى عدم وجود أية منافسة تواجه أتباع الحكماء هؤلاء.

وأحد الموضوعات المثيرة فى التاريخ اليهودى، وفى السياسة

الإسرائيلية، يتمثل فى كيف يمكن للحاخامات ودارسى الدراسات الحاخامية كسب عيشهم، ففى إسرائيل نجد أن هناك مسئولية متزايدة من الدعم ملقاة على عاتق دافعى الضرائب، والذين يكونون غير متدينين فى معظمهم. وأدى ذلك ولايزال يؤدى إلى إثارة السخط، وخاصة حينما تصاحب ذلك حقيقة أن الغالبية العظمى من دارسى الدراسات الحاخامية لا يجبرون على الخدمة بالجيش، ويحاول معظم اليهود الإسرائيليين المتدينين وخاصة الحريديم، تبرير دعم الدولة وميزة التحرر من الخدمة العسكرية من خلال القول بأن اليهود ودولة إسرائيل اليهودية إنما توجد بسبب فضيلة دعمهم للدراسة التلمودية، فهذا الدعم هو الذى جعل الله يقف بجانبهم وجعل إسرائيل تنتصر فى حروبها.

وهذا الزعم، الشبيه بمزاعم رجال الدين فى الديانات الأخرى والذى يتم التأكيد عليه على نحو مستمر فى وسائل الإعلام الإسرائيلية، يقول بأن معونة الله هى التى تربح الحروب وليس الجنود. وهذا الزعم يقول بأن الله يمنح أيضا مزايا أخرى. فهو على سبيل المثال، يقدم الطقس الجيد لأن الحاخامات وطلاب الدراسات المقدسة ينفقون معظم وقتهم فى دراسة التلمود، والانخراط فى هذه الدراسة هو أفضل وسيلة - أفضل حتى من رفع الصلوات أو الإحسان أو القيام بأعمال الخير الأخرى - لدخول الجنة. فهؤلاء المنخرطون فى دراسة التلمود يجعلون من الممكن لأنفسهم ولعائلاتهم ومدعميهم بالمال، وإلى حد ما، لليهود الآخرين أن يدخلوا الجنة.

إن الدعم المالى المباشر للحاخامات ولدارسى التلمود يمثل، مع ذلك، بدعة جديدة فى اليهودية. وأثناء الحقبة الزمنية المطلوبة لبناء التلمود تقريبا من عام ٥٠ قبل الميلاد وحتى ٥٠٠ بعد الميلاد ولمدة قرون بعد ذلك لم يحصل الحاخامات والدارسون على أى رواتب أو أى شكل من أشكال الدعم المالى لدراسة التلمود. أما مدرسو الابتدائى الذين كانوا يدرسون الكتاب المقدس للأطفال الصغار فقد كان يدفع

لهم. والواقع أن التلمود نفسه يحرم تقاضى أى أموال مقابل الدراسات التلمودية. وكان بعض حكماء التلمود من أفراد الطبقة العاملة الماهرين فى حرفهم والذين كانوا يكسبون عيشهم من خلال عرق جبينهم. وكان التعويض المالى الوحيد المسموح به لدارس التلمود(*) هو تعويض عن عدم العمل. ويمكن ضرب مثال لذلك من خلال قصة تلمودية تحكى عن أحد أهم حكماء التلمود، وهو أباى، الذى كان يعيش فى بابل فى القرن الرابع بعد الميلاد. وكان أباى فلاحا ويزرع مزرعته بنفسه. وكان إذا سأله أحد سؤالا أثناء العمل يقول للسائل: «اشتغل فى قناة الرى هذه بينما أفكر فى سؤالك». وكان آخر الحاخامات البارزين الذين يدعمون هذا السلوك هو ميمونيدس، الذى توفى عام ١٢٠٤ ورأى ميمونيدس فى تعاليمه الخاصة بشرائع التوراة «الفصل الثالث» الآية ١٠ يستشهد به غالبا الإسرائيليون اليهود العلمانيون:

(إن أى شخص بافتراض أنه سوف ينخرط فى دراسة التوراة «الدراسة التلمودية» لا يقوم بأى عمل، وبذلك فإنه يكسب عيشه من الإحسان، يجب أن يعتبر شخصا يقوم بإطفاء نور الدين، ويلحق الخزى بالتوراة، ويرتكب إثما يحيط بنفسه ويفقد فرصته فى دخول الجنة، لأنه محظور أن تستفيد من أقوال التوراة فى هذا العالم. يقول الحكماء: «إن كل من يفيد من أقوال التوراة يخسر حياته». كما قالوا أيضا وأمروا بأن: «لا تجعلها - أى التوراة - تاجا تتباهى به فوق رأسك أو فأسا تعمل بها».

كما قالوا أيضا وأمروا بأن «تحب العمل وأن تكره التسلط». إن أى توراة غير مصحوبة بالعمل تكون باطلة، وتكون غاية هذا الشخص هى أن يسرق الناس).

(*) من أهم الكتب الدينية لدى اليهود وتأتى أهميته أحيانا قبل التوراة نفسها لدى بعض الفرق اليهودية رغم أنه مجرد شروح لها مع بعض الإضافات.

إن الكثير من اليهود الإسرائيليين العلمانيين يستخدمون هذه العبارة الخاصة بميمونيدس من أجل تعزيز رأيهم القائل بأن كل الحاخامات وخاصة حاخامات إسرائيل، لصوص.

فلماذا أغفل كل اليهود المتدينين تقريبا ولمدة قرون آراء ميمونيدس التى تعتمد على نحو راسخ على الكثير من فقرات التلمود؟ والإجابة هى أن اليهود المتدينين يقرأون أى نص مقدس، بما فى ذلك التلمود وكتابات ميمونيدس، فقط بمساعدة الشروحات المقدسة التى تصبح آراء دينية مقبولة. وفيما يختص بالفقرة المشار إليها لميمونيدس فإن التعليق اللاحق الأكثر أهمية هو ذلك الخاص بـ«كسيف مشناه» (إضافة الفضة)، والمكتوب بواسطة الحاخام جوزيف كارو، الذى توفى عام ١٥٧٥ . وقد عارض كارو مؤلف «شولان آروخ» الذى يعتبر حتى اليوم أكثر أجزاء الهالاخاه منزلة دينية، رأى ميمونيدس فى هذا الشأن. وكل الحاخامات اللاحقين تقريبا قبلوا موقف كارو المعارض. وفى بداية كتابه «كسيف مشناه»، يقول كارو: إن ميمونيدس فى تعليقه على مشناه كتب مطولا ضد رواتب الحاخامات وقدم قائمة ضخمة بالحاخامات التلموديين الذين كانوا يتكسبون من كد أيديهم ولا يتقاضون أى رواتب مقابل الدراسات التلمودية. كتب كارو يقول: «لقد قدم لنا، طيب الله ذكراه «ميمونيدس»، مثالا لـ«هليل»، الذى كان يعمل حطابا وفى نفس الوقت يدرس التلمود ولا يوجد دليل يثبت ذلك. فنحن يجب أن نفترض أن «هليل» كان منخرطا فى العمل فقط فى بداية دراساته. وفى الوقت الذى كان يعيش فيه كان هناك الآلاف من دارسى التلمود، وربما تم إعطاء الدعم المالى لأشهرهم فقط . . . .

ولكن كيف يمكننا أن نفترض أنه عندما أصبح هليل شهيرا ويقوم بتعليم الناس فإنهم لم يمنحوه دعما ماليا؟».

إن اليهود المتدينين فى إسرائيل يستخدمون هذا الشكل من أشكال المنطق الذى يقوم دون سند أو دليل كاف بإرجاع عادات الحاخامات

الحاليين إلى الماضى المبجل. وقام اليهود الإسرائيليون العلمانيون بالسخرية من هذا المنطق غالبا من خلال مزحة معروفة تقريبا لكل يهودى إسرائيلى. هذه النكتة تعتمد على الواقع القائل بأنه على الرغم من أنه لا توجد أية إشارة فى الشريعة اليهودية تشير إلى وجوب ارتداء اليهودى غطاء للرأس، فليس هناك أى طقس مرئى آخر يلتزم به اليهود المتدينون بكل هذا الإخلاص مثل هذا الطقس. والواقع أن التعبير الشعبى الذى يعبر عن تحول اليهودى المتدين إلى يهودى علمانى هو «أنه خلع غطاء الرأس». وتقول النكتة أن أحد الحاخامات طلب منه أن يقدم دليلا يدل على أن اليهود يجب أن يضعوا غطاء الرأس، فأجاب الحاخام قائلا: «يقول الكتاب المقدس: وذهب أبراهام «أى إلى مكان معين». فهل يمكنك أن تتخيل أنه ذهب بدون غطاء الرأس؟». وسخرية النكتة من النمط المعتاد للمنطق الحاخامى واضحة.

وزعم كارو أن كل الحاخامات المشاهير، الذين وصفوا فى التلمود بأنهم عمال أو حرفيون، لابد أنهم كانوا يحصلون على معونة مالية.

واختتم كارو كلامه بالقول بأن كهنة الهيكل كانوا يحصلون على مقابل مالى لعملهم، وأن الحاخامات المساوين لهم فى المنزلة من المؤكد أنهم أيضا يدفع لهم. ويؤمن كارو بأن دارسى التلمود يجب أن يدفع لهم أيضا لأنه بدون طلاب لن يكون هناك حاخامات وأضاف: «إن أولئك الذين يسيطرون على النفقات المعتادة «فى التجمعات اليهودية» يجب أن يجبروا على الدفع للحاخامات». كما أن «التقليد الحالى يقضى بأن يحصل كل الحاخامات اليهود على رواتبهم من الجمهور اليهودى». وكان هذا هو التقليد المتبع فى القرن السادس عشر باستثناء بعض المجتمعات النائية مثل اليمن. وكانت مرتبات الحاخامات فى ازدياد مستمر مع زيادة المناسبات التى يأخذون فيها مقابلا ماديا من الجمهور المفتون بهم، إن الدلائل التى تدل على فساد الحاخامات فى المجتمعات اليهودية منذ الجزء الأخير من القرن السابع عشر موجودة بوفرة. إن تحالف الحاخامات مع أثرياء اليهود من أجل

قهر الفقراء، وخاصة فى المجتمعات الإشكنازية، واستخدام الرشوة والنفوذ فى تعيين الحاخامات هما مجرد مثالين من الأمثلة العديدة لهذا الفساد. وهناك الكثير من الممارسات الفاسدة للعديد من الحاخامات الإسرائيليين، من الحريديم والحزب الدينى القومى، المسجلة بالوثائق فى الصحافة الإسرائيلية العبرية والمعروفة على نطاق واسع فى إسرائيل وهذا الفساد هو مجرد امتداد لاتجاه طويل الأمد.

إن منح مزايا خاصة معينة لمن يقومون بالدراسات المقدسة يمثل ظاهرة موجودة فى المجتمع الإسرائيلى المعاصر. إن إحدى أكثر القضايا إثارة للجدل فى دولة إسرائيل كانت وستظل تأجيل الخدمة العسكرية لمعظم طلاب وخريجى المدارس الدينية «الياشيفوت».

ويحصل هؤلاء الطلاب والخريجون فى بادئ الأمر على تأجيل ابتدائى من نظار الياشيفوت. وعندما تنتهى مدة صلاحية هذه التأجيلات فإن هؤلاء الطلاب أو الخريجين إما أن يتم إعفاؤهم تماما من الخدمة العسكرية أو يتم تحويلهم إلى الاحتياط بعد تدريب مختصر وسريع. كما أنهم يتم إعفاؤهم من الخدمة فى حالة وجود ظروف خطرة أو غير مطمئنة. وعلى ذلك فإن احتمال إصابتهم أو قتلهم فى أوقات الحرب يكون ضئيلا جدا. كما أن تأجيلاتهم تعنى أن هؤلاء الطلاب أو الخريجين غير مضطرين للخدمة فى الجيش لمدة ثلاث سنوات، وهذا إجبارى لكل اليهود الإسرائيليين الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ و ٢١ عاما وفى تحليله للموقف كتب إيهود آشيرى فى مقاله بتاريخ ٢٢ أغسطس عام ١٩٩٦ بجريدة هاآرتس بأن ٥٪ من اليهود الذكور تم تأجيل خدمتهم العسكرية.

أدت الانفعالات المتقدة المتفجرة بواسطة هذا الموضوع والمناقشات الدائرة حوله إلى تعميق الخلافات بين اليهود الإسرائيليين والحريديم. وفى الوقت الحالى نجد أن الكثير من اليهود العلمانيين يشكون كما فعلوا هم وآخرون فى الماضى، من أن الحريديم لا يتقاسمون مع اليهود

الإسرائيليين الآخرين المهام والتبعات المفروضة على المجتمع.

ويقول الحريديم كما كانوا يقولون دائما فى الماضى، أن هذا المنطق هو منطق أعرج. ومن خلال تأثرهم بنوعية التعليم الذى حصلوا عليه فإن الحريديم مقتنعون بأن كل الانتصارات وكذلك الهزائم التى نالها الجيش الإسرائيلى ترجع إلى مشيئة الله وأن الله دون شك يضع فى اعتباره أعداد وتقدم والتزام اليهود المنكبين على دراسة التلمود. ويستشهد الحريديم بالعديد من الفقرات فى التلمود وفى الكتابات التلمودية اللاحقة التى تؤكد على هذه النقطة ولا يقوم فقط الطلاب وخريجو المدارس الدينية المتمتعون بالامتيازات بتأييد الحريديم والاستشهاد بالكتابات اليهودية المقدسة فى هذه النقطة، ولن يفعل ذلك أبدا اليهود الإسرائيليون التقليديون.

إن موقف الكثير من اليهود الإسرائيليين العلمانيين من الدراسات المقدسة والتلمود مناقض تماما لموقف الحريديم. والقصص العلمانية التى تسخر من التلمود كانت دائما مفضلة من قبل الجماهير ولاتزال سائدة فى المجتمع الإسرائيلى. والكثير من هذه الحكايات الهزلية يدور حول المنطق الحريدى وتنطوى على موضوع التأجيل والإعفاء من الخدمة العسكرية. وفى ديسمبر ١٩٨٨ على سبيل المثال، أثناء أحد الخلافات الشهيرة المثارة حول تأجيل الخدمة العسكرية لطلاب المدارس الدينية أشار الحريديم إلى الرواية التلمودية التى تتحدث عن تفسير الكتاب المقدس لانتصارات يوعاف، جنرال الملك داود واستشهد الحريديم بالتفسير التلمودى لهذه الانتصارات التى أرجعها إلى دراسات داود المقدسة، بما أن التلمود فى رأيهم يرجع فى شكله الشفوى إلى موسى وربما أبراهام وتمت كتابته بعد ذلك. ورد بعض الكتاب العلمانيين على ذلك بالقول بأن داود بقى بالمنزل وأرسل يوعاف لكى يقاتل، وذلك لأنه كان مشغولا بارتكاب خطيئة الزنى مع «باتشيبا» والتسبب فى موت زوجها «أوريا». وقال أحد كتاب الأعمدة الصحفية فى إحدى الجرائد الإسرائيلية، والتى هى بالتأكيد ليست

حريدية أنه يعتقد أن داود كان فى الواقع مغرما بدراسة منحنيات جسد باتشيبا أكثر من ولعه بدراسة التلمود، وهذا الجدل كان له - ولايزال - تأثير مشابه للتأثير الذى كان لأوروبا المسيحية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر على السياسة. وما لم يلتفت إليه الكثير من المراقبين الأجانب للمجتمع اليهودى الإسرائيلى هو أنه حتى مع الإنجازات العلمية والتكنولوجية فى إسرائيل يعيش الحريديم ومعظم الأصوليين اليهود الإسرائيليين فى زمن يناظر المجتمعات الأوروبية المسيحية منذ أجيال عديدة مضت. وهؤلاء الأصوليون لم يحققوا أية قفزة كمية، كما فعل الإسرائيليون العلمانيون فى الأزمنة المعاصرة. ومع ذلك فإن التوتر بين الإسرائيليين الأصوليين والعلمانيين، ينبثق فى جوهره من أن هاتين المجموعتين تعيشان فى زمنين مختلفين.

ويقترح الحريديم غالبا نظريات أكثر تطرفا من تلك التى ذكرت آنفا. على سبيل المثال يؤكد الكثير من الحاخامات الحريديين أن الهولوكوست والتى تشتمل على وجه الخصوص على وفاة ١,٥ مليون طفل يهودى، كانت عقابا يستحقه اليهود، ليس فقط بسبب كل خطايا العصر الحديث والمروق من العقيدة لكثير من اليهود، ولكن أيضا بسبب الامتناع عن دراسة التلمود فى أوروبا. ويرجع الحريديم وأتباعهم من اليهود التقليديين موت كل يهودى بما فى ذلك الأطفال الأبرياء ليس لأسباب طبيعية ولكن لفعل مباشر من الله. ويؤمن الحريديم بأن الله يعاقب كل يهودى على خطاياه وفى بعض الأحيان يعاقب المجتمع اليهودى برمته بما فى ذلك الكثير من الأبرياء بسبب خطايا اليهود، وفى عام ١٩٨٥ حينما راح ٢٢ طفلا تتراوح أعمارهم بين ١٢ و١٣ سنة ضحية لحادث مرور للباص الذى كان يقلهم فى مدينة «بتاح يتقفاه» أعلن الحاخام إسحاق بيرتس وهو أحد زعماء حزب شاس والذى أصبح بعد ذلك وزيرا للداخلية فى حديث تليفزيونى إن الأطفال أزهقت أرواحهم بسبب أن إحدى دور السينما، سمح لها بالبقاء مفتوحة فى مساء السبت. وقام العديد من أفراد الصحافة العبرية، الذين

يمثلون اليهود العلمانيين بدرجة كبيرة، بالهجوم على الحاخام بيرتس بلا رحمة بسبب التصريح الذى أدلى به، ومع ذلك فإن حزب شاس فى الانتخابات التالية لم يخسر وإنما ربح أصواتا جديدة فى أماكن عديدة بما فى ذلك «بتاح يتقفاه». ويؤمن الحريديم ويدافعون عن معتقدات مشابهة تتعلق بثواب وعقاب الله لليهود فى كثير من مجالات الحياة عندما يطيعونه أو يرتكبون الآثام.

فى أواخر التسعينيات كان الاهتمام الأساسى للحريديم يتمثل فى توسيع نظامهم التعليمى، وخاصة فى الأماكن الفقيرة حيث يقدمون بعض المغريات مثل الوجبات الساخنة، وقام الحريديم بقصف المدارس العامة غير الحريدية بالدعاية الثقيلة. وفى بعض الأماكن كانت هذه الجهود ناجحة وفى أماكن أخرى أدت المعارضة الشرسة للآباء المثقفين وذوى الفعالية السياسية إلى إحباط الدعاية والأنشطة الحريدية، وكان النفوذ الحريدى أحيانا يبلغ الذروة فى بعض الأماكن. ففى «نتيفوت»، إحدى أكثر المدن الإسرائيلية تدينا، نجح الحريديم فى الوقوف فى وجه إنشاء أية مدرسة عامة عليا، وذلك لأنه سيكون لزاما عليها أن تقدم مواد علمانية، ومدينة «نتيفوت» هى المدينة اليهودية الوحيدة فى إسرائيل التى لا توجد بها مدرسة عليا.

ولكى يقوم الحريديم بنشر معتقداتهم وخرافاتهم فإنهم يستغلون غالبا كوارث الناس. فأقارب المرضى الميئوس من حالاتهم والذين يقضون ما تبقى لهم فى الحياة بالمستشفى وخاصة إذا كانوا من اليهود التقليديين يتقرب إليهم غالبا رسل أحد الحاخامات ذائعى الصيت حيث يكررون كلاما فحواه أن الأطباء ليس باستطاعتهم عمل شىء وبعد ذلك يقترحون على أقارب المرضى شراء بعض الماء المقدس الذى باركه الحاخام وأن ينثروه على المريض. ويقوم مبعوثو الحاخام بإطلاق القصص عن المعجزات التى تحدث بعد استخدام هذا الماء المقدس الذى لا يوزع أبدا بلا مقابل.

وبالطبع لا يشير رسل الحاخام أبدا من قريب أو بعيد إلى فشل معجزات الماء المقدس. وتقوم الصحافة العبرية العلمانية فى بعض الأوقات بالكتابة عن فشل هذه المعجزات وخاصة حينما يكون معروفا أن هناك مبلغا ضخما من المال أنفق على شراء الماء المقدس، ومع ذلك فإن كل ما أدى إليه نشر هذه الأحداث هو المزيد من تعميق الخلاف بين أولئك الذين يقرأون وأولئك الذين لا يقرأون ويحتقرون الصحافة العلمانية. وفى صحافتهم الحريدية لم يقم الحريديم فقط بالهجوم على الصحافة العلمانية ولكنهم أسفروا أيضا عن عدائهم اللدود تجاه اليهود الإسرائيليين العلمانيين. وحتى الجزء الأخير من الثمانينيات كان معظم الجمهور اليهودى الإسرائيلى لا يلتفت كثيرا للصحافة الحريدية، ومنذ ذلك الحين ازداد الاهتمام الجماهيرى بها على نحو ملحوظ، وقد قام دوف ألباوم وهو أحد أشهر الخبراء فى الشئون الحريدية بالتركيز على هذه النقطة فى مقالين بالعبرية نشر أحدهما فى العدد الصادر فى ٣٠ أغسطس ١٩٩٦ من صحيفة «يديعوت أحرونوت»، ونشر الآخر فى عدد يوليو - أغسطس من المطبوعة التى تصدر كل شهرين والمسماة «هاعاين هاشيفعيت» بمعنى «العين السابعة» والتى يصدرها المعهد الديموقراطى الإسرائيلى وتخصص لتحليل الصحافة الإسرائيلية. وقد قام ألباوم بمناقشة النظام البنائى للصحافة الحريدية فى «يديعوت أحرونوت» ثم مضى قدما فى مناقشة الموقف الحريدى فى «هاعين هاشيفعيت»، وذلك تجاه اليهود الإسرائيليين العلمانيين، وتبعا لما يقوله ألباوم فإن الهجمات الشرسة فى الصحافة الحريدية على أهارون باراك رئيس المحكمة الإسرائيلية العليا، أدى إلى جذب المزيد من الاهتمام الجماهيرى.

وقد أطلقت الصحافة الحريدية على باراك لقب «أخطر أعداء الجمهور الحريدى». وأشار ألباوم إلى الهجمات السابقة التى شنتها الصحافة الحريدية على الجناح اليسارى وعلى الجيش الإسرائيلى وعلى وسائل الإعلام العلمانية والعديد من المؤسسات والشخصيات العلمانية التى لم تبد

إلا القليل من الاهتمام، وأدى الهجوم على المحكمة العليا التى اعتبرت منذ وقت طويل أقدس رموز الديمقراطية العلمانية الإسرائيلية إلى إثارة اهتمام الكثير من اليهود العلمانيين. وهجمات الصحافة الحريدية الشرسة على إسحاق رابين عندما كان يشغل منصب رئيس الوزراء، لم تحدث نفس الأثر. فقبل وقت قصير من اغتيال رابين تنبأ أحد المقالات الذى نشر فى واحدة من أشهر الصحف الأسبوعية الحريدية وأكثرها شعبية وهى صحيفة «هاشا فوع» «الأسبوع» بما يلى :

«سوف يأتى اليوم الذى يسوق فيه اليهود رابين وبيريز إلى منصة الاتهام فى المحكمة حيث يكون أمامهما خياران لا ثالث لهما وهما إما الشنق أو مستشفى الأمراض العقلية، فهذا الثنائى المجنون الشرير إما أنه أصابه الجنون أو أصابه داء الخيانة. فقد ضمن رابين وبيريز مكانهما فى الذاكرة اليهودية كيهوديين شريرين من أسوأ أنواع الأشرار. فهما يشبهان المارقين أو اليهود الذين خدموا النازى».

ومن خلال الإشارة إلى أن تزايدالاهتمام اليهودى العلمانى بالصحافة الحريدية بعد الهجوم على باراك والمحكمة العليا، يلاحظ ألباوم أن هناك عددا متزايدا من الإسرائيليين العلمانيين، يشعرون بالإهانة حينما يقرأون فى الصحافة الحريدية أن أرواحهم لا تساوى شروى نقير، وأن أطفالهم مدمنون مهلوسون فاقدو الإحساس، وقام ألباوم بشرح ذلك قائلا:

«يبالغ الصحفيون الحريديون فى تضخيم كل الظواهر الهامشية فى المجتمع العلمانى. كما أنهم يصفون حوادث القتل وإدمان الخمور وتعاطى المخدرات باعتبارها خصائص مرتبطة بالمجتمع اليهودى العلمانى، بالإضافة إلى ذلك فإنهم يستخدمون عبارات غير صحيحة باعتبارها حقائق مسلما بها ويصوغونها فى قوالب من أحط وأقذر الألفاظ، ويهدفون من ذلك إلى إدانة أسلوب الحياة اليهودى العلمانى».

ومن الصعب عدم اعتبار ذلك أسلوبا يناظر الأسلوب النازى.

إن نظام الصحافة الحريدية يعتبر نظاما فريدا، ويشير ألباوم إلى أن الصحيفة الرئيسية المعبرة عن الأيديولوجية الحريدية وهى صحيفة «ياتيد نعمان»، الناطقة باسم طائفة «ديجل هاتوراه» أى «علم التوراة» يرأسها ويشرف عليها الحاخام شاخ. ويقول ألباوم أن جريدة «ياتيد نعمان» تراقب مراقبة محكمة من خلال لجنة مكونة من خمسة حاخامات، يعينون جميعا بواسطة الحاخام شاخ، ويرأسهم الحاخام ناتان تسوهافسكى، ويوجد أحد الحاخامات فى مكتب الصحيفة كل مساء فيما عدا يوم السبت. وكل كلمة فى كل مقال وأى إعلان أو موضوع يجب أن تحظى بموافقة الحاخام المسئول عن العمل، وهناك كلمات أو تعبيرات معينة، مثل إيدز أو تليفون، لا يسمح بنشرها، ومصطلح «الصليب الأحمر» الذى من المفترض ارتباطه بالمسيحية، ممنوع من النشر بوجه خاص.

وتقوم مقالات «ياتيد نعمان» بشن هجوم ضار على التجمعات الحريدية المنافسة، على سبيل المثال، كل الإعلانات التى تتحدث عن أحداث اجتماعية لحزب شاس، والتى لا يرضى عنها الحاخام شاخ لا يسمح بنشرها، وقد تجلت أهمية هذا الحظر حينما جرؤ أحد محررى الجريدة، بعد هدوء ظاهرة الحرب الروحية بين الحاخامين شاخ وشاس، على نشر إعلان يعلن عن حفل «بارميتسفاح». «أى الاحتفال ببلوغ الابن سن الثالثة عشرة، وهى سن التكليف الدينى فى الشريعة اليهودية، حيث يصبح الابن مسئولا عن أفعاله بعد أن كان الأب هو المسئول قبل ذلك» وذلك لأحد أعضاء الكنيست المنتمين لحزب شاس، وفور علم الحاخام شاخ بذلك، قام بتعنيف الحاخام زوكوفسكى، رئيس لجنة الرقابة الحاخامية.

إن لجان الرقابة الروحية تتواجد وتراقب كل شىء ينشر فى الصحف الحريدية الأخرى.

ويؤكد ألباوم: «إن حرية الصحافة تعتبر شيئا مجهولا فى الصحافة الحريدية». ومحررو الصحف الحريدية، تبعا لألباوم، يؤمنون بنوع

مختلف من الحرية : «حرية جمهورنا فى ألا يعرف أشياء معينة» فالحاخامات الرقباء يقررون ما الذى لا يجب أن يعرفه الجمهور.

ولكى تقوم الصحافة الحريدية بالتعبير عن الموقف الحريدى العام تجاه اليهود العلمانيين، تقدم المقالات الحريدية غالبا مزاعم تتحدث عن عبارات معادية للسامية تتعلق بكل اليهود، ويشير ألباوم إلى مقال بتاريخ فبراير ١٩٩٦، على سبيل المثال، والذى يكرر فيه إسرائيل فريدمان موقفه القائل أن أرض إسرائيل تنتمى فقط إلى الحريديم وأن اليهود العلمانيين والفلسطينيين يجب أن يغادروها. ويقول فريدمان فى مقاله مخاطبا اليهود العلمانيين:

«ابتعدوا عن هنا.. إننا نقول لكم ذلك بطريقة ودية فالجريمة الأمريكية يمكنها بسهولة أن تستوعب الشباب العلمانى المجرم الغارق فى الكحول والمخدرات والمكاسب الدنيوية. إنهم جميعا مصاصو دماء يشربون من دمائنا. ويجرءون على العيش على الأرض التى تنتمى إلينا». وفى مقال آخر يستشهد ألباوم بمقتطفات من كلمات ناثان زائيف جروسمان، محرر جريدة «ياتيد نعمان» حيث يعزى صعود الصهيونية الجديدة فى الدول الأوروبية إلى «نفوذ حكومة رابين» ويصف جروسمان كل «الكيبوتسيم»(*) بأنها مؤسسات نازية واقترح «محاكمتها على غرار محاكمات نورمبرج».

ويطالب الحريديم بأن يقوم اليهود الآخرون، على الأقل وعلى وجه الخصوص فيما يتعلق بالأمور الرمزية، باتباع تعليماتهم. والمطالب الحريدية التى تدعم غالبا من جانب اليهود التقليديين، كثيرا ما تؤدى إلى فضائح سياسية، ويمكن أن توصف بأنها «اسطبل» السياسة الإسرائيلية، وقد حدث الكثير من أزمات الحكومة الإسرائيلية بسبب الفضائح الدينية أكثر من أى سبب آخر. ومن أجل مصالحهم السياسية،

(*) تلك المستعمرات العمالية التى يقيم فيها اليهود على هيئة جماعات فى نظام يشبه النظم الاشتراكية وكان لها دور كبير فى بداية الاستيطان داخل فلسطين.

يصر الحريديم على استخدام رموز معينة، ولعب هذا الإصرار دورا مهما فى السياسة الإسرائيلية، والكثير من اليهود الإسرائيليين، مع عدد أكبر كثيرا من يهود الشتات، إذعانا لما يعتقدون أنه تقليد يهودى وتعاليم اليهودية، يؤيدون المطالب الحريدية بالحفاظ على وإظهار شعائر الشريعة اليهودية، وهذا التأييد أدى إلى فضائح، وإحدى هذه الفضائح المدوية حدثت فى خريف ١٩٩٢ وشغلت الساحة السياسية الإسرائيلية لشهور عديدة، فأثناء ذلك الوقت، هدد حزب شاس الحريدى بالتخلى عن حكومة رابين. ليس بسبب خطط رابين الخاصة بالتعامل مع الفلسطينيين ولا بسبب تقديم تنازلات للسوريين ولكن بسبب أن شولاميت آلونى وزيرة التعليم، فى إحدى زياراتها إلى نازاريث تم تصويرها وهى تأكل طعاما غير كوشير فى مطعم عربى، وهذا ينتهك الطقوس الدينية اليهودية الخاصة بنقاء الطعام. وقبل ستة أشهر فقط من فضيحة آلونى تفجرت فضيحة أخرى كانت بطلتها يائيل.رايان إحدى عضوات الكنيست التى تم تصويرها على شاطئ تل أبيب، وهى ترتدى ثوب الاستحمام وتقرأ كتابا عن يوم كيبور «عيد الغفران» وقد احتجت كل الأحزاب السياسية الدينية على ما أطلقوا عليه «تدنيس اليهودية». وبعد الاستماع إلى أعضاء الكنيست المتدينين المنتمين لحزب العمل وهم يرددون نفس الآراء، قام رابين رئيس الوزراء الذى لم يكن من المتدينين التقليديين بتأكيد هذا الاتهام.

وخلال عملها كوزيرة للتعليم، أصدرت شولاميت آلونى العديد من التصريحات التى اعتبرت معارضة للتقاليد اليهودية وتجديفا، وأدت إلى حدوث فضائح، وقبل شهر من تفجر فضيحة تناول الطعام فى مطعم عربى، اعترفت آلونى علنا أن إنكار خلق العالم فى ستة أيام هو افتراض يمكن الدفاع عنه، كما قامت أيضا باتخاذ موقف متشدد يطالب بتغيير تدريس اليهودية فى المدارس العلمانية للدولة، «وكانت قانعة بتركه كما هو فى المدارس الدينية» كما أحدثت آلونى أيضا المزيد من الضجيج حينما قامت علنا بازدراء بعض شخصيات الكتاب المقدس.

وقد كتبت رانى تالمور وهى إحدى الصحفيات الإسرائيليات البارزات، فى مقالة لها بجريدة حداشوت «الأنباء» بتاريخ ١٤ أكتوبر ١٩٩٢ تقول:

«استطاعت آلونى أن تفلت بمعجزة من مصير جاليليو الذى أصر على رأيه القائل بأن الأرض تدور حول الشمس، وهمس بعض اليهود العلمانيين: المفترض أنهم ذوو عقول مستنيرة، لبعضهم البعض:

«بالطبع إنها على حق، ولكن ما الذى يدفعها إلى قول ذلك علنا؟» وشعر أعضاء محاكم التفتيش بالسرور عندما أدركوا أنهم حققوا انتصارا آخر على الكفرة البلهاء».

وقام أعضاء محاكم التفتيش اليهودية بالتحرش بآلونى حتى بعد أن أرغمها رابين على الاعتذار علنا فى خطاب مفتوح إلى الحاخام عوفيديا يوسف، الزعيم الروحى لحزب شاس. وقام يوائيل ماركوس، وهو أحد الصحفيين الإسرائيليين ذائعى الصيت، بالتعبير عن الرأى الشائع على نطاق واسع حينما قال فى مقالة بتاريخ ١٣ أكتوبر عام ١٩٩٢، فى صحيفة هاآرتس: «كما هو معروف جيدا، فإن كل تنازل فى هذه الأمور إنما يؤدى فقط إلى تشجيع طلب المزيد. وهذا هو السبب الذى يجعل الاستسلام الذليل لمطالب اليهود المتدينين من جانب أعضاء حزبى العمل وميرتس يثير دهشتنا، لقد قام رابين بوقار بقراءة أحد تقارير المعلومات، المرسل إليه بواسطة الحزب الدينى القومى «NRP»، والذى يصف كيف قامت آلونى بانتهاك يوم السبت وتناولت طعاما غير شرعى «غير كوشير(*) فى إسرائيل، وفى الخارج، وقام رئيس مجموعة حزب العمل بالكنيست «إيلى ديان» بتوبيخ آلونى وعضوة الكنيست يائيل ديان».

وقام الحزب الدينى القومى باستئجار مخبرين سريين من أجل التجسس على الوزراء لمعرفة من منهم ينتهك التعاليم الدينية اليهودية،

(*) «كوشير» هو الأكل على الشريعة اليهودية وتعنى «شرعى»أو «حلال».

واستمر هذا التجسس بينما كانت حكومتا رابين وبيريز فى السلطة، وقام رابين وبيريز، أثناء وجودهما فى السلطة بالحصول على نتائج التحريات السرية واستمرا فى محاولة جعل وزرائهما لاينتهكون أية شرائع دينية علنا.

وفى مقاله بجريدة ها آرتس، قام يوائيل ماركوس بالتعبير عن كثير من المخاوف السارية عبر قطاع عريض من الجمهور اليهودى الإسرائيلى حيث قال:

«إننا نستطيع أيضا أن نتوقع أن يطلب من كل وزير وكل عضو بالكنيست أن يصحبه مفتش للطعام الشرعى، يقضى معه كل الوقت لهذا الغرض، وأن يتم تعيين مفتشين مماثلين من أجل التأكد من أن الطعام يعد حسب الشريعة اليهودية فى كل مكان وفى كل شارع فى إسرائيل. كما يمكن أن يطلب أيضا أن يتم إنشاء فرق للرذيلة، تخول سلطة اقتحام المنازل من أجل التأكد مما إذا كان الطعام يعد طبقا للكيشورت. (أى لأحكام الشريعة اليهودية فى نوعيته وطريقة إعداده) ومن أجل معرفة ما إذا كانت الزوجة، لاقدر الله، لم تقم عن طريق الصدفة بممارسة الجنس مع زوجهاء أثناء فترة عدم طهارتها أثناء وبعد الطمث.. (والتى تستمر من ٨ إلى ١٤ يوما).

كما عبر صحفيون إسرائيليون آخرون عن مخاوف مشابهة وذهبوا إلى مدى أبعد مما وصل إليه ماركوس فى مقالاته المنشورة. وقام البعض منهم بالهجوم ليس فقط على المتدينين، ولكن أيضا على العلمانيين الذين لاذوا بالصمت أمام الهجوم عليهم وعلى سلوكهم والذين يتركون أنفسهم نهبا لعمليات غسيل المخ المستمرة بواسطة اليهود المتدينين. واعتبر الكثير من اليهود الإسرائيليين الذين تم التعبير عن آرائهم من خلال صحفيين معينين، أنشطة وانتصارات الجماعات الدينية خطوات على طريق تحقيق «الخومينية» اليهودية الكاملة فى إسرائيل.

استمرت مناقشة فضيحة آلونى لمدة أسابيع فى الصحافة الإسرائيلية

وأصبحت ذات طابع سياسى على نحو متزايد. وكتب ناحمان بارينيا فى مقاله بتاريخ ٢٣ أكتوبر ١٩٩٢ بجريدة يديعوت أحرونوت يقول:

«قام رابين بتشجيع سيل الدعاية المضادة لآلونى من خلال رفعه شعار «آلونى» أو السلام». فما هى الصلة التى يمكن أن توجد بين طعام آلونى المفضل والسلام. وفى أربع مناسبات منفصلة اجتمع رابين بزعماء «حزب ميرتس»(*) حزب آلونى من أجل إبلاغهم بالشكاوى المقدمة ضد آلونى من جانب الحاخام عوفيديا يوسف، الزعيم الروحى لحزب شاس.

وفى مقاله بتاريخ ٢٣ أكتوبر ١٩٩٢ بصحيفة «دافار» أنحى عامير أورين باللائمة على رابين لإذعانه للحاخام عوفيديا يوسف وبسبب سماحه بأن يصل نفوذ الحاخامات لنفس مستوى نفوذ ستالين فى عصره. وأشار أورين إلى أن حزب شاس قد بدأ فى القيام بدور يوازى ما تقوم به الشيعة فى لبنان. ومن وجهة نظر أورين فإن إسرائيل «على نحو تكون معه أبعد ما تكون عن أنها الديمقراطية الوحيدة فى الشرق الأوسط تحاكى لبنان وإيران، وتصبح نصف فوضوية ونصف حكومة دينية».

وقام أمنون أبروموفيتس فى مقاله بصحيفة معاريف فى ٢٣ أكتوبر ١٩٩٢. بإلقاء ضوء مختلف بعض الشىء على فضيحة آلونى فكتب يقول:

«أدى الاستغلال السيئ لآلونى ككبش فداء بواسطة اليهود المتدينين إلى تأييد الرأى العام لها فالتمرد على الحماسة الدينية وعلى الأصولية كان نتيجة للتحرش بآلونى».

أنحى أبروموفيتس باللائمة على رابين لتشجيعه هذا التحرش، ولكنه أضاف أنه على الرغم من أحاديثها وتناولها الطعام غير الشرعى، فإن آلونى قد منحت المؤسسات الدينية، وخاصة تلك الخاصة بشاس، دعما ماليا أكبر مما منح لها فى عهد أى وزير تعليم سابق.

(*) أحد أبرز الأحزاب اليسارية وتأسس مع عقد الثمانينيات كقوة يسارية متطرفة.

واختتم أبروموفيتس مقاله بالقول: «ربما تكون آلونى قد تحدثت على نحو تجديفى عن الله، ولكنها كانت فى غاية الكرم مع أولئك الذين يؤمنون به».

وقام زعماء حزب العمل ومؤيدوهم غير التقليديين بالرد على الآراء السابقة المعبرة عن العديد من المخاوف، وخاصة بعد اتفاق أوسلو، بالقول بأن الاستجابة لمطالب الحريديم ضرورية من أجل التأكد من دعم عملية السلام. وهذه الإجابة الكسيحة لم تشف غليل العديد من الإسرائيليين العلمانيين. فما توصل إليه ماركوس يعبر عن الرأى العلمانى الواسع.

«إن سبب عبودية رابين لشاس يفترض أنه السياسة. ويؤكد خبراء حزب العمل لنا على نحو لايخلو من خداع أن حزب شاس ربما يترك الائتلاف إذا وجد أنه لم يعد يستطيع الصمود فى وجه الضغوط القادمة من الدوائر الحريدية.. ومعنى ذلك أن الحزب يجب أن يبذل كل ما فى وسعه للتخفيف من هذه الضغوط.. إن السياسة هى شىء مهم، ولكن حرية الرأى وحق كل شخص فى اتباع مذهبه الخاص أهم، والعلمانية اليهودية تمثل مذهبا. فالرياء السافر، الذى يقوم من خلاله الوزراء بأداء الطقوس الدينية لايؤدى إلا إلى الإضرار بتماسك الحكومة.

وإذا كان شاس يرغب فى ترك ائتلاف رابين، فإنه سوف يفعل ذلك بأمر الحاخامات، حينئذ لن يجدى حتى لو ارتدى رابين زى الحريديم أو حلقت آلونى رأسها وغطتها بقلنسوة.. (فى هذا إشارة إلى أحد تعاليم اليهودية التقليدية، والتى تقول أن المرأة. قبل الزواج، عليها أن تحلق شعر رأسها وأن تغطيه بقلنسوة.. ويحاول الحريديم بقوة تطبيق هذه القاعدة. والكثير من النساء اليهوديات المتدينات يقمن فقط بقص بعض من شعرهن ويغطين ما تبقى بشعر مستعار، والكثير من النساء اليهوديات العلمانيات يستبد بهن الغضب بسبب هذا التقليد).

ويقوم الحاخامات والساسة الحريديون عمدا باختيار النساء العلمانيات فى السياسة كأهداف أساسية لهجومهم، حتى على الرغم من

استطاعتهم أيضا، إن لم يكن بدرجة أكبر، الإشارة إلى انتهاك العلمانيين الرجال للشريعة اليهودية. ويشير الحريديم على نحو متكرر إلى النساء اليهوديات، المنخرطات فى النشاط السياسى، باعتبارهن ساحرات أو عاهرات أو ملعونات. وعلى الرغم من استخدام اللغة الوصفية على نحو فج، فإن منهج الحريديم يعكس إلى حد كبير موقفهم من المرأة بناء على اليهودية التقليدية. وهذا الموقف لايقيد فقط حقوق المرأة ولكنه أيضا يحتقرها بطرق عديدة. ففى القاعدة ٨ من الفصل الثالث من كيتسور «أو مختصر» شولحان أروخ، وهو مرجع أولى لليهود يحتوى على القليل من تعاليم التلمود، نجد ما يلى:

«يجب على الرجل ألا يمر بين امرأتين أو كلبين أو خنزيرين. كما لايجب أن يسمح رجلان لامرأة أو كلب أو خنزير بالمرور بينهما»، وكل الفتيان الحريديين الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثانية عشرة يجب أن يلتزموا بهذا الأمر. وهناك القليل من الكلاب كما لاتوجد أية خنازير فى الأحياء الحريدية». وتحظر اليهودية التقليدية على النساء أيضا لعب أى دور مهما بلغت ضآلته فى السياسة أو القيام بأى نشاط عام يظهرن فيه بمظهر القائدات للرجال. والمرأة محظوز عليها أيضا أن تقود حافلة أو سيارة أجرة، ويمكنها أن تقود سيارة خاصة إذا كانت لاتحتوى فى داخلها على رجال غرباء أو تحتوى فقط على النساء. وهذه القواعد وقواعد أخرى يتم اتباعها فى المجتمعات الحريدية. ففى هذه المجتمعات نجد أن النساء اللائى لايرتدين ملابس محتشمة يهن أو يهاجمن. والكثير من اليهود المتدينين التقليديين فى المجتمعات غير الحريدية، والذين لايراعون الالتزامات الدينية التى يرون أنها غير ملائمة، يقودون الحريديم فى امتهان النساء والاعتراض على مشاركتهن فى السياسة. هؤلاء المتدينون التقليديون يعتبرون هذه المشاركة النسائية تهديدا لهيمنتهم على الأسرة.

إن العديد من العبارات المعادية للمرأة فى التلمود وفى الكتابات التلمودية تشكل جانبا من جوانب أى دراسة مقدسة للرجل الحريدى.

وإحدى العبارات الواردة في قسم الشابات ص ١٥٢ ب، من التلمود تشير إلى ذلك: «إن المرأة هى حقيبة مملوءة بالغائط» والموسوعة التلمودية «الجزء الثانى، ص ٥٥ - ٢٥٧»، المكتوبة بالعبرية المعاصرة، وعلى ذلك فإنها مفهومة لكل اليهود الإسرائيليين المتعلمين، تخصص جزءا خاصا بعنوان «طبيعة وسلوك النساء».

وفى هذا القسم نجد أن هناك افتراضا يقول بأن الرغبة الجنسية عند الرجال أقوى منها عند النساء. والدليل على ذلك أن الرجال يميلون إلى استئجار البغايا لأن رغبتهم أقوى من رغبة المرأة، ولهذا السبب فإن الهالاخاه تعاقب الزوجة التى ترفض العلاقة الجنسية مع زوجها على نحو أكثر صرامة من الزوج الذى يرفض ذلك. ولنفس السبب فإن الزوج المحتمل ملزم بأن يرى زوجته المستقبلية قبل الزواج، ولكن الزوجة المحتملة تكون غير ملزمة برؤية زوجها قبل الزواج، وبعد رؤية العروس، يقوم الزوج المنتظر بإرسال رسول من قبله وينهى مراسم الزواج من خلال هذا الرسول. والفولكلور اليهودى يحتوى على العديد من القصص التى تصف مدى الانتفاع بذلك.

والحظر الذى تفرضه الهالاخاه على تعليم التلمود أو الكتاب المقدس للنساء كان ولايزال له أهمية كبيرة. ودراسة «توراة شى بعل بوه» أى «التوراة الشفهية» يعتبر من الفروض البالغة الأهمية فى الهالاخاه «أى الشريعة اليهودية» وهو يوازى فى الأهمية كل التعاليم الأخرى مجتمعة معا. فالناموس، أو التوراة، «حسبما يعتقد، أعطاه الله لموسى شفهيا، وتم تناقله شفهيا لقرون عديدة قبل أن تتم كتابته». وهذا الالتزام المسمى «تلمود التوراة» أو «تعليم التوراة» ينظر إليه على أنه منفصل عن الزمن. فكل يهودى تقى ملزم بأن يخصص جانبا من أيامه ولياليه، بما فى ذلك الإجازات وأيام العمل. لهذه الدراسة.

والقانون التلمودى الأساسى يعفى النساء من الالتزامات الإيجابية التى تعتمد على أوقات معينة ويلزمهن فقط بالتكليفات الإيجابية غير المعتمدة على وقت معين. فالنساء على سبيل المثال، ملزمات بمراعاة

السبت والإجازات التى تزيد على ٢٤ ساعة، وبذلك فإنها تعتبر غير مرتبطة بالزمن. ومن جهة أخرى فهن غير ملزمات بالاستماع إلى الشوفار. «وهو البوق المصنوع من قرون الكباش الذى ينفخ فيه فى مناسبات دينية معينة» فى الاحتفال بالعام الجديد الذى يستغرق فقط وقتا صغيرا، وبذلك فإنه يكون معتمدا على الوقت. «وهناك بعض الاستثناءات لهذه القاعدة» فيسمح للمرأة بأن تقوم بما تكون غير مكلفة به، ولذلك يمكنها أن تستمع إلى الشوفار بمحض إرادتها عند قدوم العام الجديد. وهذه القاعدة تنطوى على منزلة دينية للمرأة أدنى من منزلة الرجل، بما أن التعاليم التلمودية تقول بأن الشخص الذى يقوم بفرض معين مكلف به، يحصل من الله على ثواب أكبر من الشخص الذى يقوم بطاعة فرض غير مكلف به. فالمرأة اليهودية التى تأتى إلى الاحتفال الدينى بالعام الجديد وتستمع إلى الشوفار وهو ينفخ فيه، تبعا للتقاليد اليهودية، تحصل من الله على ثواب أصغر من الذى يحصل عليه الرجل، الذى يفعل نفس الشىء لأنها غير مكلفة بينما هو مكلف. وقسم التلمود أو التراكتات المسمى «كيدوشين» «ص ٣٤أ»، ينص على أن المرأة غير ملزمة «بتعليم التوراة» حتى على الرغم من أنه تكليف مستقل عن الوقف.

وهذا الحكم هو جزء من الهالاخاه وتم تعديله فيما بعد لكى ينص على أن النساء يجب أن يتعلمن فقط التزامات معينة فى نطاق أن يعرفن فقط، ما الذى يجب عليهن عمله، وما الذى يجب عليهن تجنبه. والسؤال الذى يطرح نفسه هنا هو: ما هى أجزاء الدراسات المقدسة التى يسمح للنساء بأن تعلمنها أو يتعلمنها؟ والإجابة التلمودية عن هذا السؤال تقوم على كثير من الاستشهادات التى قدمها ميمونيدس. ففى كتابه المسمى «قوانين تعليم التوراة» «الفصل ١، القاعدة ١٣» يقول ميمونيدس:

«إن المرأة التى تدرس التوراة تحصل على ثوابها «من الله» ولكنه يكون أقل مما يحصل عليه الرجل، وذلك لأنها غير مكلفة بذلك، وكل شخص يقوم بما هو غير مكلف به يحصل على ثواب أقل مما يعطى

للشخص الذى يقوم بما هو مكلف به، ويأمر الحكماء الأب بألا يعلم ابنته التوراة، لأن معظم النساء ليست لديهن نية تعلم أى شىء، وسوف يقمن بسبب سوء فهمهن بتحويل أقوال التوراة إلى هراء». ويقول الحكماء: «إن أى شخص يعلم ابنته التوراة يمكن أن يقارن بمن يعلمها شيئا تافها»، ومع ذلك، فإن هذه القاعدة تنطبق فقط على الدراسات التلمودية.

وعلى الرغم من أن المرأة يجب ألا تتعلم الكتاب المقدس، فإنها إذا تعلمته لن يعتبر ذلك موازيا لتعلم أمور تافهة.

وهناك رواية موجزة لذلك موجودة فى الموجز المعتمد من الهالاخاه، شولحان أروخ «يوراه ديه، القاعدة ٢٤٦، الفقرة ٦». وفى العصور الحديثة حاول الحريديم تعديل هذه القواعد إلى حد ما. فلقد قاموا وما يزالون يقومون بتعليم الفتيات الأجزاء السهلة من التلمود، حيث لايوجد خلاف بين الحاخامات على عدم تأثرها بسبب «ضعف عقل المرأة»، وبالمثل قام الحريديم ومازالوا يقومون بتعليم الفتيان بالبنتاتوخ «أو الكتب الخمسة الأولى من الكتاب المقدس والتى يعتقد أنها الأكثر قداسة لأن موسى هو من قام بكتابتها». ولكنهم يحتفظون بالتعاليم الأعلى مستوى والأكثر جدية للفتيان، ويقوم الحريديم فى مدارسهم بالالتزام على نحو صارم بفصل الفتيات عن الفتيان ولايسمحون للفتيات برؤية الفتيان وهم يلعبون فى فناء المدرسة.

قام الكثير من اليهود الإسرائيليين، الذين تلقوا فى شبابهم تعليما تلموديا، بالرد على نحو عدائى على اليهودية الأرثوذكسية فى تصويرها ومعالجتها للمرأة. وقام بعض أولئك اليهود بكتابة مقالات نشر أغلبها فى صحف إسرائيلية ناطقة بالعبرية ولكنها لم تترجم أبدا إلى الإنجليزية. على سبيل المثال، كتب كديد ليبر، وهو أحد الصحفيين الإسرائيليين الذائعى الصيت، والذى تلقى تعليمه فى مطلع شبابه فى إحدى المدارس الدينية لمدة سنوات قبل أن يصبح بعد ذلك علمانيا، فى مقال نشر بتاريخ ١٨ أبريل ١٩٩٧ فى صحيفة هاعير «أى المدينة»

تحت عنوان «المرأة حقيبة مملوءة بالغائط» ما يلى: «الجلد والبهيمية الجنسية والوحشية والحرمان من الحقوق واستخدام المرأة فقط كأداة للجنس، كل هذا تستطيع أن تجده هناك فى «التلمود».. فلمدة ألفى عام كانت النساء دائما لهن مكانة معروفة فى الدين اليهودى «اليهودية الأرثوذكسية»، وهذه المكانة تختلف عما تصفه المؤسسة الحاخامية، فطبقا للهالاخاه، فإن مكان النساء هو كومة القاذورات مع البهائم والعبيد. وتبعا للديانة اليهودية «اليهودية الأرثوذكسية» فإن الرجل يشترى لنفسه أمة طوال حياته من خلال إعطائها الطعام والملابس والفعل الجنسى باعتبارها زوجته».

وهذا النوع من المقالات مع الكثير من التقارير المنشورة عن تحرش الحاخامات بالنساء، لم يؤكد فقط على مدى الاستقطاب فى المجتمع اليهودى الإسرائيلى، ولكنه ساهم أيضا إلى حد بعيد فى تزايد العداء العلمانى نحو الحريديم.

وفى كثير من مجالات المجتمع اليهودى الإسرائيلى يواصل الحريديم الحفاظ على انفصالهم، وفى نفس الوقت يؤكدون على أن اليهود الآخرين يقبلون آراءهم وهذا يتبين من خلال مجال الطب على سبيل المثال. ففى مقاله بتاريخ ٢٥ ديسمبر ١٩٩٥ فى جريدة يديعوت أحرونوت، قام دوف ألباوم بمناقشة الطلب المرسل قبل أسبوعين بواسطة الحريديم إلى وزارة الصحة الإسرائيلية.

«طلب الحاخام يهوشو شينبرجر، رئيس منظمة طب الشريعة، ما بدا أنه مطلب برئ كنوع من التنازل لليهود المتدينين، وهو أن يسمح بالتبرع الشخصى بالدم. فالشخص الذى قام بالتبرع فى السابق بوحدة من الدم لمريض يجرى جراحة معينة يحصل على وثيقة تخوله الحصول على تبرع مقداره وحدة واحدة من الدم من الاحتياطى العام لبنك الدم. وهذا المطلب الجديد، إذا وافق عليه، فإنه يمكن أن يصنع موقفا يكون فيه المتبرعون بالدم قادرين على أن يطلبوا أن تقوم المستشفيات أو مراكز

الإسعافات الأولية بإعطاء تبرعاتهم بالدم فقط لمستفيدين «معينين».

وقد تم تأييد الحاخام شينبرجر، من خلال حاخامين «مهمين آخرين زاعمين أن الحريديم عادة يرفضون التبرع بالدم، ولكنهم يمكن أن يغيروا موقفهم إذا تم قبول هذا الطلب. وناقش ألباوم فى مقاله الدافع الإضافى وراء هذا الطلب:

«توجد تحت السطح مشكلة مختلفة تماما هى الدافع وراء طلب الحاخامات المرسل إلى وزارة الصحة الإسرائيلية، فالسلطات الحريدية القانونية الدينية واجهت فى السنوات الحديثة القضية الآتية:
«فهل يسمح لليهودى التقى بأن يحصل على الدم من غير اليهودى أو من يهود لايراعون التكاليف الدينية اليهودية»؟ فالحاخامات الحريديون يخشون من أن يحصلوا على دم «ملوث» أو علمانى أو غير يهودى مما يجعل اليهودى التقى يتصرف على نحو شرير ويقوم حتى بالإخلال بالالتزامات الدينية اليهودية».

وقبل عدة أسابيع من تقديم الطلب المشار إليه، قام الحاخام عوفيديا يوسف بعلاج هذه المشكلة بإسهاب فى كتابه الجديد المسمى أسئلة وأجوبة: «إن الدم الذى يأتى من طعام حرام «أى غير كوشير» يمكن أن يؤدى إلى تأثيرات سلبية على من يتلقونه من اليهود. فربما يحدث صفات سيئة مثل الوحشية والتبلد.. وعلى ذلك، فإن اليهودى التقى، الذى لا يحتاج إلى نقل دم عاجل والذى لا خطر عليه فى انتظار نقل الدم إليه من يهودى متدين ملتزم، يجب عليه أن ينتظر». كما قدم الحاخام يوسف فتوى مشابهة لأولئك اليهود الأتقياء المحتاجين إلى زرع الأعضاء، حيث طلب منهم قبول التبرع من اليهود الأتقياء فقط، وأدى هذا الأمر إلى خلاف خطير بين الحاخامات فى إسرائيل وإلى إصابة العديد من اليهود العلمانيين بالذهول. وفى مقال منشور آخر، أعلن الباروم أن الحاخام موردخاى إلياهو رئيس الحاخامات السابق فى إسرائيل، لا يوافق على رأى الحاخام يوسف حيث قال:
«عندما يولد يهودى علمانى، فإنه يولد بدم كوشير «أى حلال»، وكل

الأطعمة المحرمة التى يأكلها بعد ذلك تهضم وتذوب فى دمه» ومع ذلك، فيما يتعلق بغير اليهود، اتفق الحاخام إلياهو مع الحاخام يوسف على أن اليهود المتدينين يجب أن يحاولوا تجنب أخذ دم منهم ولم يحرم الحاخام إلياهو قبول التبرع بالدم من غير اليهود لليهود وقال:

«يجوز فى أوقات معينة أن يحصل اليهود على الدم، أو على الرضاعة فى حالة الأطفال، من غير اليهود، على الرغم من أن هذا الدم يكون ضارا بخصائصهم وروحهم اليهودية، وهذا لأن الدم ينتقل ببطء ويدور فى الدورة الدموية للدم اليهودى فى الجسم. ومع ذلك يجب على اليهود بقدر الإمكان تجنب الحصول على هذا الدم».

واعترف الحاخام شينبرجر فى النهاية بأن هذه الأحكام تشكل السبب الأساسى لهذا الطلب: «فالمجتمع الحريدى لديه مشكلة فى هذا الخصوص فبالنسبة للحريديم يكون الدم القادم من يهودى يأكل طعام الكوشير فقط مفضلا على الدم الذى يأتى من يهودى لا يراعى قواعد الطعام الشرعى». ووافق حاخامات آخرون على ذلك، فيقول الحاخام ليفى إسحاق هالبرين، رئيس المعهد العلمى الدينى لمشاكل الشريعة اليهودية: «إن تبرعات الدم من غير اليهود أو من اليهود الذين يأكلون أطعمة محرمة تمثل مشكلة. فأحكام الشريعة اليهودية تنص على أن الطفل اليهودى يجب ألا يرضع من امرأة غير يهودية لأن لبنها ناتج عن طعام محرم، ويؤدى إلى تلويث الطفل اليهودى، وهذه المواقف والتصريحات أدت إلى إثارة عداء اليهود العلمانيين ووجدت معارضة كبيرة.

وفى عام ١٩٩٤ أشعل الحاخام شينبرجر خلافا آخر وفجر فضيحة بطلب مماثل. فقد التقى بكبار الأطباء فى مؤسسة زرع الأعضاء الإسرائيلية، وناقش معهم مسألة الحظر الدينى اليهودى الخاص بالتبرع بالأعضاء، ففى إسرائيل يرفض اليهود الحريديم زرع الأعضاء من خلال بعضهم البعض ومن خلال أقاربهم. ويؤثر الموقف الحريدى فى هذا الموضوع على الكثير من الأشخاص لأسباب دينية

وأسباب خرافية، وكثيرا ما يقوم الجراحون بطلب الحاخامات الحريديم من أجل مناشدة أتباعهم الموافقة على إجراء عمليات زرع أعضاء مأخوذة من أقاربهم لإنقاذ أرواحهم ويتذرع الجراحون بالقول بأن القانون الديني اليهودى يعطى الأولوية لإنقاذ حياة اليهود.

وخلال مناقشته يضع الحاخام شينبرجر الشرط الوحيد الذى من خلاله يمكن للحاخام الحريدى أن يصرح بهذا الزرع. وفسر ذلك قائلا بأن: «ينص القانون الدينى اليهودى على أنه من المحظور زرع الأعضاء اليهودية لدى غير اليهود أو اليهود غير الأتقياء. ومن الواضح أنه محظور تحت أى ظرف من الظروف زرع أعضاء اليهود لدى العرب أو لدى من يكره اليهود». ورد الحاخام شينبرجر، حينما سئل عن تعريفه لليهودى غير التقى قائلا أن الحاخام يجب أن يحدد منزلة كل يهودى. وأدى طلب شينبرجر إلى اهتياج عظيم وتم رفضه.

إن الكثير من الحاخامات غير الحريديم يجيزون زرع أعضاء غير اليهود لليهود من أجل إنقاذ حياة اليهود، ومع ذلك فإنهم يعرضون زرع الأعضاء من جسد يهودى إلى جسد غير يهودى. وبعض الحاخامات المهمين يمضون إلى أبعد من ذلك فى مناقشتهم وإصدارهم الأحكام المتعلقة بالفروق بين اليهود وغير اليهود فى الأمور الطبية، وأعلن الحاخام إسحاق جينسبرج، وهو أحد الأعضاء البارزين فى «هاباد» ورئيس إحدى المدارس الدينية بالقرب من نابلس، فى مقال نشر بجريدة الأسبوع اليهودى فى ٢٦ أبريل ١٩٩٦، وأعيد نشره فى هاآرتس بنفس اليوم: «إذا كانت كل خلية فى الجسد اليهودى تنطوى على ألوهية، وبذلك فإنها تكون جزءا من الله، فإن كل حمض نووى أمينى «DNA» هو جزء من الله.

وعلى ذلك، فهناك شيء ما مميز خاص بالحمض النووى الأمينى اليهودى». وتوصل الحاخام جينسبرج من ذلك إلى استنتاجين: «إذا كان شخص يهودى بحاجة إلى كبد، فهل يمكنه أن يأخذ كبد شخص غير

يهودى برىء لإنقاذ حياته؟ إن التوراة تسمح بذلك على الأرجح، فالحياة اليهودية لا تقدر بثمن فهناك شيء ما أكثر قداسة وتفردا فى الحياة اليهودية عنه فى الحياة غير اليهودية» والجدير بالذكر أن الحاخام جينسبرج هو أحد مؤلفى الكتاب الذى يمجد باروخ جولدشتاين مرتكب مذبحة الحرم الإبراهيمى بالخليل. وقد ساهم جيسنبرج بفصل فى هذا الكتاب حيث يقول فيه أن قتل اليهود لغير اليهود لا يعتبر جريمة تبعا للديانة اليهودية، وأن قتل العرب الأبرياء بغرض الانتقام يعتبر فضيلة يهودية. ولم يقم أى حاخام إسرائيلى مؤثر بالاعتراض على تصريحات جينسبرج علنا، والتزم معظم الساسة الإسرائيليين الصمت وقام بعضهم بتأييده علنا.

وقد حظى الطلب الحريدى بجعل الهالاخاه قانونا لدولة إسرائيل فى السنوات الحديثة بدعم متزايد من قبل الأعضاء الأكثر ورعا من الحزب الدينى القومى. وخصائص هذا الطلب نوجزها على النحو التالى:

■ إن السلطة السياسية لله يجب الاعتراف بها رسميا وقضائيا. والحاخامات المرسمون، الذين هم وكلاء الله، يجب أن يكونوا أصحاب القرار.

■ ويجب على الحاخامات أن يشرفوا على كل المؤسسات الاجتماعية وأن يفصلوا فى كل القضايا وأن يصدروا كل القرارات المتعلقة بالخدمات الاجتماعية وأن يراقبوا كل المواد المطبوعة والمسموعة والمرئية.

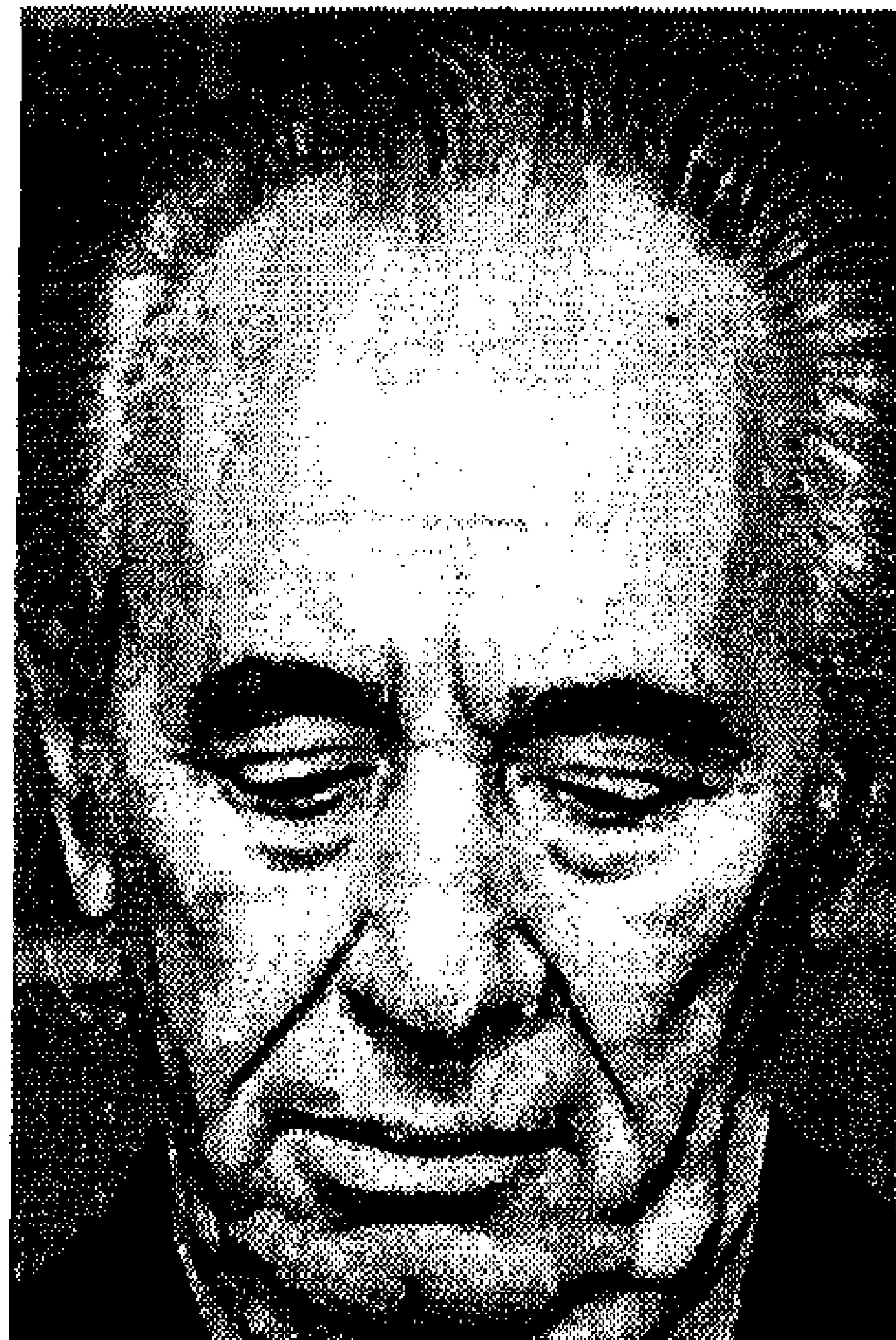
■ كل التكاليف الدينية الخاصة بيوم السبت والواجبات الدينية الأخرى والفصل بين النساء والرجال فى الأماكن العامة و«احتشام» المرأة فى سلوكها وملبسها يجب أن يطبق بواسطة القانون.

■ يجب على الأفراد أن يكونوا ملزمين تبعا للقانون بالإبلاغ عن كل الانتهاكات التى يلاحظونها إلى السلطات الحاخامية.

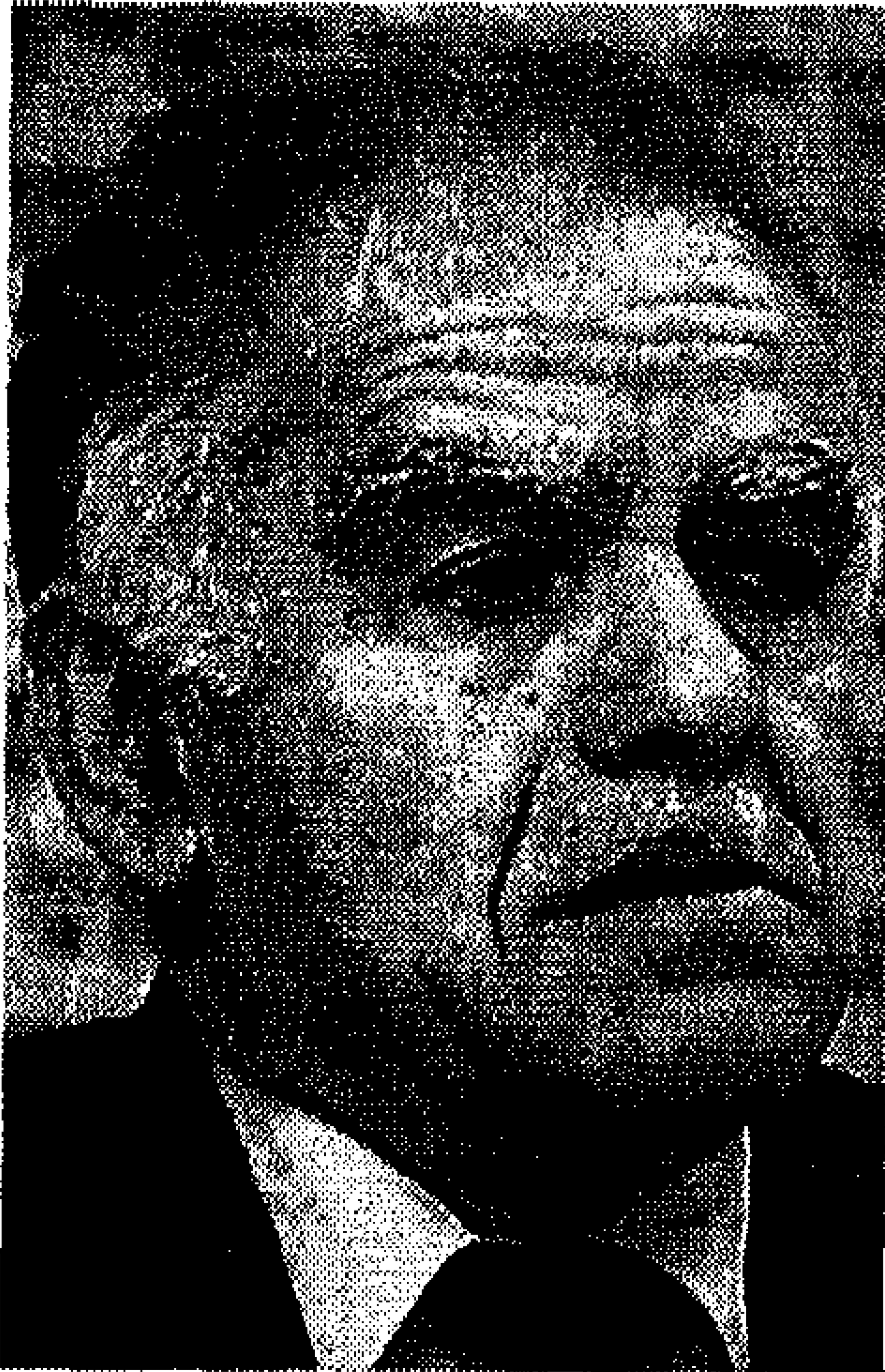
والطبيعة الثيوقراطية الاستبدادية للمطلب الحريدى بأن تكون الهالاخاه هى القانون المطبق الملزم لدولة إسرائيل واضحة.

3

المجموعتان الأساسيتان من الحريديم



■ شيمون بيريز



■ إسحاق شامير

إن الدراسة الموجزة للخلفية التاريخية يمكن أن تقدم لنا قاعدة لفهم الفروق بين المجموعتين الحريديتين الأساسيتين: الأشكناز والشرقيين، التى كان يطلق عليها فى السابق السفارديم، وخلال الجانب الأعظم من تاريخهما، كان يعيش اليهود متناثرين فى بلاد مختلفة ولاعجب أن ظهرت مجتمعات يهودية منفصلة، مؤلفة من مقيمين يهود فى بلد واحد أو من مجموعة بلدان مختلفة أو فى بعض الأحيان من أجزاء مختلفة من بلد واحد وبحلول عام ١٠٥٠ ميلادية، كان هناك مجتمع خاص على هيئة مركز يهودى، تم الاعتراف به كسلطة لها قوانينها الخاصة وتصدر تعليمات ملزمة لكل اليهود فى جميع أنحاء العالم. وآخر مركز من هذا النوع كان يتمثل فى المجتمع اليهودى بالعراق. وبعد انهيار المركز الأخير فى العراق، أصبحت الفروق بين المجتمعات اليهودية أكثر عمقا، والمجتمعات المختلفة، على سبيل المثال، على الرغم من مواظبتها واستخدامها بعض الصلوات القديمة الشائعة لدى كل اليهود، ألفت صلوات جديدة تستخدم فقط من خلالها.

وحتى ترتيل الصلوات فى المجتمعات المختلفة دخل عليه التغيير، كما أن القواعد الدينية للسلوك فى كل مجالات الحياة، والتى يلتزم بها اليهود الأتقياء، تغيرت أيضا إلى حد ما واختلفت من مجتمع لآخر.

أصبح المجتمع الأشكنازى الذى نشأ فى شمال فرنسا وغرب ألمانيا فيما بين القرنين العاشر والثانى عشر أكثر حداثة وبدأ فى الانحراف

عن الأنماط الراسخة السابقة أكثر من أى مجتمع آخر مع بعض الاستثناءات فى مجتمعات صغيرة فى بلاد بعيدة مثل جورجيا.

وأصبحت الانحرافات الأشكنازية أكثر تجسدا وأكثر رسوخا.

فحتى اليوم، على سبيل المثال، يرفض معظم اليهود الأشكناز الأتقياء تناول اللحم أو أى طعام يحتوى على اللحم إذا كان معدا تحت إشراف حاخامات غير أشكناز، أما الأعضاء الأتقياء للمجتمعات اليهودية الأخرى فإنهم يوافقون على إشراف حاخامات غير منتمين لجماعتهم على طعامهم. وعلى ذلك، فإن اليهودى السفاردى التقى، الذى يزور يهوديا أشكنازيا تقيا يأكل اللحم الذى يعده هذا الأخير، ولكن اليهودى الأشكنازى التقى الذى يزور يهوديا سفارديا تقيا يرفض تناول أى طعام يحتوى على أى لحم أو غالبا أى طعام أيا كان. ويتبدى انغلاق الأشكناز فى كثير من جوانب سلوكهم الدينى. وقام اليهود السفارديم، من ناحية أخرى، فى القرن الثانى عشر بتكوين مجتمعهم المغلق الخاص بهم، والذى اعتمد على اعتبار أنهم متفوقون على اليهود الآخرين من جوانب عديدة. فاليهود الإسبان والبرتغاليون، الذين يمثلون جزءا من اليهود السفارديم، كانوا يتيهون فخرا باعتبارهم «ذوى سلالة نقية» (وكلمة سفاردى بالعبرية معناها إسبانى). ولم يرفض معظمهم فقط الزواج من اليهود الأشكناز ولكنهم أيضا كانوا يشمئزون من التواجد معهم فى مكان واحد، وقام موسى ميمونيدس، الذى عاش حتى عام ١٢٠٤ وكان حاخاما وفيلسوفا يهوديا عظيما فى القرون الوسطى، بتوجيه النصح إلى ابنه فى خطاب وجهه إليه قائلا:

«أى بنى، طهر روحك بعدم النظر فى الكتب التى وضعها الحاخامات الأشكناز الذين يؤمنون بالله فقط عندما يأكلون اللحم المتبل بالخل والثوم. فهم يؤمنون بأن أبخرة الخل ورائحة الثوم عندما تتصاعد إلى أنوفهم تجعلهم يشعرون أن الله قريب منهم..

أى بنى، يجب أن تبقى فقط بصحبة أشقائنا السفارديم التى تدخل

السرور على النفس، والذين يطلق عليهم رجال أندلسية. (أو جنوب إسبانيا، التى حكمها المسلمون فيما بعد) لأنهم هم فقط الذين لديهم العقل الراجح والرؤية الثاقبة.

وهناك عبارات مماثلة، حيث يقوم أعضاء المجتمع اليهودى بالتعبير عن شعورهم بالتفوق على اليهود الآخرين، فى الكتابات اليهودية على نحو شائع. وحتى أواخر الستينيات كان الحاخامات السفارديم الطاعنون فى السن واليهود الآخرون فى القدس، حينما يوقعون بأسمائهم يضيفون حروفا عبرية تعنى «أسبانى نقى». ومع ذلك، أصبح الانغلاق الأشكنازى، مع نشوئه وتطوره عبر القرون أكثر تشددا وتطرفا من الانغلاق السفاردى.

وكان لهذا الانغلاق المتصاعد أسبابه الجغرافية والاجتماعية والسياسية. فقبل تكون المجتمع الأشكنازى، كان جميع اليهود يعيشون فى منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط أو فى بلدان، مثل العراق، متصلة بها بواسطة طرق التجارة. وفى القرن العاشر كان معظم دول البحر الأبيض المتوسط خاضعة إما للحكم الإسلامى أو الحكم البيزنطى.

وكانت الاتصالات بين هذه المنطقة وأوروبا الإقطاعية الناشئة واهية بدرجة كبيرة بسبب حواجز اللغة.

فكانت اليونانية والعربية يتم التحدث بهما فى جانب، حيث لم تكونا معروفتين فى المناطق المسيحية الغربية، بينما كانت اللاتينية غير معروفة إلى حد كبير فى الشرق.

وواجه اليهود، الذين كانوا غالبا يتحدثون لغة الناس الذين يعيشون بينهم، نفس عائق التواصل كما حدث للشعوب الأخرى.

وعلى ذلك، قام المجتمع الأشكنازى بصياغة نمط الحياة الخاص به دون معرفة أو إرشاد المجتمعات اليهودية الأقدم.

كما تطور نمط الحياة اليهودى الأشكنازى داخل سياق الإقطاع

الناشئ فى أوروبا، والذى اختلف فى كثير من جوانبه الجوهرية عن النظم الأخرى فى مناطق أخرى من العالم. ومن خلال الانتشار شرقا فى الدول الصاعدة فى وسط وشرق أوروبا، قام المجتمع الأشكنازى بترسيخ دعائمه وصياغة هويته وهو ما استمر حتى اليوم على نحو أكثر وضوحا عبر اليهود الأشكناز المتدينين وليس العلمانيين.

بعد أن طردوا من إسبانيا عام ١٤٩٢ ومن البرتغال عام ١٤٩٨، لم تستوطن اليهود السفارديم فقط مجتمعات يهودية أخرى ولكنهم أيضا أحدثوا بها تحولا. وفى هذه المجتمعات كان المهاجرون السفارديم الجدد يميلون إلى العزلة والنأى عن اليهود الآخرين، ولأنهم جاءوا من مجتمع إسبانيا الأكثر تطورا ونهضة وأقاموا فى بلدان أقل نموا، فإنهم سرعان ما أصبحوا الأكثر ثراءً والأرفع ثقافة والأوسع اتصالا من الناحية السياسية بدول البحر المتوسط. فاليهود السفارديم الذين استقروا فى سالونيك (التى هى الآن جزء من اليونان ولكنها كانت فى ذلك الوقت تابعة للإمبراطورية العثمانية) حصلوا على امتيازات من السلطان العثمانى، لأنهم كانوا يصنعون أفضل الملابس ويقدمون الأقمشة من أجل صناعة أزياء الوحدات الخاصة للجيش العثمانى.

وقد احتفظ يهود سالونيك السفارديم بهذا الاحتكار لمدة ١٣٠ عاما، وفقدوه فقط حينما تم استيراد أقمشة أكثر حداثة من انجلترا وهولندا.

وقام اليهود الإسبان وبعض اليهود الإيطاليين بمعظم الأعمال الإبداعية فى مجالات الحضارة اليهودية فى القرون الوسطى. وبسبب ثرائهم وثقافتهم، فرض اليهود السفارديم عاداتهم ولغتهم واسمهم على المجتمعات اليهودية فى كل البلاد التى هاجروا إليها. وأحد الأمثلة الدالة على ذلك تتمثل فيما حدث فى المجتمعات اليهودية فى منطقة البلقان التى تسمى الآن تركيا. وأطلق اليهود المقيمون فى هذه المجتمعات على أنفسهم اسم «الرومانيول» وهو اسم مأخوذ من الاسم الشائع للإمبراطورية البيزنطية «رومانيا».

وكانوا يتحدثون اللغة اليونانية حتى عام ١٥٥٠ عندما بدأوا - من

خلال تأثرهم بالهجرة السفاردية - تسمية أنفسهم بالسفارديم وتحدث لغة «اللادينو» وهى شكل قديم من أشكال اللغة الإسبانية. والواقع أنه لم تكن هناك أية مجتمعات سفاردية أخرى باستثناء تلك المؤلفة من مهاجرين من شبه الجزيرة الأيبرية أو المنحدرين من نسلهم أو أولئك الذين ذابوا داخل المجتمعات السفاردية. وكان الرحالة الأوروبيون وبعض اليهود الأشكناز يشيرون ومازالوا يشيرون، خطأ إلى كل اليهود غير الأشكناز بأنهم سفارديم. هذا لأن اليهود السفارديم الحقيقيين كانت لهم هيمنة دائمة على المجتمعات اليهودية الأخرى. والكثير من أعضاء المجتمعات اليهودية غير السفارديم وغير الأشكناز عرفوا أنفسهم على نحو صحيح بأنهم ليسوا فقط يهودا ولكن عراقيين أو مغاربة أو إيطاليين أو أية جنسية أخرى.

حتى نهاية القرن السابع عشر، كان اليهود الأشكناز يمثلون أقلية ضئيلة فى المجتمع اليهودى. وتجاوز تقدمهم الحضارى المجتمعات اليهودية الأخرى وخاصة السفارديم والإيطاليين.

ومنذ القرن الثامن عشر، تدهور مستوى سكان بلاد البحر الأبيض المتوسط، وخاصة فى البلاد التابعة للإمبراطورية العثمانية، اقتصاديا وديموجرافيا. وأدى ذلك إلى تأثر المجتمعات اليهودية القاطنة فى هذه البلدان. وفيما بين عامى ١٧٠٠ و١٨٥٠، تضاءل عدد اليهود فى هذه البلدان بشكل حاد وأصبحوا فى حالة مزرية. والزيادة المتواضعة فى عدد اليهود فيما بين عامى ١٨٥٠ و١٩١٤ لم تعوض هذا التناقص بدرجة كافية. ومنذ بداية القرن الثامن عشر كان للتقدم السياسى والتكنولوجى فى أوروبا أثره على المجتمع الأشكنازى. وابتداء من منتصف القرن الثامن عشر بدأ المجتمع الأشكنازى فى النمو السريع وبحلول عام ١٨٠٠ أصبح اليهود الأشكناز يشكلون أغلبية بالنسبة ليهود العالم. وهذه الزيادة والنسبة المئوية المهيمنة تصاعدت فى القرن التاسع عشر.

فاليهود الذين كانوا يقطنون الجزء الأوروبى من الإمبراطورية

الروسية، والذين كانوا جميعا من الأشكناز على وجه التقريب، تضاعف عددهم سبع مرات فيما بين عامى ١٧٩٥ و١٩١٤، وقام اليهود الأشكناز باستقدام العديد من البدع إلى الديانة اليهودية، والتى تتميز بعضها بالطابع العلمانى.

وبحلول النصف الأول من القرن العشرين، تفوق اليهود الأشكناز على الأقلية الضئيلة من غير الأشكناز فى كل شىء بما فى ذلك حتى الدراسات التلمودية.

والانشقاق الحالى بين اليهود المتدينين الأشكناز وغير الأشكناز ينبثق من أنه خلال القرنين الماضيين، وعلى نحو يتناقض مع ما كان يحدث فى السابق، أصبح كل الحاخامات المميزين تقريبا من الأشكناز. وفى المجتمعات غير الأشكنازية خلال تلك الفترة تناقصت إلى حد مرعب قيمة الدراسات التلمودية والكتب المنشورة وحتى الكتب المعاد طبعها.

وحتى عام ١٩٤٨، كانت الصهيونية وهجرة اليهود إلى فلسطين بدعا أشكنازية. ونظر معظم اليهود المتدينين إلى الصهيونية باعتبارها مناقضة لليهودية وبذلك فإن اليهود المارقين من ماضيهم الدينى هم فقط الذين يمكنهم أن يصبحوا صهاينة. ومع ذلك فإن القليل من اليهود الأشكناز هاجروا إلى فلسطين بسبب المعتقدات الصهيونية. والغالبية العظمى من المهاجرين هاجروا فقط لأن حياتهم فى البلدان التى كانوا يقيمون بها أصبحت لاتحتمل. وكانت الغالبية العظمى من اليهود المهاجرين إلى إسرائيل فى عام ١٩٤٨ تتكون من أولئك الذين هاجروا إلى فلسطين بعد تصاعد الاتجاه المعادى للسامية فى أوروبا بعد عام ١٩٣٢ وخاصة بعد تولى هتلر للسلطة فى ألمانيا. وكان عدد اليهود غير الأشكناز فى إسرائيل فى وقت قيام الدولة صغيرا نسبيا. .

وبالنسبة لمعظم اليهود فى المجتمعات غير الأشكنازية كان النفوذ الدينى، وخاصة الاتجاه المسيانى، لايزال قويا فى الخمسينيات وأوائل الستينيات. وكان مستوى المعيشة فى إسرائيل فى الخمسينيات، على الرغم من أنه أقل من المستوى الأوروبى، أعلى بكثير من ذلك

الخاص بمعظم الدول العربية فى الشرق الأوسط. وعلى ذلك كان فى استطاعة الحكومة الإسرائيلية، أن تقنع بسهولة يهود الكثير من البلاد مثل المغرب واليمن وبلغاريا بالهجرة إلى إسرائيل. كما شجعت الحكومة الإسرائيلية الهجرة اليهودية من العراق من خلال رشوة الحكومة العراقية لتجريد معظم اليهود العراقيين من جنسيتهم ومصادرة ممتلكاتهم. وعلى العكس، هاجر القليل من اليهود إلى إسرائيل من بلدان البحر الأبيض المتوسط الأكثر تقدما مثل اليونان ومصر.

أصبحت الغالبية العظمى من اليهود الإسرائيليين من غير الأشكناز.

وأثناء الفترة من ١٩٤٩ إلى ١٩٦٥، تناقص عدد اليهود الأشكناز فى إسرائيل إلى أقلية شكلت ما يقرب من ٤٠٪ من عدد سكان إسرائيل. ولكن الهجرة الضخمة لليهود من الاتحاد السوفيتى السابق أدت إلى زيادة عدد الأشكناز إلى حوالى ٥٥٪ من عدد السكان. ولأنهم جاءوا من بلدان أكثر تقدما، فإن الغالبية العظمى من اليهود الأشكناز كانوا ذوى مظهر معاصر واتجاه علمانى.

ظل اليهود غير الأشكناز، الذين أصبح يشار إليهم على نحو متزايد باسم «الشرقيين» بدلا من «السفارديم»، متدينين إلى حد كبير. وإبان وصولهم إلى إسرائيل خضع الكثير من اليهود الشرقيين وأطفالهم لعملية تشكيل اجتماعى ثقافى يقودها المواطنون الأشكناز المحنكون ويدافع عنها أعضاء حزب العمل الصهيونى الذى كان فى السلطة. وهذا التشكيل الاجتماعى اشتمل على جانب كبير من التحديث القهرى، ومحاولات زرع النزعة العلمانية لدى الصغار. واختلطت نتائج هذا القهر خلال الجانب الأعظم من أول عقدين لوجود دولة إسرائيل. وظلت الغالبية العظمى من اليهود الشرقيين تقليدية، أى غير عالمة بالتعاليم اليهودية الدقيقة مثل تحريم السفر يوم السبت ولكنها اتبعت التعاليم الأخرى وخاصة تلك التى تتعلق بحضور الاجتماعات الدينية. والأمر الأكثر أهمية هو أن ذلك كان يعنى أن أولئك اليهود ظلوا يؤمنون بالقوى السحرية للحاخامات و«الرجال المقدسين».

وحتى اليوم، يجرؤ القليل من الساسة الشرقيين على نقد الحاخامات علنا، حتى ولو عارضوهم أو لعنوهم. أما اليهود الأشكناز من كل الاتجاهات السياسية فإنهم على النقيض يقومون بتوجيه النقد للحاخامات بحرية تامة - ومعظم الساسة الأشكناز يحتقرون أى تزلف إلى الحاخامات. وكل الساسة الشرقيين تقريبا، بما فى ذلك «الفهود السود» فى أوائل السبعينيات وأعضاء حركات السلام الشرقية، يقومون بالانحناء للحاخامات وتقبيل أياديهم علنا.

وقام عدد قليل من اليهود الأشكناز المتدينين وخاصة القطاع الحريدى منهم، بمقاومة التشكيل العلمانى لليهود الشرقيين. كما نجحوا إلى حد ما، وخاصة فى إقناع أقلية منهم بالحفاظ على الاتباع الصارم لتعاليم اليهودية. كما قاموا أيضا بإنشاء مدارس دينية منفصلة وييشيفوت للشرقيين كما سمحوا بأن يكون لدى بعض الشباب الشرقيين الأكثر تأهيلا مدارسهم الخاصة بما فى ذلك الييشيفوت، على الرغم من أن ذلك قد حدث بأعداد صغيرة وتحت رقابة مشددة.

وبعد مرور الوقت، ظهرت مجموعة مختارة شرقية حريدية من الحاخامات ودارسى التلمود، ودون استثناء تقريبا، قام الحاخامات الأشكناز بتدريب أعضاء هذه المجموعة المنتقاة.

ومع بداية التسعينيات تفجر الخلاف بين النسخة الحريدية من الانغلاق الأشكنازى والتقليدية الشرقية، والذى كان دوما قابلا للاشتعال. فقد أصرت الحركة الأشكنازية الحريدية على التجميد الكامل للموقف الذى وجد فى وسط وشرق أوروبا حوالى عام ١٨٦٠.

وأرغم اليهود الشرقيون، الذين تدربوا على أيدى اليهود الأشكناز الحريديم، على التخلى عن زيهم التقليدى، وارتداء الملابس الأشكنازية السوداء، وتعلم وتحدث اللغة اليديشية. وكانت اللغة اليديشية هى لغة التعليم الشفهى للييشيفوت الحريدية، أما اللغة العبرية فكانت لغة الكتابة. كما أرغم اليهود التقليديون الشرقيون أيضا على تبنى الطريقة

الأشكنازية في الصلاة والتي اختلفت عن طريقتهم السابقة من عدة نواح. وقام الحاخامات المبجلون، الذين يمتلكون السلطة المطلقة ولايواجهون أية معارضة، بفرض هذه التغييرات المتطرفة. على العكس أدت المحاولات المتعددة لحركة العمل لفرض قيود التحديث على اليهود الشرقيين في الخمسينيات إلى اشتعال المعارضة بين الجماهير الشرقية التي كانت تنتقد الساسة ولكنها كانت من الصعب أن تنتقد الحاخامات.

بعد سنوات من الانقياد التام لمطالب الحاخامات والخضوع لهم، لم يمنح الطلاب الشرقيون في اليشيفوت الحريدية الأشكنازية منزلة مكافئة لتلك الخاصة بزملائهم وحاخاماتهم. وقد استمروا في قبول هذه المعاملة المتدنية ويبدون حتى اليوم راضين بها، وأحد الأمثلة المعبرة عن ذلك يتمثل في عدم المساواة في الزواج مع زملائهم الإشكناز. فكل المجتمعات اليهودية تشترك في العرف السائد المتمثل في أن يقوم رئيس (أو ناظر) الياشيفاه بترتيب كل زيجات طلاب المدرسة. فيقوم بانتقاء فتيات اليهود الأثرياء والأتقياء كزوجات للطلاب. والطلاب الأفضل يتم تزويجهم من بنات عائلات أكثر ثراء. (كما يقوم أيضا ناظر الياشيفاه باختيار بنات الحاخامات لأبناء الأسر الثرية).

ويقوم طلاب الياشيفاه بالخضوع لهذا الاختيار دون أي تردد، لأن الاعتراض كان ولايزال إثما مبينا. وقد تم اللجوء إلى هذه الطريقة لكي يحظى طلاب الياشيفاه الذين ليست لديهم مهارات رائجة وكذلك عائلاتهم بالدعم وبذلك يستطيع الطلاب مواصلة دراساتهم المقدسة وتستطيع العائلة القائمة بالدعم، دخول الجنة. وفي وقت أحدث، كان نظار الياشيفاه عندما يعجزون عن العثور على آباء زوجات أثرياء، ينتقون فتيات تم تدريبهن على مهن ملاءمة للمرأة الحريدية ولديهن الرغبة في مساندة الأزواج المختارين لهن والمنخرطين في «دراسات مقدسة». (ومن المفترض أن يؤدي ذلك إلى دخولهن الجنة). ومن

خلال هذا الحق فى الاختيار، كان نظار الياشيفاه قادرين غالبا على التحكم فى حياة ومعيشة طلاب الياشيفاه وعائلاتهم.

ولم يقم اليهود الحريديم الأشكناز أبدا بشكل رسمى بتحريم الزواج من اليهود المتقين من المجتمعات الأخرى.

ومع ذلك فإن هذه الزيجات كانت ولاتزال تعتبر عارا. وبسبب ذلك، قام نظار المدارس الحريدية الأشكنازية بتبنى العادة المتمثلة فى تزويج الطلاب الشرقيين المتميزين فى دراستهم لعرائس أشكناز معوقات بدنيا أو من عائلات فقيرة.

ولاعجب أن هناك قانونا غير مكتوب ينص على عدم تعيين الطلاب الشرقيين، مهما كانوا متميزين، لأى منصب تدريس حتى فى أدنى مستويات اليشيفوت، التى يحضرها فقط الطلاب الشرقيون. وهذه الوظائف التدريسية يتم الاحتفاظ بها للحاخامات الاشكناز، على أساس أن اليهود الشرقيين لم ينضجوا على النحو الذى يسمح لهم بتحمل تبعة المناصب الدينية. وحينما قام الحاخام شاخ، وهو أحد أبرز زعماء الحريديم، بتكرار هذا الزعم قبل انتخابات ١٩٩٢، فإنه اتهم بالعنصرية من قبل الكثير من اليهود الاشكناز العلمانيين، ولم ينبس الحاخامات الشرقيون ولا النشطاء السياسيون الشرقيون ببنت شفة من النقد العلنى.

لم تكن هناك أية مبادرة شرقية مسئولة عن خلق الحزب السياسى الحريدى شاس. فقد قام الحاخام شاخ بتكوين حزب شاس قبل انتخابات ١٩٨٨، وذلك لأنه كان يحتاج فى صراعه مع الحاخامات الحريديم الأشكناز البارزين الآخرين إلى أعضاء فى الكنيست يخضعون له فقط. ولذلك أصدر أوامره للحاخامات الذين كانوا يدرسون على يديه فى السابق ومازالوا يدينون له بالولاء بتكوين حزبين سياسيين حريديين منفصلين جديدين: حزب ديجل هاتوراه (أى علم التوراة) كحزب أشكنازى صرف وحزب شاس (وهى الأحرف الأولى من القائمة

السفاردية للتقليد) كحزب شرقى بحت. وبعد تكون الحزبين، اعتبر زعماء الحزبين الحاخام شاخ أعلى سلطة روحية لهم وأقسموا على طاعته طاعة عمياء. ومن أجل جعل حزب شاس جذابا أيضا لليهود غير الشرقيين، قام شاخ بمنع أحد الحاخامات الحريديم غير الشرقيين الذين يمكنه الاعتماد عليهم - وهو الحاخام عوفيديا يوسف، رئيس حاخامات إسرائيل السابق - من العمل كرئيس شرفى للحزب. فالحاخام شاخ، بالطبع يحتفظ فى يده بتلك السلطة. وبالنسبة لشاخ فإن أكبر ميزة لدى يوسف، بعد أن أخفق فى الفوز بإعادة انتخابه كرئيس للحاخامات نتيجة رفض الحزب الدينى القومى ممارسة نفوذه لصالحه، هى مقته الشديد للحزب الدينى القومى كما هو حال الحاخام شاخ.

وكما هو معروف جيدا فى إسرائيل، فإن الكراهية والبغضاء بين اليهود العلمانيين لاتصل فى شدتها واشتعالها إلى تلك الكراهية المتبادلة بين الجماعات المختلفة من اليهود المتدينين، خاصة فى الشجارات بين الحاخامات الذين يمثلون هذه الجماعات. وكان لدى شاخ سبب جيد لكى يتوقع أنه بسبب رغبته فى الانتقام من حاخامات الحزب الدينى القومى، سوف يظل يوسف مواليا له وراضيا عن دوره التابع.

بدا لوهلة من الزمن أن كل شىء يمضى حسبما خطط له شاخ. وقد حصل الحزبان، اللذان يسيطر عليهما شاخ، على ثمانية مقاعد فى الكنيست فى انتخابات عام ١٩٨٨، فحصل ديجل هاتوراه على مقعدين، وحصل شاس على ستة مقاعد. وحصل الحزب الحريدى أجودات إسرائيل، الذى قام الحاخام شاخ بتكوين أحزابه ضده، على خمسة مقاعد. وفضل حزبا ديجل هاتوراه وشاس حكومة تابعة لليكود، وبعد انتخابات ١٩٨٨ أيد إسحاق شامير كرئيس للوزراء، وكان تأييدهما حاسما. وبعد عام ١٩٩٠ لم يعد لدى شامير أغلبية بدون تأييدهما. وقد فشلت محاولات زعيم حزب العمل شيمون بيريز،

فى تغيير هذا الموقف. كما قضى بيريز شهورا يحضر دروس التلمود والتى كان يعطيه إياها الحاخام يوسف فى منزله.

وحاول بيريز دون أن يدركه النجاح فى أن يستقبله لحاخام شاخ، حيث قام باستقبال العديد من الساسة العلمانيين ضئيلى الشأن ولكنه لم يستقبل بيريز، وقام بيريز بإصدار العديد من البيانات لعامة عن مدى عميق احترامه لليهودية عموما وللحاخامات الحريديم على وجه الخصوص. وباءت كل محاولات بيريز بالفشل.

ولم يتزحزح شاخ ومنافسوه من حاخامات الحريديم قيد أنملة فى تأييدهم لشامير. وكان انتصار إسحاق رابين على بيريز فى انتخابات رئاسة الوزراء عام ١٩٩٢ يرجع بدرجة كبيرة إلى منزتيهما فى حزب العمل وفشل محاولات بيريز فى نيل الحظوة لدى اليهود الحريديم وكسب تأييدهم. وعلى الرغم من هذه التجربة، كرر بيريز نفس المحاولات التى أدت إلى نفس النتائج فى انتخابات ١٩٩٦.

حصلت الأحزاب الحريدية على النفوذ السياسى بعد عام ١٩٨٨، وخاصة فى الفترة ١٩٨٨ -١٩٩٠، وقام بيريز الذى كان لايزال فى السلطة بعد عام ١٩٨٨، بتأييد مطالبها، أما شامير فإنه كان أكثر تأييدا لها.

والنجاح السياسى الحريدى يمكن أن يقاس بشكل أفضل من خلال المبالغ المالية التى كان الحزبان الحريديان يستطيعان الحصول عليها من الدولة من خلال ما يسمى منح «الأموال الخاصة»، التى لاتخضع للإشراف المالى للدولة. وهذه المنح كانت تجمع من خلال اتحاد تطوعى، تم تشكيله لكى تظل تحت الإشراف الفعلى لأحد أعضاء الكنيست من الحريديم أو أصدقائه.

وقام وزير المالية بتقديم منح مالية من ميزانية الدولة لهذه الاتحادات التطوعية على أسس مهترئة ودون وجود رقابة على هذا الإنفاق. وكان الفساد الناتج عن ذلك هائلا، ووصل إلى مستوى ليس له مثيل فى

تـاريـخ دولـة إسرائيل، وأدى فـى الـنـهـايـة إلى سـحب منـح الأمـوال الخـاصة.

إن الفساد الواسع الذى أحاط بالحصول على هذه الأموال لايعنى بالضرورة أنها كانت تستخدم على نحو غير مشروع.

وقد أنفق حزب شاس معظم هذه الأموال فى إقامة شبكة من المؤسسات المصممة لممارسة نفوذ دائم وتدريب جماعات مسلحة يمكنها أن تمكن الحزب فى المستقبل من توسيع سيطرته على الجمهور. وهذه الشبكة تكونت من سلسلة من المؤسسات التعليمية المصممة لإحياء التعليم اليهودى التقليدى للفتيان مع الاقتصار على المواد المقدسة وعدم تدريس المواد العلمانية. (أغفل حزب شاس على نحو واسع تعليم الفتيات). كما تم تشجيع الذكور الكبار الذين تتراوح أعمارهم بين ٤٠ و٥٠ عاما على ترك مهنهم أو هجرة أعمالهم من أجل الانتظام فى هذه المؤسسات ودراسة المواد المقدسة مع دفع مقابل مادى مضمون. وهذا التعويض المالى، الذى هو عبارة عن رواتب للدراسة، كان منخفضا ولكن الكثير من الأشخاص اعتبروا حياة الدراسة مفضلة على القيام بعمل حقير أو الاحتفاظ بمشروع فاشل. وقام المتطوعون بما هو أكثر من دراسة التلمود. فقد طلب منهم القيام بأعمال سياسية من أجل شاس. وسرعان ما شكل هؤلاء المتطوعون كادرا سياسيا لشاس الذى كان ولايزال أداة فاعلة فى تحويل الأحياء الحريدية إلى أنصار انتخابيين تحت أى ظرف.

أدرك المعلقون السياسيون الإسرائيليون العالمون ببواطن الأمور الأثر السياسى والعام لهذا النشاط السياسى الحريدى. وفى مقاله بتاريخ ٢٦ يونيو ١٩٩٢ فى جريدة «الهاميشمار»، قام البرفيسور جدعون دورون، كبير مستشارى رابين للاستراتيجية خلال انتخابات ١٩٩٢، بعد انتصار رابين، بشرح أسباب إحجام حزب العمل عن الطواف فى الأحياء التى يهيمن عليها شاس طلبا للأصوات الانتخابية:

«هذا حزب يجعل جمهوره تحت سيطرته المستمرة أثناء الانتخابات

وفى أوقات أخرى. فوسيلة شاس تتمثل فى تحويل المحصلة الانتخابية إلى مصادر لضخ الأموال وإنفاق المال الذى تم الحصول عليه أثناء السنوات الأربع.. (بين انتخاب وآخر). وهذه الطريقة تكلل بالنجاح. وصحيح إنهم يستخدمون أيضا التمائم والتعويذات والعهود التى تؤثر فى جمهورهم بدرجة كبيرة. إلا أن دورها ثانوى».

وتبعا لدورون، فإن أفضل وسيلة للتقرب من جمهور شاس الانتخابى تتمثل فى القيام بذلك من خلال الصفوة التى تتقاضى أجرا والتى يتمثل دورها فى الحفاظ على جمهور الناخبين تحت السيطرة. كما أشار دورون إلى أنه، باستثناء تلك الصفوة السابق الإشارة إليها، فإن أتباع شاس هم «قطاع تقليدى شرقى من مؤيدى الليكود». ومن خلال اكتساب النفوذ السياسى، اكتسب زعماء شاس، وخاصة الحاخام يوسف، ثقة بالنفس وبدأوا فى السعى نحو الخلاص من وصاية الحاخامات الحريديم الإشكناز. وفى كل حى يهيمن عليه شاس، نودى بأن الحاخام يوسف وليس الحاخام شاخ هو الأعظم فى أركان البسيطة الأربعة، وبعد سنوات قليلة من المداهنة المستمرة للجماهير، أصبح الحاخام يوسف مؤمنا بما لايدع مجالا للشك بأنه لم يعد فى حاجة إلى الخضوع للحاخام شاخ.

حدث الانشقاق بين شاس والحاخام شاخ بعد انتخابات ١٩٩٢ وكان منشأه شيئا تافها.

فقد حدث فى الواقع بسبب المزاعم المتصارعة لكل من شاخ ويوسف، حيث يدعى كل منهما بأنه الزعيم الروحى لشاس.

وقام رابين، حينما شكل ائتلافه، بقبول مطالب شاس.

وقبل توقيع الاتفاق، طلب شاس موافقة الحاخام شاخ. ورفض شاخ بسبب أن شولاميت آلونى كانت مرشحة لمنصب وزيرة التعليم. وأعلنت صحيفة ياتيد نعمان، أن هذا الترشيح أسوأ من قتل مليون طفل خلال الهولوكوست. والمنطق المستخدم فى ذلك يقول أن النازيين قتلوا الأطفال ولكنهم لم يمنعوا أرواحهم من دخول الجنة، بينما تعيين آلونى

يمكن أن يخرب الأرواح اليهودية ويحرمها من دخول الجنة، ومع ذلك قرر الحاخام يوسف وحزب شاس المخاطرة بأرواح الأطفال اليهود وانضموا لحكومة رابين. وقد كان رد فعل الحاخام شاخ وتابعيه سلبيا ومشتعل الغضب واستمر كذلك.

تأجج الصراع بين الحركتين الحريديتين في المنطقة السحرية الخاصة بالنزاع على السلطة الروحية. وعلى نحو يتوافق مع المعتقدات الحريدية السحرية التي يؤمن بها على نطاق واسع، فإن الإثم المبين الذي ارتكبه زعماء شاس من خلال الاعتراض على مشيئة الحاخام شاخ يمكن أن يعاقبوا عليه من خلال بعض اللعنات التي تؤدي إلى موت أو مرض هؤلاء الزعماء أو عائلاتهم. وهذا ما يؤدي إلى استعادة عدالة السماء.

ومن أجل المساعدة على تحقيق هذه النتيجة السحرية، لجأ مؤيدو الحاخام شاخ إلى وسيلة تم استخدامها من قبل في مواقف مشابهة، فقاموا بنشر إعلانات كاذبة عن موت ومرض وحوادث مرور لزعماء شاس، وبعد ذلك قاموا بإخطار عائلاتهم تليفونيا أو أرسلوا سيارات الإسعاف إلى منازلهم، وكما سبقت الإشارة إلى ذلك، فإن العداء اللدود بين اليهود المتدينين وخاصة الحاخامات الحريديم بالغ الاشتعال.

وأدى وجود هذا العداء المشتعل إلى التفرق داخل صفوف الحريديم مما أدى إلى الحد من نفوذهم السياسي. ووسائل القتال الضاري كانت معروفة داخل الثقافة الحريدية وكان تأثيرها ضئيلا للغاية بالنسبة لأتباع الحاخام شاخ. علاوة على ذلك، فإن شاس من جانبه كان لديه حاخام ذو سلطة عظيمة وصانع شهير للمعجزات وهو الحاخام قدوري، الذي أعلن أنه سوف يحمي كل زعماء شاس من خلال تعويذات القابالاه. وزعم الحاخام قدوري أيضا أن الله كشف له أن تطاول اليهود الحريديم الآخرين سوف يرفع زعماء شاس إلى أعظم المراتب اليهودية ألا وهي تقديس اسم الله عبر الشهادة.

وخلال النزاع على السلطات الروحية، تفجر الخلاف حول ما إذا كانت المنزلة الروحية للحاخام يوسف عظيمة بما يكفى لكى يتحدى السلطة الدينية للحاخام شاخ، وخاصة فى ضوء الولاء السابق له. وبعد الكثير من الجدل، قرر كل حاخامات شاس اتباع الحاخام يوسف.

وبدأ حاخامات شاس اتباع الحاخام يوسف باعتباره - من وجهة نظرهم - «أعظم حاخامات عصره»، وأعظم حتى من أى حاخام إشكنازى. وهذا الشرف كان ينسب فى الماضى إلى الحاخام شاخ. وحصل شاس على الاستقلال. وعلى ذلك فإن اليهود الحريديم الإشكناز لم يستطيعوا هزيمة شاس ولكنهم قطعوا معه كل الصلات. ولم ينأ أى حاخام إشكنازى بنفسه عن تصريحات شاخ، ولكن أضاف بعضهم مزيدا من الغل. وقام زعيم أكبر طائفة حسيدية، جور حسيدس، بتكرار وجهة نظره السابقة بأن إسرائيل خسرت حرب يوم كيبور (أكتوبر ١٩٧٣) لأن من كان يشغل منصب رئيس الوزراء امرأة (جولدا مائير). وانطوى تصريحه على أن إسرائيل سوف تخسر حربها القادمة بسبب شولاميت آلونى. واستخدم الحاخامات الإشكناز وأتباعهم ما هو أكثر من مجرد اللعنات والتصريحات. فقاموا بتدنيس أماكن عبادة شاس، قبل بداية السبت مباشرة، مما جعل من الصعب تنظيمها دون انتهاك حرمة السبت. والعديد من زعماء شاس، الذين درسوا فى المؤسسات الإشكنازية والذين واصلوا الصلاة فى الاجتماعات الدينية الإشكنازية، تم التحرش بهم أو ضربهم أثناء تلاوة صلواتهم.

وقد تم صفع أحد حاخامات شاس وضربه وهو الحاخام بنحاس، فى أحد الاجتماعات الدينية الإشكنازية فى مدينة حريدية وهى «بنى براك» أثناء جلسة للصلاة يوم السبت. وبعد ذلك أسيئت معاملة بعض أطفال زعماء شاس بشكل رهيب، وبعد ذلك، اضطر وزير الداخلية إسحاق درعى لنقل أطفاله من إحدى المدارس الدينية الإشكنازية بعد أن أهينوا على الملأ، وكان درعى يتم التحرش به دائما، وغالبا عندما

يحاول الصلاة فى المعبد، من خلال أتباع شاخ والمستوطنين المتدينين. وقام حزب شاس بالرد على ذلك، وفى العديد من المناسبات قاموا بضرب من تحرشوا بدرعى، كما قاموا أيضا بتدنيس المعابد الإشكنازية. وأدى انتقام شاس إلى خدمة قضية خصومهم من خلال تصعيد الصراع.

يمثل الانشقاق والصراع داخل صفوف الحريديم التحول الدينى لليهود الشرقيين. ولمدة مايزيد على عقدين من الزمان تم تأسيس الكثير من الجماعات الشرقية العلمانية، والتى فشلت فى الحصول على مساندة السكان الذين زعمت أنها تمثلهم، ونتيجة لذلك انهارت على نحو شائن. ويمكن إرجاع هذا الفشل إلى رفضها التام إدراك أن المجتمعات اليهودية الشرقية تعرف نفسها عبر مصطلحات دينية. ومن المتوقع فى المستقبل القريب أن يظل حزب شاس الحريدى الحزب السياسى الشرقى الوحيد فى إسرائيل، وهذه الدراسة يمكن أن تساهم فى التعرف على طبيعة التحول الدينى لسكان لم يتم تحديثهم بالكامل.

4

الحزب الدينى القومى والمستوطنون المتدينون



■ آريل شارون



■ موشى ديان

إن أيديولوجية الحزب الدينى القومى وجوش أمونيم، وهى جماعة من المستوطنين المتدينين فى الأراضي الفلسطينية المحتلة بواسطة إسرائيل منذ عام ١٩٦٧، هى أيديولوجية أكثر حداثة من أيديولوجية اليهود الحريديم. فقد قام الحاخام إبراهام إسحاق كوك، الذى كان رئيس الحاخامات فى فلسطين وأبرز الحاخامات المؤيدين للصهيونية، بابتكار هذه الأيديولوجية فى أوائل العشرينيات وقام بتطويرها بعد ذلك، وكان الحاخام الأكبر كوك، كما كانوا يطلقون عليه، مؤلفا غزير الإنتاج، واعتبره أتباعه ملهما من قبل الله. وبعد وفاته فى عام ١٩٣٥ وصل إلى مرتبة القديس فى أوساط الحزب الدينى القومى، كما وصل أيضا ابنه وخليفته فى زعامة الحزب، الحاخام تسفى يهودا كوك الأصغر، الذي توفى عام ١٩٨١ عن عمر بلغ ٩١ عاما، إلى منزلة القداسة، ولم يكتب الحاخام كوك الأصغر أية كتب ولم يحقق الكفاءة التلمودية التى حققها والده، ولكنه كان يمتلك شخصية كاريزمية قوية ومارس نفوذا عظيما على طلابه، كما قام بالشرح التفصيلى للعواقب السياسية والاجتماعية لتعاليم والده. وقام الحاخامات الذين تخرجوا من مدرسته الدينية فى القدس «مركز هاراف» أو مركز الحاخامات وظلوا مخلصين لتعاليمه، بتأسيس طائفة يهودية ذات مخطط سياسى محدد. وفى أوائل عام ١٩٧٤، وفور صدمة حرب أكتوبر ١٩٧٣ وقبل وقت قليل من توقيع اتفاقية وقف إطلاق النار مع سوريا، قام

أتباع الحاخام كوك مع مباركة وإرشاد زعيمهم الروحي بتأسيس جماعة جوش أمونيم (كتلة المؤمنين). وكانت أهداف جوش أمونيم تتمثل في بناء مستوطنات جديدة والتوسع فيما هو موجود من المستوطنات اليهودية في الأراضي المحتلة. وبمساعدة شيمون بيريز، الذي أصبح في صيف ١٩٧٤ وزيرا للدفاع والشخص المسئول عن الأ راضي المحتلة، نجحت جوش أمونيم في وقت قصير بلغ بضع سنوات في تغيير سياسة الاستيطان الإسرائيلية، والمستوطنات اليهودية، التي تواصل الانتشار عبر الضفة الغربية واحتلال جانب كبير من قطاع غزة، تقدم شهادة حية ودليلا بينا على نفوذ جوش أمونيم داخل المجتمع الإسرائيلي وعلى السياسات الحكومية الإسرائيلية.

إن نجاح جوش أمونيم في تغيير سياسة الاستيطان الإسرائيلية في السبعينيات يمكن تفسيره سياسيا، وقد حدد موشيه ديان وزير الدفاع - في ذلك الوقت - سياسة الاستيطان الإسرائيلية منذ نهاية حرب ١٩٦٧، وحتى عام ١٩٧٤، فلم يسمح بإقامة مستوطنات يهودية في الجانب الأعظم من الأراضي المحتلة، والاستثناء الوحيد الذي قدمه هو سماحه لجماعة صغيرة من المستوطنين اليهود بالإقامة بالقرب من الخليل، وكان ديان يرغب في تطويق الأجزاء المكتظة بالسكان في هذه المناطق من خلال خلق منطقة استيطان في وادي الأردن غير المأهول وفي شمال سيناء «منطقة ياميت». ومن أجل الحفاظ على التحالف الإسرائيلي مع الوجهاء الإقطاعيين الذين كانوا يسيطرون سيطرة قوية علي القرى (على الرغم من أن ذلك لم يكن ينطبق على المدن الكبيرة)، تعهد ديان بعدم مصادرة أراضي القري، وحافظ على وعده في أغلب الأحوال، واستعرضت جماعة جوش أمونيم قوتها من خلال تنظيم تظاهرات ضخمة في عامي ١٩٧٤ و١٩٧٥ تعارض فيها وعود ديان.

وهذه التظاهرات كانت موجهة أيضا نحو وزير الخارجية الأمريكي هنري كيسنجر بسبب تأييده لسياسة ديان. وقام بيريز، الذي أصبح وزيرا للدفاع بعد ديان في عام ١٩٧٤ في حكومة رابين الأولى (٧٤ -

١٩٧٧)، بالبدء فى سياسة جديدة سميت بسياسة «التسوية العملية» والتى أدت إلى حصوله على تأييد جوش أمونيم، وتبعا لهذه السياسة فإن الأراضى الموجودة داخل الضفة الغربية وقطاع غزة والتى ليس بها سكان يمكن أن تصادر من أجل استخدام اليهود فقط. والزعماء الفلسطينيون السياسيون الذين يوافقون على هذه السياسة يتم منحهم سيادة مطلقة على الفلسطينيين. وتقوم حكومة إسرائيل فقط بالسيطرة على وظائف أساسية معينة فى المناطق الفلسطينية.

عارض رئيس الوزراء الإسرائيلى رابين هذه السياسة فى بادئ الأمر، وفى عام ١٩٧٥، تآمر بيريز مع جوش أمونيم ووضع استراتيجية معينة للوقوف فى وجه معارضة رابين، وقامت جماعة جوش أمونيم بتنظيم حشود جماهيرية ضخمة فى سباستيا، وهى محطة سكك حديد مهجورة بالقرب من نابلس، حاول رابين منع المظاهرة، ولكن نجح متظاهرو جوش أمونيم فى الالتفاف حول حواجز الطرق التى وضعها الجيش وتجمعوا فى سباستيا. وخلال فترة التفاوض المطولة قدم بيريز بعض المساندة لجوش أمونيم، ووصل المزيد من المتظاهرين إلي المكان، وفى النهاية، تم التوصل إلي تسوية متمثلة فى مستوطنة تمنح لجوش أمونيم، فسمح لأعضاء جوش أمونيم بالاستيطان فيما يطلق عليه الآن «قيدوميم». وبنفس الطريقة قامت جماعة جوش أمونيم في عام ١٩٦٧ بمساعدة بيريز بإنشاء مستوطنة «عفرا» كمعسكر عمل مؤقت ومستوطنة «شيلو» كمعسكر أركيولوجى مؤقت. وقامت جماعة جوش أمونيم أيضا باتباع سياسات مشابهة وبدأت بناء المستوطنات فى قطاع غزة، ومستوطنات جوش أمونيم، التى وافق عليها بيريز فى ١٩٧٥ و١٩٧٦ لا تزال توجد وتزدهر، وبعد انتخاب مناحم بيجن كرئيس للوزراء فى عام ١٩٧٧، عقد «تحالف مقدس» بين جماعة جوش أمونيم الدينية والحكومات الإسرائيلية العلمانية المتعاقبة واستمر حتى اليوم.

بعد نجاح سياسة الاستيطان، قام حاخامات جوش أمونيم بحياكة

عدد من المؤامرات السياسية وكانوا قادرين على فرض سيطرتهم على الحزب الدينى القومي (NRP). ومنذ منتصف الثمانينيات سار الحزب على هدى النهج الأيديولوجى لجماعة جوش أمونيم، وبعد وفاة الحاخام كوك الأصغر، انتقلت القيادة الروحية للجماعة إلى مجلس حاخامى شبه سرى يتم اختياره بواسطة معايير مغرقة فى الغموض من بين الأتباع المقربين للحاخام كوك. وواصل هؤلاءً الحاخامات اتخاذ قرارات السياسة بناء على إيمانهم بعناصر أيديولوجية معينة مبتدعة لا يتم الدفاع عنها أو شرحها بالتفصيل على نحو علنى، ولكنها تشتق من تفسيرهم الخاص للتصوف اليهودى المشهور باسم القبالاة. إن كتابات الحاخام كوك الأكبر تعتبر نصوصا مقدسة، وربما تكون أكثر غموضا حتى من كتابات القبالاة الأخرى، والمعرفة المتعمقة بالكتابات التلمودية وكتابات القبالاة، بما فى ذلك التفسيرات المعاصرة لكلتيهما، وكذلك التدريب الخاص، تعتبر شروطا أساسية لفهم كتابات كوك .

ومضامين كتابات كوك تعتبر مبتدعة تماما من الناحية اللاهوتية على نحو يجعل من الصعب فهمها بالنسبة لليهود المثقفين ناهيك عن عامة اليهود. وهذا هو السبب فى عدم ظهور الكثير من التحليلات لأيديولوجية جوش أمونيم، والتحليل المهم والوحيد المعروف هو تلك الدراسة التى قام بها البروفيسور أوريل تال، والتى نشرت بالعبرية فى صحيفة «ها آرتس» بتاريخ ٢٦ سبتمبر ١٩٨٤، كما نشرت بعد ذلك بالإنجليزية فى مجلة القدس الفصلية (العدد ٣٥، ربيع ١٩٨٥) بعنوان: «أسس الاتجاه المسيانى السياسى فى إسرائيل». وعلى الرغم من أن دراسة تال أفسدتها إلي حد ما الرطانة السوسيولوجية وبعض القياسات غير المتوائمة مع موضوعها، فإنها تعتبر أكثر التحليلات قيمة فى هذا الصدد حتى اليوم، وهناك العديد من الدراسات الجيدة نسبيا والمكتوبة بالعبرية، والتى تتناول جوانب أكثر دنيوية لجماعة جوش أمونيم ظهرت فى صورة كتب، والدراسة الوحيدة بالإنجليزية هى كتاب إيان لوستيك، بعنوان «من أجل الأرض ومن أجل الله: الأصولية

اليهودية فى إسرائيل» ١٩٨٨، والمبادرة الخاصة بكتاب لوستيك كانت مرتبطة برد فعل لوستيك الشخصى تجاه فضيحة تجسس جوناثان بولارد وبدأ كورقة بحث مكتوبة لوزارة الدفاع الأمريكية. وربما يفسر ذلك التركيز الزائد للكتاب على المواقف السياسية المتغيرة لجماعة جوش أمونيم وإغفاله النسبى لأجزاء مهمة من الأيديولوجية. وعلى نحو يتناقض مع عنوان الكتاب، يحتوى الكتاب على القليل من الوصف أو التفسير للأصولية اليهودية. علاوة على ذلك، فإن هذا الكتاب يأخذ موقفا تبريريا منحازا، حيث إن الجوانب الأكثر تطرفا لمعتقدات وتعاليم جوش أمونيم لم يتم الكشف عنها بدقة، وبعض ما هو مفقود فى كتاب لوستيك يمكن أن نجده لحسن الحظ فى الفصل المسمى «اليهودية القومية» بكتاب يهوشافات هار كابى «لحظة إسرائيل الحاسمة»، (١٩٨٨). والمناقشة التالية لأفكار وسياسات جوش أمونيم سوف تأخذ فى اعتبارها تحليلى لوستيك وهاركابى ولكنها سوف تعتمد أكثر على دراسة تال وكتابات عبرية أخرى.

إن منزلة غير اليهود فى القبالاة مقارنة بمنزلتهم فى الكتابات التلمودية هى نقطة انطلاق جيدة للمناقشة، ومعظم المؤلفين اليهود الكثيرين الذين كتبوا عن القبالاة بالإنجليزية والألمانية والفرنسية إما أنهم تجنبوا هذا الموضوع أو أخفوا جوهره تحت سحب كثيفة من التعميمات المضللة. وقام هؤلاء المؤلفون، والذين كان جيرشون شوليم واحدا من أبرزهم، باستخدام حيلة تتمثل فى استخدام كلمات مثل «الرجال» و«البشر» و«الكون» من أجل الإشارة على نحو غير صحيح إلي أن القبالاة تقدم الدرب الذي يؤدى إلى خلاص كل البشر، والحقيقة المجردة هى أن نصوص القبالاة، على نحو يتناقض مع الكتابات التلمودية، تؤكد على خلاص اليهود فقط. والكثير من الكتب التى تعالج القبالاة والمكتوبة بالعبرية، بخلاف تلك التى كتبها شوليم، تقدم وصفا أمينا للخلاص وقضايا يهودية حساسة أخرى. وهذه النقطة معبر عنها على نحو جيد فى دراسات المدرسة الأحدث والأكثر

تأثيرا من مدارس القبالاة والمسماة المدرسة اللوريانية، التى تأسست فى أواخر القرن السادس عشر وسميت باسم مؤسسها الحاخام إسحاق لوريا.

وقد تأثر النهج اللاهوتى للحاخام كوك الأكبر بأفكار الحاخام لوريا إلى حد بعيد، ولا تزال هذه الأفكار متضمنة فى أيديولوجيات جوش أمونيم والحسيدية (وهى الحركة الدينية الصوفية التي أسسها «بعل شيم طوف»).

ويقول إشعياء تشبى، العالم الضليع فى القبالاة، فى عمله البحثى المكتوب بالعبرية والمسمى «نظرية الشر والدائرة الشيطانية فى القبالاة اللوريانية (الصادر عام ١٩٤٢، والمعاد طبعه فى عام ١٩٨٢): «من الواضح تماما أن بشائر وطريق الخلاص يقصد بها اليهود فقط».

وقد استشهد تشبى بالحاخام حاييم فيتال، المفسر الأساسى لكتابات الحاخام لوريا، الذي كتب فى كتابه المسمى «بوابات القداسة» يقول: «إن قوة الفيض، تبارك اسمه، شاء أن يكون هناك شعب على هذه الأرض يجسد جوانب الفيض الإلهى الأربعة. وهذا الشعب هو اليهود الذين اختيروا لكى يجمعوا معا العوالم الإلهية الأربعة هنا على الأرض» ويستشهد تشبى أيضا بكتابات فيتال للتأكيد على المذهب اللوريانى الذي يقول أن غير اليهود لديهم أرواح شيطانية: «إن أرواح غير اليهود تأتى جميعا من الجانب المؤنث من الدائرة الشيطانية، ولهذا السبب فإن أرواح غير اليهود هى شر، وليست خيرا، وخلقت دون علم إلهى»، وفى كتابه المهم المكتوب بالعبرية المسمى «الحاخامية والحسيدية والتنوير: تاريخ الثقافة اليهودية بين نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن التاسع عشر ١٩٥٦»، يشرح بن صهيون كاتس على نحو مقنع كيف أن المعتقدات المشار إليها أصبحت جزءا من الحسيدية، وهناك أوصاف دقيقة للمعتقدات اللوريانية وتأثيرها الواسع على اليهود المتدينين يمكن العثور عليها فى العديد من الدراسات الأخرى المكتوبة بالعبرية، وفى الكتب والمقالات المكتوبة بلغات أخرى،

والتى تقرأ بالتالى بواسطة اليهود غير الإسرائيليين وغير اليهود المهتمين بالموضوع، نجد أن هذه الأوصاف والتحليلات غائبة فى الغالب، ودور الشيطان، الذي يتجسد تبعا للقبالاة فى كل ما هو غير يهودي، تم إنقاصه إلى أدنى حد أو لم يذكر بواسطة المؤلفين الذين لم يكتبوا عن القبالاة بالعبرية، وعلى ذلك فإن هؤلاء المؤلفين لم ينقلوا إلي القراء تحليلات دقيقة كسياسات الحزب الدينى القومى ولا قلبه النابض الممثل فى جماعة جوش أمونيم.

وهناك تعبير حديث ومؤثر عن الاتجاهات المشار إليها نجده واضحا فى تعاليم وكتابات الحاخام مناحم مندل شنرسون، الذى رأس حركة «شاباد» ومارس نفوذا عظيما على الكثير من اليهود المتدينين فى إسرائيل والولايات المتحدة، وكان أيضا من أتباع الحاخام لوبوفيتشر (مؤسس الطريقة اللوبوفيتشرية). فعلى الرغم من أن شنرسون وأتباعه من أصحاب الطريقة اللوبوفتشرية هم من الحريديم، إلا أنهم منخرطون فى الحياة السياسية الإسرائيلية ويشاركون جماعة جوش أمونيم والحزب الدينى القومى الكثير من المفاهيم وأفكار الحاخام شنرسون المشار إليها بأسفل مأخوذة من كتاب يضم رسائله المرسلة إلى أتباعه فى إسرائيل والمسمى «مجموعات المحاورات» والذى نشر فى الأراضى المقدسة عام ١٩٦٥. وأثناء العقود الثلاثة التالية وحتى وفاته، ظل الحاخام شنرسون عند رأيه ولم يغير أيا من أفكاره وماقاله الحاخام شنرسون سرعان ما أصبح معتقدا حسيديا لوبوفتشريا رسميا.

وفيما يتعلق بغير اليهود، كانت آراء الحاخام اللوبوفتشرى واضحة تماما على الرغم من أنها كانت غير مرتبة بعض الشيء: «فى الشريعة اليهودية، وحسبما جاء فى التلمود، فإن غير اليهودى يجب أن يعاقب بالموت إذا قتل جنينا، حتى لو كان هذا الجنين غير يهودى، بينما لا يعاقب اليهودى، حتى لو كان الجنين الذى قتله يهوديا. فكما نعرف نحن «حكماء التلمود» من سفر الخروج ٢٢: ٢١، حيث تبدأ الآية بكلمات «وأى أذى يتبع ذلك». وهذه الآية المستشهد بها هى جزء من

فقرة تبدأ بالآية ٢١، وتصف ما الذى يجب أن يحدث «إذا تعارك رجال وآذوا امرأة» وهذا يؤدى إلي سقوط الجنين. والآية ٢٢، التى تم الاستشهاد ببدايتها بواسطة الحاخام لوبوفيتشر تقول: «وإذا تبع ذلك أذى فإنك تعطى نفسا مقابل نفس» (بعض الترجمات الإنجليزية تستخدم صياغة «حياة مقابل حياة» بدلا من «نفس مقابل نفس»). والفارق السابق الخاص بعقاب اليهودى وغير اليهودى لنفس الجريمة شائع فى التلمود والهالاخاه. ويواصل الحاخام اللوبوفتشرى قائلا:

فالفرق بين الشخص اليهودى وغير اليهودى ينبع من التعبير الشائع: «دعنا نفرق» وعلى ذلك، فإننا ليست لدينا حالة من الفارق الجوهرى يكون فيها شخص ما فى مستوى متفوق. ولكننا لدينا حالة ملخصها «دعنا نفرق» بين الأجناس المختلفة، وهذا هو ما نحتاج قوله عن الجسد، فجسد اليهودى ذو نوعية مختلفة تماما عن جسد أفراد كل أمم العالم.. والحاخام الكبير «وهو مصطلح يشير إلي أحد الحاخامات المقدسين التابعين للوبوفيتشر» يشرح ذلك فى فقرة من فقرات الفصل التاسع والأربعين من «الهاتانيا» (وهو الكتاب الأساسى للشاباد) بقوله: «وأنت قد اخترتنا» (أى اليهود) بمعنى أن الجسد اليهودى تم اختياره (بواسطة الله) لأن الاختيار يتم بين أشياء متشابهة ظاهريا، فالجسد اليهودى «يبدو فى ظاهره كما لو كان مشابها لأجساد غير اليهود». ولكن المعنى هو أن الأجساد تبدو متشابهة فقط فى المادة وفى الشكل الخارجى وفى النوعية السطحية. والفرق الخاص بالقيمة الداخلية، مع ذلك، هو فرق عظيم لدرجة أن الأجساد يجب أن تعتبر أجناسا مختلفة تماما: وهذا هو السبب فى أن التلمود يقول أن هناك تمايزا فى موقف الهالاخاه من أجساد غير اليهود (باعتبارها مناقضة لأجساد اليهود)... «أجسادهم لا احترام لها».. وهناك فارق أكبر يتعلق بالروح. فهناك نوعان متناقضان من الروح، الروح غير اليهودية التى تأتى من ثلاث دوائر شيطانية، والروح اليهودية التى تنبع من القداسة.

وكما أشرنا من قبل فإن الجنين يعتبر إنسانا، لأن له جسدا وروحا. وعلى ذلك فإن الفرق بين الجنين اليهودى والجنين غير اليهودى يمكن إدراكه. وهناك أيضا فرق فى الأجساد، فجسم الجنين اليهودي هو فى مرتبة أعلى من جسد الجنين غير اليهودي، وهذا يعبر عنه من خلال عبارة «دعنا نفرق» بشأن جسم غير اليهودى الذي هو من نوع مختلف تماما. ويوجد نفس الفرق بالنسبة للروح: فروح الجنين اليهودى تختلف عن روح الجنين غير اليهودى.

وعلى ذلك نتساءل: لماذا تجب معاقبة غير اليهودى إذا قتل حتى جنينا غير يهودى بينما لا تجب معاقبة اليهودى حتى لو قتل جنينا يهوديا؟ ويمكن فهم الإجابة من خلال النظر إلى الفرق العام بين اليهود وغير اليهود: فاليهودى لم يخلق كوسيلة لتحقيق غاية أخرى، وإنما هو فى حد ذاته غاية، بما أن مادة كل الفيض الإلهى قد خلقت فقط لخدمة اليهود.

«فى البداية خلق الله السموات والأرض» (التكوين ١:١) وهذا يعنى أن (السماوات والأرض) خلقت من أجل اليهود، الذين هم «البداية» وهذا يعنى أن كل شىء، كل التطورات، كل الاكتشافات، كل الخلق، بما فى ذلك «السموات والأرض» هى لاشىء مقارنة باليهود. فاليهود هم أهم الأشياء، لأنهم لم يوجدوا لأية غاية (أخرى)، فهم فى حد ذاتهم غاية (إلهية)!!

وبعد بعض التفسير الإضافى للقبالاة يصل الحاخام اللوبوفيتشرى إلي أنه:

«بناء على كل ما قلناه بالفعل، يمكننا أن ندرك لماذا تجب معاقبة غير اليهودى بالموت إذا قتل جنينا ولماذا لا تجب معاقبة اليهودى بالموت. إن الفرق بين الجنين والطفل المولود هو أن الجنين ليس واقعا مستقلا بذاته ولكنه تابع، فهو إما تابع لأمه أو للواقع الذي يخلق بعد الميلاد حينما يتحقق الهدف الإلهى من خلقه. والواقع الكامل لغير اليهودى هو مجرد لغو. «ويقف الأغراب ويرعون غنمكم» (أشعياء ٦١:٥) (وهناك

ترجمة أخرى تقول «ويقف الأجانب ويرعون غنمكم ويكون بنو الغريب حراثيكم وكراميكم» إشعياء ٦١: ٥»)

فالخلق بأكمله (لغير اليهود) يوجد فقط من أجل اليهود. ولهذا فإن غير اليهودى يجب أن يعاقب بالموت إذا قتل جنينا، بينما اليهودى الذى وجوده أكثر أهمية، يجب ألا يعاقب بالموت بسبب شيء ثانوى. إننا يجب ألا ندمر شيئا مهما من أجل شيء ثانوى. وصحيح أن هناك تجريما لإيذاء الجنين، لأنه شيء سوف يولد فى المستقبل ويوجد حاليا فى شكل مخبوء. فعقوبة الموت يجب أن تطبق فقط حينما تتأثر أمور مرئية، وكما أشرنا من قبل، فإن الجنين له فقط أهمية ثانوية».

ظهر الكثير من التعليقات والملخصات الجزئية للآراء الواردة هنا، ولكن بتركيز غير كاف فى الصحافة الإسرائيلية العبرية. ففى عام ١٩٦٥، حينما تم نشر ذلك، كان الحاخام اللوبوفتشرى متحالفا مع حزب العمل وحصلت حركته على الكثير من المنافع المهمة من الحكومة الموجودة فى السلطة فى ذلك الوقت، وكذلك من الحكومات الإسرائيلية السابقة. فقد حصل اللوبوفتشريون، علي سبيل المثال، على استقلال نظامهم التعليمى داخل سياق التعليم الدينى للدولة، وفى منتصف السبعينيات قرر الحاخام اللوبوفتشرى أن حزب العمل معتدل أزيد من اللازم، ولذلك قام بتحويل الدعم السياسى لحركته فى بعض الأحيان إلى الليكود، وفى أحيان أخرى إلي أحد الأحزاب الدينية. وكان أرييل شارون هو الزعيم السياسى المفضل للحاخام. وقام شارون بدوره بالثناء عليه علنا وألقى خطابا مطولا فى الكنيست يؤبنه فيه بعد وفاته، ومنذ حرب يونيو ١٩٦٧ وحتى وفاته كان الحاخام اللوبوفتشرى يؤيد دائما الحروب الإسرائيلية ويعارض أى انسحاب من الأراضى العربية المحتلة.

وفى عام ١٩٧٤ قام بالاعتراض بقوة على الانسحاب الإسرائيلى من منطقة الدفرسوار، التى تمت السيطرة عليها خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣، وتعهد لإسرائيل بأن تحصل على عطايا إلهية إذا استمرت فى احتلال

هذه الأرض. وبعد وفاته لعب الآلاف من أتباعه الإسرائيليين، الذين استمروا فى اعتناق أفكاره السابقة الإشارة إليها، دورا مهما فى انتصار نتنياهو الانتخابى من خلال التظاهر عند العديد من تقاطعات الطرق قبل يوم الانتخابات، حيث تغنوا بالشعار القائل: «نتنياهو الأصلح لليهود». وعلى الرغم من اجتماعه بعرفات وتوقيعه اتفاقية الخليل، والموافقة على انسحاب ثان، ظل أتباع الحاخام يواصلون تفضيلهم لحكومة نتنياهو.

وضمن المستوطنين المتدينين فى الأراضي المحتلة يشكل حسيديو الشاباد إحدى أكثر المجموعات تطرفا. وكان باروخ جولد شتاين، الذى قام بمذبحة القتل الجماعى للفلسطينيين، واحدا منهم (سوف تتم مناقشة موضوع جولد شتاين في الفصل السادس): والحاخام إسحاق جينسبرج، الذى كتب فصلا فى كتاب يمدح جولد شتاين وما اقترفت يداه، هو عضو آخر فى هذه الجماعة. وجينسبرج هو الناظر السابق لمدرسة ضريح يوسف الدينية، التى توجد فى ضواحى نابلس، وكان الحاخام جينسبرج، الذى جاء فى الأصل إلي إسرائيل من الولايات المتحدة ولديه علاقات جيدة بالمجتمع اللوبوفتشرى في الولايات المتحدة، يعبر عن أفكاره غالبا بالإنجليزية فى المطبوعات اليهودية الأمريكية. وقد جاء ما يلى عنه فى يوم ٢٦ أبريل. ١٩٩٦ فى مقال بجريدة «الأسبوع اليهودى» التى تصدر فى نيويورك فى مقابلة تم إجراؤها معه باعتباره أحد أركان الطائفة اللوبوفتشرية المتبحرين فى التصوف اليهودى، يتحدث الحاخام، الذي نشأ فى سانت لويس، والذي حصل أيضا على شهادة فى الرياضيات، بحرية عن التفوق الروحى اليهودى علي غير اليهود. كما يؤكد أيضا أن هذا التفوق يجعل الحياة اليهودية أعظم قيمة في عيون التوراة. فيقول الحاخام جينسبرج: «إذا شاهدت شخصين يشرفان على الغرق، أحدهما يهودى والآخر غير يهودى، فإن التوراة تقول يجب عليك أن تنقذ اليهودى أولا» وأضاف قائلا: «إذا كانت كل خلية بسيطة فى الجسد اليهودى تحتوى على

ألوهية، فهى جزء من الله، وبذلك فإن كل ضرب من ضروب الحمض النووى الأمينى (DNA) هو جزء من الله، ولهذا فإن هناك شيئا ما مميز فى الأحماض النووية الأمينية اليهودية». وبعد ذلك يتساءل الحاخام جينسبرج على نحو بلاغى قائلا: «إذا كان هناك يهودى يحتاج إلى كبد، فهل يمكنك أن تأخذ كبد شخص غير يهودى برئ يمر بالصدفة من أجل إنقاذه؟ إن التوراة تجيز ذلك، فالحياة اليهودية لا تقدر بثمن». ويشرح ذلك قائلا: «إن هناك شيئا ما أكثر قداسة وتفردا بشأن الحياة اليهودية أكثر من الحياة غير اليهودية».

إن تغيير كلمة «اليهودى» إلي «الألمانى» أو «الآري» وكلمة «غير اليهودي» إلي اليهودي يحول موقف جينسبرج إلي المذهب الذي جعل أوسشفيتس ممكنا فى الماضى. فقد اعتمد نجاح النازى الألماني بدرجة كبيرة على هذه الأيديولوجية وعلى مضامينها التى لم يتم التعرف عليها مبكرا على نطاق واسع. وبصرف النظر عن النطاق المحدود للآثار المحتملة للمسيانية، فإن الايديولوجية اللوبوفتشرية وأيديولوجيات أخرى يمكن أن تثبت أنها كارثة.

إن الاختلاف فى المواقف المتعلقة بغير اليهود فى الهالاخاه والقبالاه يمكن التعبير عنه علي نحو جيد من خلال الاختلاف المعبر عنه بخصوص غير اليهود الذين اعتنقوا اليهودية. فالهالاخاه، علي الرغم من أنها تميز ضدهم على نحو ما، فإنها تعامل المتحولين إلي اليهودية على أنهم يهود جدد، والقبالاه تكون غير قادرة علي تبنى هذا المنهج لأنها تؤكد علي الفرق الكونى بين اليهود وغير اليهود. وتشير القبالاه إلي أن المتحولين إلى اليهودية هم أرواح يهودية أودعت أولا فى أجساد غير يهودية كنوع من العقاب، وبعد ذلك اعتقت من خلال التحول إلى اليهودية إما بسبب أن العقاب انتهى أو بسبب شفاعة رجل مقدس. وهذا التفسير هو جزء من إيمان القبالاه بتناسخ الأرواح، وهو اعتقاد غائب فى الهالاخاه. وتبعا للقبالاه، فإن الروح الشيطانية لا يمكن أن تتحول إلى روح إلهية بمجرد الاقتناع.

إن المناقشة المطلوبة لأفكار وسياسات جوش أمونيم تضع فى اعتبارها دراسات لوستيك وهاركابى ولكنها تعتمد بشكل أساسى على مواد المصادر الأولية-وتحليلات تال وكتاب آخرين يكتبون بالعبرية. وقام تال بوصف وتحليل مبادئ جوش أمونيم من خلال استشهاد على نحو موسع بكتابات الحاخام يهودا أميطال، وهو أحد زعماء جوش أمونيم البارزين والذي تم تعيينه وزيرا بدون حقيبة فى الحكومة الإسرائيلية فى نوفمبر ١٩٩٥، بواسطة بيريز الذى كان يشغل منصب رئيس الوزراء واستمر فى هذا المنصب حتى يونيو ١٩٩٦. ووصف بيريز أميطال على أنه معتدل. وعند شرح وجهات نظر أميطال، قام تال بالاعتماد بشكل أساسى علي مقاله المنشور بعنوان «عن أهمية حرب أكتوبر (١٩٧٣)». ومن أجل التعبير عن تأكيد أميطال على الحنين الروحى والتيار المسيانى - السياسى للفكر، قام تال بالاستشهاد بما يلى:

«اندلعت الحرب إزاء ساحة تشهد إعادة بعث مملكة إسرائيل، والتى هى فى شكلها الميتافيزيقى «وليس الرمزى فقط» دليلا على تناقص روح التلوث فى العالم الغربى.. فالأغيار يحاربون من أجل بقائهم كأغيار، وكغير أطهار. الإثم يخوض معركته من أجل البقاء، وهو يعرف أن حروب الله ليس بها مكان للشيطان، ولا لروح الدنس، أو لرفات الحضارة الغربية، والتى يناصرها دائما اليهود العلمانيون».

ثم قام تال بتفسير أفكار أميطال وكذلك أفكار جوش أمونيم الأساسية:

«إن العالم العلمانى المعاصر، تبعا لهذا النهج. هو صراع من أجل البقاء، ولذلك فإن حربنا موجهة ضد تلوث الحضارة الغربية وضد العقلانية أينما وجدت». وتبعا لذلك فإن هذه الحضارة الأجنبية يجب أن تجتث من جذورها لأن كل الأجانب يجروننا أكثر نحو التغريب والتغريب يؤدى إلى الانعزال، كما هو حادث بالنسبة لأولئك الذين مازالوا يلتصقون بالحضارة الغربية والذين يحاولون دمج اليهودية فى

الحضارة العقلانية التجريبية والديمقراطية». وبناء على منهج أميطال، فإن حرب أكتوبر يجب أن تستوعب من خلال بعدها المسيانى ألا وهو صراع ضد الحضارة أيا كانت».

وواصل تال مناقشته لكى يسأل أميطال سؤالا خطيرا متعدد الوجوه: «ما هو سبب كل هذا البلاء؟ ولماذا تستمر الحروب، إذا كان المسيح قد جاء بالفعل وإذا كانت مملكة إسرائيل أصبحت حقيقة ملموسة؟»

وأجاب أميطال قائلا: «إن الحرب تبدأ عملية التطهير والتنقية والتنظيف لشعب إسرائيل». وواصل تال مناقشته قائلا: «إننا نعلم إذن أن هناك تفسيرا واحدا للحروب: فهى تهذب وتنقى الروح. فعندما يتم التخلص من الدنس، تصبح روح إسرائيل - بفضل الحرب - نقية. إننا قمنا بالفعل بغزو الأرض، وكل ما تبقى الآن هو أن نقوم بغزو الدنس».

قام أتباع الحاخامين كوك بتطبيق المفاهيم السابقة على كل الحروب الإسرائيلية الأخرى. وقام الحاخام شمرياهو أريلى، على سبيل المثال، بالإشارة إلى أن حرب ١٩٦٧ كانت «تحولا ميتافيزيقيا» وأن الانتصارات الإسرائيلية حولت الأرض من قوة للشيطان إلى دائرة إلهية. وهذا يثبت أن «الحقبة المسيانية» جاءت. كما استشهد تال أيضا بتعاليم الحاخام إى هداية: «إن غزوات ١٩٦٧» حررت الأرض من قبضة الجانب الآخر (اسم مهذب للشيطان)، ومن القوة الأسطورية التى تجسد الشر والدنس والفساد الأخلاقى. فنحن (اليهود) ندخل إلى حقبة تسيطر فيها السيادة المطلقة على المادية». ويؤكد تال أن هذه العبارات تنطوى على تحذير بأن أى انسحاب إسرائيلى من الأراضى التى تم منحها سوف تكون له عواقب ميتافيزيقية يمكن أن تؤدى إلى استعادة الشيطان لسلطانه على هذه الأراضى. وعبر زعماء آخرون لجوش أمونيم بشكل مباشر وغير مباشر عن نفس الأفكار فى تصريحاتهم العلنية وكتاباتهم.

لم يعد هناك إلا قليل من الشك فى أن جوش أمونيم قد أثرت بدرجة

خطيرة على الزعماء اليهود الإسرائيليين المتدينين وعلى عامة الشعب. وأثناء الغزو الإسرائيلى للبنان، على سبيل المثال، تأثر الحاخامات العسكريون فى إسرائيل على نحو واضح بأفكار الحاخامين كوك وحثوا جميع الجنود الإسرائيليين على اتباع خطى يشوع وإعادة احتلال أرض فلسطين وتضمن هذا الحث على الاحتلال اقتلاع السكان غير اليهود. وقام الحاخامات العسكريون بنشر خريطة للبنان تم تغيير أسماء المدن اللبنانية فيها إلى الأسماء الواردة فى كتاب يشوع، فتم تغيير اسم بيروت على سبيل المثال، إلى «بئروت» واعتبرت الخريطة لبنان أرضا تنتمى إلى قبائل إسرائيل الشمالية القديمة، آشر ونفتالى. وكما كتب تال: «أكد تواجد إسرائيل العسكرى فى لبنان إلى التأكيد على وعد الكتاب المقدس الوارد فى سفر «التثنية ١١:٢٤» كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم من البرية ولبنان من النهر، نهر الفرات إلى البحر الغربى يكون تخمكم» ونظر أتباع الحاخامين كوك إلى لبنان على أنها فى مرحلة خلاص من قبضة الشيطان، ويقتل سكانها عبر هذه العملية» وهذه الرؤية ليست استثنائية، فهى ذات عناصر عديدة موازية لها قديمة ومعاصرة، دينية وعلمانية. ففكرة تطهير الأرض من الشيطان ومن الإثم الذى يغضب الله، عن طريق القتل، هى فكرة شائعة. ففى الفصل المعنون باسم «طقوس العنف» فى كتابها المسمى «المجتمع والثقافة فى فرنسا المعاصرة المبكرة»، قامت ناتالى زد دافيس على سبيل المثال بتقديم نفس الفكرة باعتبارها إلباس ثوب المنطق للمذابح التى ارتكبتها فرنسا فى النصف الثانى من القرن السادس عشر وفى كتابه الممتاز، المعنون باسم «السعى نحو العصر الألفى» يقوم نورمان كوهين بمناقشة الحركات الدينية المسيحية التى كانت تسعى إلى استخدام العصر الألفى، «وهو العصر الألفى السعيد الذى يحكم فيه المسيح الأرضى» بالقوة مما أدى إلى موت الكثير من البشر.

هناك ثلاثة تعليقات تفسيرية ومرتبطة ببعضها البعض تتعلق بتحليل

تـال لجمـاعـة جوش أمـونـيـم يـجب تـقـديمهـا. الأول: أن الحـاخـامـات المستشهد بهم باعتبارهم حجة فى الديانة اليهودية، سواء من خلال تال أو من خلال مؤلفى هذا الكتاب، ليسوا حاخامات مغمورين أو مهمشين بل هم شخصيات إسرائيلية بارزة. وكما أشرنا من قبل، اعتبر شيمون بيريز أحدهم وهو الحاخام أميطال، وذلك عندما كان رئيسا للوزراء معتدلا ومنحه منصب وزير بدون حقيبة. ثانيا: كان تال قادرا على فهم الخلاصة الحقيقية لما كان يطلق عليه «الاتجاه المسيانى السياسى». كما أن خبرتـه فـى مجال الـنـازيـة الألمانـيـة، وخـاصـة فـى الأيديولوجية الـنـازيـة ومصـادرهـا، سـاعدتـه بالـتـأكيد فى دراسته لجمـاعـة جوش أمونيم. (انظر كتاب تال، الصادر بالعبرية بعنوان «اللاهوت السياسى والرايخ الثالث»، مطبعة جامعة تل أبيب، ١٩٨٩). إن أوجه الشبه بين الاتجاه المسيانى السياسى اليهودى والنازية الألمانية ساطعة كالشمس فى كبد السماء. فالأغيار (أى الشعوب الأخرى غير اليهودية) بالنسبة لأصحاب الاتجاه المسيانى هم فى منزلة اليهود بالنسبة للنازيين. كما أن كراهية الحضارة الغربية بعناصرها العقلانية والديمقراطية تمثل أمرا مشتركا بين الحركتين. وفى النهـايـة، فـإن الشوفينية المتطرفة لأصحاب المذهب المسيانى موجهة نحو كل غير اليهود. وكانت حرب أكتوبر ١٩٧٣، على سبيل المثال، من وجهة نظر أميطال، ليست ضد المصريين أو السوريين أو كل العرب، ولكنها ضد كل غير اليهود، ولـذلك فـإن الحرب كـانت مـوجـهـة ضد الـغـالبية الـعظمـى من مواطنى الـولايـات المتحدة، حتـى علـى الرغم من مساعدة الولايات المتحدة لإسرائيل فى تلك الحرب. وهذا البغض لغير اليهود ليس جديدا، كما أشرنا إلى ذلك من قبل، فهو نابع من تقليد متواصل للقبالاه اليهودية. والباحثون اليهود الذين حاولوا إخفاء هذه الحقيقة عن غير اليهود وحتى عن الكثير من اليهود لم يخونوا الأمانة العلمية فقط، ولكنهم ساهموا أيضا فى نمو النظير اليهودى للنازية الألمانية.

إن أيديولوجية الحـاخـامين كوك هى أيديولوجية غيبية، «أى تؤمن

بالغيبيات» ومسيانية، وهى تشبه فى هذا الخصوص المذاهب اليهودية الدينية السابقة، وكذلك الاتجاهات المماثلة فى المسيحية والإسلام.

وتفترض هذه الأيديولوجية أن المسيح على وشك القدوم وتؤكد على أن اليهود، بمساعدة الله، سوف ينتصرون على غير اليهود ويحكمونهم للأبد. (وهذا، كما يدعون، خير لغير اليهود). وكل التطورات السياسية الجارية إما أن تعجل بحدوث ذلك أو تؤجله. فالآثام اليهودية، وخاصة ضعف الإيمان، يمكن أن تؤدى إلى تأجيل قدوم المسيح. ومع ذلك، فإن التأخير لن يكون طويلا، لأن أكثر الآثام اليهودية إمعانا فى الشر ليس فى استطاعتها تغيير مسار الخلاص. ومع ذلك، فإن الآثام يمكنها أن تزيد من معاناة اليهود قبل الخلاص، والحربان العالميتان والهولوكوست وأحداث مأساوية أخرى فى التاريخ المعاصر هى أمثلة للعقاب. ولم يخف الحاخام كوك الأكبر سعادته بمن ماتوا فى الحرب العالمية الأولى، ويفسر ذلك قائلا: إن فقد الأرواح ضرورى «من أجل بداية تحطيم قوة الشيطان». وقام أتباع الحاخام كوك بشرح تفصيلى عميق لهذه التفسيرات وعلى سبيل المثال، زعم الحاخام دوف ليور وهو أشهر حاخامات المجلس الحاخامى لجماعة جوش أمونيم والذى أشرنا إليه من قبل، والحاخام كريات أربع أن فشل إسرائيل فى غزوها للبنان عام ١٩٨٢ يرجع إلى نقص الإيمان، وهو ما تبدى من خلال توقيع معاهدة السلام مع مصر وإعادة «ميراث الأجداد «سيناء» إلى الأغراب». كما قال ليور أيضا فى إحدى المقالات التى كتبت عنه، والتى نشرت فى ٢٠ ديسمبر ١٩٩١ بملحق جريدة حداشوت (الأسبوع)، بالقول: إن تمكن السوريين من القبض على اثنين من الدبلوماسيين الإسرائيليين المقيمين فى جونية بلبنان، فى مايو ١٩٨٤، «هو مجرد عقاب للمعاملة السيئة فى الحجز لأربعة من أولادنا من أعضاء الجماعات اليهودية السرية»، وأضاف ليور فى مقاله المنشور بجريدة حداشوت. «إننى لا أعلم ما هو العذاب الذى سوف ينزل بكل اليهود بسبب هذه الجريمة».

إن التفسيرات التى قد تبدو لغير المعنيين بالموضوع غريبة وشاذة تكون فى بعض الأحيان هى الأكثر قبولا بالنسبة لأتباع جماعة جوش أمونيم، ويحدث ذلك على وجه الخصوص حينما يؤمن هؤلاء الأتباع أن الخلاص على الأبواب، فهم يؤمنون بأن الشيطان كما وصف فى القبالاه منطقى (عقلانى) وله منطق منظم، ولهذا فإن قوة الشيطان وأتباعه الأرضيين من غير اليهود، يمكن تحطيمها فى بعض الأحيان فقط من خلال عمل غير منطقى. وعلى ذلك، قامت جوش أمونيم بإقامة مستوطنات فى نفس توقيت زيارة جيمس بيكر وزير الخارجية الأمريكى لإسرائيل ليس فقط من أجل استعراض قوتها ولكن أيضا كجزء من مخطط سرى لكبر شوكة الشيطان وصورته الأمريكية، وفيما مضى قامت جماعات يهودية دينية مختلفة، مثل جماعة المسيح الكاذب شابتاى تسفى فى ١٦٦٥ و١٦٦٦ وكذلك الحسيدية المبكرة، باستخدام منطق مماثل: كما استخدمت حركات مسيحية وإسلامية معينة منطقا مناظرا فى بعض الأوقات.

لم يشتق واضعو أيديولوجيات جوش أمونيم، وخاصة الحاخام كوك الأكبر، أفكارهم فقط من التقاليد اليهودية ولكنهم أيضا كانوا مبدعين. والكيفية التى قاموا بها بتطوير المفهوم الخاص بالمسيح هى خير دليل على ذلك، فلقد تنبأ الكتاب المقدس بمسيح واحد فقط، أما التصوف اليهودى فقد تنبأ بمسيحين، فتبعا للقبالاه تختلف شخصية كل مسيح منهما عن الآخر، فالمسيح الأول، وهو شخصية عسكرية يطلق عليه «ابن يوسف»، سوف يمهد الطريق للخلاص، أما المسيح الثانى الذى يكون شخصية روحية ويطلق عليه «ابن داود» فهو الذى يخلص العالم من خلال صناعة المعجزات المرئية للناظرين، «ويؤمن أتباع جوش أمونيم بأن المعجزات تحدث فى أزمنة مختلفة». وتشير القبالاة إلى أن المسيحين سوف يكونان فردين. أما الحاخام كوك الأكبر فإنه بدل هذه الفكرة من خلال توقعه والدفاع عن فكرة تقول بأن المسيح الأول سوف يكون شخصية جماعية «أو أشخاصا متعددين» ويطلق الحاخام كوك

على مجموعة أتباعه اسم «أبناء يوسف» ويواصل زعماء جوش أمونيم، على طريق الحاخام كوك الأكبر، اعتبار حاخاماتهم، وربما كل الأتباع أيضا، تجسيدا على الأقل لأحد المسيحين المتنبأ بظهورهما. ويؤمن أعضاء جوش أمونيم بأن هذه الفكرة يجب ألا يكشف عنها للغرباء. كما يؤمنون أيضا بأن طائفتهم معصومة من الخطأ بسبب الإرشاد الإلهى المعصوم الذى يقود خطاها.

أما البدعة الثانية للحاخام كوك فهى تلك المتعلقة بعلاقة المسيح الأول باليهود الجهلة غير المؤمنين، علمانيين ومتدينين.

وقد اشتق الحاخام كوك هذا المفهوم من نبوءة الكتاب المقدس التى تقول أن المسيح «الآتى بالخلاص» سوف يكون «راكبا على حمار وراكبا على جحش، جحش ابن آتان» [«ابتهجى جدا يا ابنة صهيون اهتفى يا بنت أورشليم هو ذا ملكك يأتى إليك هو عادل ومنصور وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن آتان» (زكريا ٩:٩)] اعتبرت القبالاه هذه الآية دليلا على وجود مسيحين أحدهما يركب على حمار والآخر على جحش. والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن هنا: كيف يمكن للمسيح الجماعى (أى الذى هو عبارة عن مجموعة من الأشخاص) أن يركب على حمار واحد؟ أجاب كوك عن السؤال بالقول بأن الحمار هو اليهود الذين يفتقرون إلى الحكمة والإيمان الصحيح. وافترض كوك أن المسيح الجماعى سوف يمتطى هؤلاء اليهود، وهذا يعنى أن المسيح سوف يستغلهم من أجل مكاسب مادية وسوف يخلصهم إلى المدى الذى يمكن أن يخلصوا به، وفكرة الخلاص عبر الاتصال بشخصية روحانية قادرة كانت دائما موضوعا شائعا عبر كل أنواع حركات التصوف اليهودى. وهذا ينطبق ليس فقط على البشر وآثامهم ولكن أيضا على الحيوانات والجماد. وفى إسرائيل، مازالت هذه الفكرة تمثل جزءا من التعليم الدينى. وتحتوى الكتب الشعبية للأطفال المتدينين على الكثير من القصص التى تعبر عن هذه النقطة، وإحدى القصص الأكثر شيوعا تتحدث عن بطة برية فاضلة تم اصطيادها وذبحها وتحويلها إلى طبق

شهى لكى يتناوله حاخام مقدس، فهذه البطة تعتبر قد تم تخليصها من خلال أكلها بواسطة رجل مقدس.

وبدعة جوش أمونيم فى هذا الصدد تتمثل فى تطبيق ذلك ليس فقط على اليهود غير المؤمنين الذين يتم تخليصهم على يد المسيح الجماعى، ولكن على كل الأجسام المادية (أى الجماد) من الدبابات إلى المال، فكل شىء يمكن تخليصه إذا لمسه أو عالجه اليهود، وخاصة اليهود المسيانيون. ويطبق أعضاء جوش أمونيم هذا المذهب على الصراع على الأرض المقدسة. فيزعمون أن ما يبدو فى ظاهره مصادرة للأرض المملوكة للعرب من أجل إقامة مستوطنات يهودية عليها ليس عملا من أعمال السرقة ولكنه تطهير لها من الخطيئة، ومن خلال هذا المنظور فإن الأرض يتم تخليصها من خلال نقلها من الدائرة الشيطانية إلى الدائرة الإلهية.

ويؤمن أتباع جوش أمونيم بأن لديهم الحق فى الوصول للحقيقة الكاملة والوحيدة على نحو يفوق بقية اليهود ويعتقد حاخامات جوش أمونيم فيما يلى بالنسبة للحمار المسيانى: نظرا لرتبته المتواضعة فى ترتيب الكائنات، فإن الحمار يجب أن يظل غافلا عن الهدف النبيل لراكبه الملهم. وهذا هو الحال على الرغم من أن الحمار يفوق راكبه فى الحجم والقوة، والراكب الإلهى فى هذا السياق يقود الحمار نحو خلاصه.

وبسبب هدفه النبيل فإن الراكب يمكنه أن يركل الحمار أثناء الرحلة من أجل التأكد من أن الحمار لا ينحرف عن الدرب المقدر. وبنفس الطريقة يؤكد حاخامات جوش أمونيم أن هذه الطائفة المسيانية يجب عليها أن تعامل وتقود اليهود مثل الحمار، والذين أفسدتهم الحضارة الغربية الشيطانية بعقلانيتها وديمقراطيتها والذين يرفضون التخلى عن عاداتها البهيمية واعتناق الإيمان الحقيقى. ومن أجل ذلك فإن استخدام القوة أمر جائز إذا اقتضت الضرورة.

آخر بدع الحاخام كوك الأكبر هى تلك التى ساهمت بشكل حاسم فى

الشعبية والنفوذ السياسى لأتباعه الأوائل وأتباعه اللاحقين فى جماعة جوش أمونيم. فخلال فترة الخلاص تؤثر هذه البدعة على سلوك الشخص المختار فى علاقته بالاهتمامات العالمية وصلاته باليهود الآخرين وغير اليهود. فقال الحاخام كوك أن الشخص المختار يجب ألا يقف بمعزل عن العالم، كما كان يفعل اليهود فى الماضى. ومع إدراكهم أن الأشخاص الآخرين آثمون وذوو طبيعة شيطانية، يجب على المختارين أن يملأوا الفجوة التى تفصلهم عن الآخرين من خلال اندماجهم فى المجتمع. ومن خلال ذلك فقط يمكن للمختار أن تكون لديه الفرصة لتطهير الآخرين من خطاياهم. ويجب على المختار أن يقدم القدوة ويمارس نفوذا سياسيا ويوسع اتصالاته بالآخرين ومنذ العشرينيات أثر هذا المذهب إلى حد كبير فى سلوك المنتمين للحزب الدينى القومى، فبعد تأسيسها عام ١٩٧٤، أعادت جماعة جوش أمونيم التأكيد على هذا المذهب على الرغم من الاستياء الجماهيرى الواسع. وعلى نحو يخالف ما كان يقوم به اليهود الأرثوذكس فى السابق، بدأ أتباع الحاخام كوك فى ارتداء ملابس اليهود العلمانيين وميزوا أنفسهم فقط من خلال ارتداء غطاء الرأس اليهودى. وحتى اليوم فإنهم يرتدون الملابس على غرار اليهود العلمانيين فى الخمسينيات، وفى مدارسهم أدخلوا أجزاء من المواد العلمانية فى مناهجهم. كما سمحوا لأبنائهم بالانخراط فى الجامعات الإسرائيلية العلمانية كما قاموا أيضا بتأسيس جامعة بار إلان ذات التوجه الدينى.

وعلى الرغم من قصر التدريس بها على اليهود المتدينين، سعت جماعة جوش أمونيم إلى توسيع نطاق الجامعة من أجل أن تدرس بها كل التخصصات الأكاديمية المعتادة. وأدى ذلك فى الغالب إلى إثارة سخط الحريديم، ونظروا إلى هذه المحاولات باشمئزاز باعتبارها تدخلاً فى نطاق الاتجاه نحو العلمانية، وأصر الحاخام كوك على أنه من واجب كل يهودى أن يقاتل وأن يستعد للقتال. وقام أعضاء الحزب الدينى القومى باتباع هذه التعاليم والإيمان بها. والكثير من أعضاء جوش

أمونيم كانوا - ولايزالون - ضباطا فى وحدات مختارة من الجيش الإسرائيلى ونسبتهم فى هذه الوحدات فى تزايد مستمر. وقد اكتسب طلاب مدارس جوش أمونيم الدينية شهرة كبيرة بسبب قدراتهم القتالية الممتازة واستعدادهم الكبير للقتال وارتفاع معدل الضحايا بينهم خلال الغزو الإسرائيلى للبنان ورغبتهم فى قمع الفلسطينيين أثناء الانتفاضة.

اكتسبت جماعة جوش أمونيم تعاطفا شعبيا واسعا بين صفوف المجتمع الإسرائيلى بسبب موقفها من الخدمة العسكرية، وهذا يتناقض بشكل حاد مع العداء الشعبى تجاه الحريديم بسبب تملصهم من الخدمة العسكرية. وأدى مذهب التطهير، المنسوب بواسطة الحاخامين كوك إلى كل مشروع صهيونى، إلى المزيد من التعاطف الشعبى الواسع والمساندة لجوش أمونيم. وقام تال بالمقارنة بين النظرة الصهيونية الدينية للحاخام كوك الأصغر وجوش أمونيم من ناحية، ونظرة اليسار العلمانى من ناحية أخرى. فعرف تال النظرة الصهيونية الخاصة باليسار العلمانى باعتبارها شاعرية رومانسية، حيث إن العودة إلى الوطن والحياة فى حضن الطبيعة وتحقيق الإنجازات الزراعية والإبداعات العلمانية [هى عناصرها الأساسية]، وعلى الرغم من اعتراف الحاخامين كوك بأن نهج اليسار العلمانى يؤدى على نحو غير مقصود إلى التعجيل بقدوم المسيح المخلص، فقد أكدا على «الانتصارات العسكرية على الأرض المقدسة وعلى الدم اليهودى المراق على هذه الأرض».

ومضى الحاخام كوك الأصغر، إلى جانب زعماء جوش أمونيم الآخرين، إلى أبعد من ذلك، حسبما يقول تال، من خلال تعريف «دولة إسرائيل على أنها مملكة إسرائيل، وبأن مملكة إسرائيل هى مملكة السماء على الأرض»، ولايزال أتباع الحاخام كوك يشيرون إلى إسرائيل على أنها «السند الأرضى لعرش الله». واستخدم إسرائيل هارئيل، أحد أبرز زعماء جوش أمونيم، هذا التعبير من أجل تحقيق مكسب سياسى فى عموده الأسبوعى بجريدة هاآرتس فى ١٢ سبتمبر

١٩٩٦. ومن خلال الاستشهاد بإحدى الدراسات المبكرة للحاخام كوك الأكبر، كتب هارئيل أن دولة إسرائيل كانت «قاعدة العرش الإلهى فى هذا العالم» ولذلك فإنها يجب أن تكون مختلفة تماما عن الدول «التى تحدث عنها لوك وروسو وآخرون» وبالنسبة لأناس مثل هارئيل فإن القداسة الكاملة التى تغلف وتبرر كل ما تفعله إسرائيل داخل نطاق الإلوهية هى المنار الهادى. وكتب تال يقول إنه من خلال هذا المنظور «فإن كل عمل وكل ظاهرة، بما فى ذلك العلمانية، سوف يأتى يوم عليها وقد جرفتها القداسة، والخلاص». وليس من المستبعد أن يؤدى هذا النوع من القداسة إلى تفجير قنابل نووية من أجل القضاء على قوة الشيطان، وإقامة «قاعدة العرش الإلهى فى هذا العالم».

عبر كثير من المحاور واصل أعضاء جوش أمونيم والغالبية العظمى من أنصار الحزب الدينى القومى التشبه بالرواد الأول للصهيونية، وأدى ذلك؛ إلى تمتعهم بشعبية طاغية، وساهموا فى ازدياد هذه الشعبية من خلال تقديم أنفسهم لغير المنتمين إليهم على أنهم خلفاء رواد العشرينيات والثلاثينيات الذين لا يزالون يمثلون نقطا مضيئة فى الذاكرة اليهودية، ويثنى عليهم فى مناهج التعليم الإسرائيلية، وكما أشرنا من قبل، يواصل أعضاء جوش أمونيم، فيما عدا غطاء الرأس الصغير، الارتداء والتصرف على غرار ما كان يفعل الرواد الأول. وتساهم الخلفية الأشكنازية لكل من الرواد الأول ومستوطنى جوش أمونيم فى تسهيل هذه المحاكاة، وكل حاخامات جوش أمونيم من الأشكناز، والمعايير الإسرائيلية المقبولة للتعليم الدينى، والتى ستتم مناقشتها فى الفصل الثالث، مسئولة إلى حد كبير عن عدم وجود يهود شرقيين بين صفوف حاخامات جوش أمونيم، وعلى الرغم من عدم رغبتهم فى الانضمام إلى الجماعة، فإن الكثير من اليهود الشرقيين قاموا بمساندة جوش أمونيم ومازالوا يفعلون وجمهور الليكود الانتخابى يواصل حتى اليوم دعمه لجوش أمونيم، وعلى النقيض فإن معظم أعضاء حزب العمل كانوا يساندون جوش أمونيم حتى نهاية

السبعينيات ولكنهم توقفوا عن ذلك بعد معارضة جوش أمونيم لاتفاقية السلام مع مصر ومطالبتها بضم لبنان باعتبارها «جزءا من ميراث الأجداد، قبائل آشر ونفتالى وزيبولون» كما أثارت جوش أمونيم غضب الكثير من أنصار حزب العمل من خلال مواصلتها الدفاع عن سياسات مقاتلة متطرفة أخرى والمعارضة الشديدة لتحالف شارون عام ١٩٨٢ مع الكتائب اللبنانية المسيحية، والتى تعتبر بذلك وثنية.

كان موقف جوش أمونيم فى عام ١٩٨٢ هو أن اليهود فى معاركهم واحتلالهم للأرض يجب أن يعتمدوا على معونة الله فقط. وأى تحالف مع غير اليهود يمكن أن يغضب الله ويؤدى إلى تخليه عنهم، وكانت هذه الأفكار غير مقبولة حتى من جانب صقور حزب العمل.

إن سياسات جوش أمونيم والحزب الدينى القومى يجب أن يتم فهمها فى سياق الأيديولوجية. فالأيديولوجية توضح تماما ما الذى يرغب هؤلاء الأعضاء فى تحقيقه. وللأسف فشلت الكتب المكتوبة بالإنجليزية فى مناقشة هذه الأيديولوجية على نحو كاف. وكتاب لوستيك المسمى «من أجل الأرض ومن أجل الله» الذى يناقش سلوك جوش أمونيم السياسى الظاهرى، خير مثال على ذلك. فقد اعتمد لوستيك إلى حد بعيد على كتابات هارولد فيش من أجل تحليل الأيديولوجية السياسية لجماعة جوش أمونيم، فقام فيش، أستاذ الأدب الإنجليزى الذى لديه القليل من الخبرة فى التلمود والقبالاه، بكتابة مؤلفه فى مجمله للقراء الذين يتحدثون الإنجليزية وركز بشكل جوهرى على الأصوليين المسيحيين فى الولايات المتحدة. كما اعتمد لوستيك أيضا إلى حد ما على كتابات الحاخام مناحم كاشير. وكان كاشير من علماء التلمود ذوى المكانة العالية، وله مؤلفات بالعبرية كما أثر بدرجة كبيرة على أعضاء جوش أمونيم، ومؤلفاته المسيانية معروفة جيدا للكثير من أعضاء جوش أمونيم وطلاب المدارس الدينية، واستشهد لوستيك بكاشير على نحو موجز مرتين فقط، وبعد ذلك قام بالتشويش على ما استشهد به، أما فى كتابنا فاعتمدنا أكثر على ما كتب كاشير وأفدنا أيضا من مواد جوش أمونيم الأخرى.

يعيش نشطاء جوش أمونيم في مجتمع متجانس بالضفة الغربية يسيطرون عليه. وهذا المجتمع محمى من «التلوث» القادم من الأيديولوجيات المنافسة الكريهة. وخاصة تلك المنبثقة عن الثقافة الغربية والتى أثرت إلى حد ما على الجانب العلمانى من المجتمع اليهودى الإسرائيلي. وتتوافر بوضوح إمكانية قيام مجتمع جوش أمونيم المتجانس وأنصاره من الحزب الدينى القومى بزيادة قوته ونفوذه السياسى داخل المجتمع الإسرائيلى، وأيديولوجية الحاخامين كوك هى القوة الضاربة للحزب الدينى القومى وجوش أمونيم فى العمل السياسى. والمعتقد السياسى الأساسى لجوش أمونيم يتمثل فى أن الشعب اليهودى هو شعب متفرد. ويشترك أعضاء جوش أمونيم فى هذا الاعتقاد مع كل اليهود الأرثوذكس، ولكنهم يفسرونها على نحو مختلف بعض الشيء. وقام لوستيك بمناقشة هذا الاعتقاد من خلال التركيز على إنكار جوش أمونيم لإحدى القضايا الصهيونية العلمانية الكلاسيكية، وقام بالإشارة على نحو صحيح إلى الافتراضين الأساسين لهذه القضية، الأول وهو أن «الحياة اليهودية شوهت على المستويين الفردى والجماعى من خلال الوضع الغريب للشتات اليهودى» ثانيا: إنه فقط من خلال إجراء «عملية عودة إلى الوضع الطبيعى» عبر الهجرة إلى فلسطين وإقامة دولة يهودية يمكن لليهود أن يصبحوا أمة طبيعية. ومن خلال الاستشهاد بفيش ذكر لوستيك أن هذه الفكرة الكلاسيكية بالنسبة لجوش أمونيم هى «الوهم الأصلى للصهاينة العلمانيين».

إن حجة جوش أمونيم تتمثل فى أن الصهاينة العلمانيين يقيسون «الطبيعية» من خلال تطبيق معايير غير يهودية شيطانية. فالصهاينة العلمانيون يركزون على أمم معينة تعتبر «طبيعية» ويؤكدون على أن غير اليهود فى هذه الأمم الطبيعية كانوا أكثر تقدما من معظم يهود الشتات، ولهذا، فإن الصهاينة العلمانيين يقولون بأن اليهود يجب أن يحاولوا محاكاة غير اليهود من خلال تحولهم إلى شعب «طبيعى» فى دولة «عادية». ورد جوش أمونيم على ذلك هو: «إن اليهود ليسوا شعبا

عاديا ولا يمكنهم أن يكونوا كذلك. فتفردهم الأبدى هو نتاج العهد الذى عاهدهم به الله فى جبل سيناء». وقام لوستيك بالمزيد من شرح موقف جوش أمونيم من خلال الاستشهاد بكلمات أحد زعماء الجماعة وهو الحاخام آفنيرى: «بينما يطلب الله من الأمم العادية إطاعة قوانين العدالة والاستقامة البحتة، فإن هذه القوانين لا تنطبق على اليهود».
وقام الحاخامات الحريديم غالبا بالاستشهاد بهذه الفكرة فى كتاباتهم، ولكنهم يحتفظون بعواقبها الأكثر وضوحا للعصر المسيانى القادم، وتؤيد الهالاخاه هذا التحفظ من خلال التمييز الدقيق بين الموقفين عند مناقشة قوانين العدالة والاستقامة. فالهالاخاه تسمح لليهود بأن يسرقوا غير اليهود فى الأماكن التى يكون فيها اليهود أقوى من غير اليهود وتحرم الهالاخاه على اليهود سرقة غير اليهود فى الأماكن التى يكون فيها غير اليهود أقوى، ويستغنى أعضاء جوش أمونيم عن هذه الاحتياطات التقليدية من خلال الزعم بأن اليهود، على الأقل فى إسرائيل والأراضى المحتلة، يعيشون بالفعل فى بداية العصر المسيانى.
فشل لوستيك فى التفسير الكافى لاعتبارات العصر المسيانى والفروق بين اليهود وغير اليهود.
وكانت معالجة هاركابى أفضل. فعند مناقشة تعاليم الهالاخاه وموقف جوش أمونيم المتصل بالقتل، شرح هاركابى أن قتل اليهودى، وخاصة من خلال غير اليهودى هو فى نظر الشريعة اليهودية أسوأ جريمة يمكن أن ترتكب، واستشهد فى ذلك بزعيم جوش أمونيم، الحاخام إسرائيل آرئييل، وبناء على ميثاق الميامنة (أتباع ميمونيدس) وعلى الهالاخاه، قال الحاخام أرئييل: «إن اليهودى الذى يقتل غير يهودى يعفى من حكم الإنسان عليه ويعتبر كأنه لم ينتهك الحظر (الدينى) للقتل». وأشار هاركابى أيضا إلى أنه يجب تذكر ذلك حينما «تكون هناك مطالبة بأن يعامل كل المواطنين غير اليهود للدولة اليهودية تبعا لمبادئ الهالاخاه» ويكرر حاخامات جوش أمونيم دائما

القول بأن اليهود الذين يقتلون العرب يجب ألا يعاقبوا، وأعضاء جوش أمونيم لا يقومون فقط بمساعدة أولئك اليهود الذين عوقبوا من خلال المحاكم العلمانية الإسرائيلية، ولكنهم يرفضون أيضا إطلاق لقب «قتلة» عليهم ويتبع ذلك منطقيا أن يؤكد المستوطنون المتدينون وأتباعهم على «إراقة الدم اليهودى» ولكنهم يبدون القليل من الاهتمام «بإراقة الدم غير اليهودى» وعلى ذلك فإن تأثير جوش أمونيم على السياسات الإسرائيلية يمكن أن يقاس من خلال الحقيقة القائلة بأن سياسة الحكومة الإسرائيلية فى هذا الموضوع تعكس بوضوح موقف جوش أمونيم. وقد رفضت الحكومة الإسرائيلية فى ظل كل من زعامتى العمل والليكود الإفراج عن السجناء الفلسطينيين «الذين قاموا بعمليات فدائية ضد اليهود» ولكنها لم تتردد فى الإفراج عن السجناء اليهود «الملطخة أيديهم بدماء غير اليهود الفلسطينيين».

وهناك أثر عملى آخر ملموس لهذه المواقف يتمثل فى تأثير جوش أمونيم على مسلك الحكومة الإسرائيلية فى كل الأمور المتصلة بالأراضى المحتلة، فتواصل جوش أمونيم تشجيع السلطات الإسرائيلية على معاملة الفلسطينيين معاملة وحشية فى الضفة الغربية وقطاع غزة، ورفض كل من رابين وبيريز ونتنياهو أثناء رئاستهم للوزارة تأييد إخلاء ولو حتى مستوطنة واحدة يرجع بشكل أساسى إلى نفوذ جوش أمونيم، وتأثير جوش أمونيم على كل الحكومات الإسرائيلية والزعماء السياسيين من مختلف الاتجاهات بالغ الأهمية.

وموقف جوش أمونيم من الفلسطينيين، الذين يشار إليهم باسم «العرب الذين يعيشون فى إسرائيل» هو موقف هام، وتجنب لوستيك غالبا مناقشة هذا الموضوع: وتعامل هاركابى معه بأمانة من خلال الاستشهاد على نحو واسع بتصريحات الحاخام تسفى يهودا كوك وشلومو آفنيرى وآرئيل. وقد نظر كوك وآفنيرى وآرئييل إلى العرب الذين يعيشون فى إسرائيل على أنهم لصوص وكونوا هذا الرأى بناء على القول بأن كل أرض إسرائيل كانت وستظل يهودية وأن كل

الممتلكات الموجودة فيها تنتمي لليهود، وعبر هاركابى، الذى علم بذلك أثناء إعداده لكتابه، عن صدمته بقوله «إننى لم أتخيل أبدا أن الإسرائيليين يفسرون مفهوم الحق التاريخى على هذا النحو». وأورد هاركابى فى فصول كتابه العديد من التطبيقات لهذا المذهب وما يتصل به. كما أشار أيضا إلى أن سيناء ولبنان الحالية بالنسبة لجوش أمونيم هى أجزاء من الأراضى اليهودية ويجب تحريرها.

وقام الحاخام آرئييل بنشر أطلس يحدد كل الأراضى التى كانت يهودية، والتى تحتاج إلى التحرير. واشتمل على كل المناطق الواقعة غرب وجنوب نهر الفرات والتى تمتد حتى الكويت. واستشهد هاركابى بقول الحاخام آفينيرى: «إننا يجب أن نعيش فى هذه الأرض حتى بالحرب. علاوة على ذلك، حتى لو كان هناك سلام، فإننا يجب أن نشعل حروب التحرير من أجل غزو هذه الأرض». وليس من المستبعد افتراض أن جوش أمونيم إذا امتلكت السلطة والسيطرة فإنها سوف تستخدم الأسلحة النووية من أجل محاولة تحقيق هدفها.

وبالنسبة لجوش أمونيم، أوضح هاركابى ولوستيك على نحو غير مباشر، أن تدنى منزلة غير اليهود الذين يعيشون فى إسرائيل، تلك المنزلة التى حكم بها الله عليهم، يمتد إلى فئات أخرى غير الحياة والممتلكات. وقامت جوش أمونيم بوضع سياسة خارجية لكى تتبناها دولة إسرائيل. وهذه السياسة تفترض أن العداء العربى لليهود هو عداء لاهوتى فى طبيعته كما أنه عداء فطرى متأصل، والنتيجة التى تم التوصل إليها هى أن الصراع العربى ـ الإسرائيلى لا يمكن حله سياسيا. وهذه النتيجة مدعمة من خلال استشهاد لوستيك بتصريحات إليعازر وولدمان، أحد زعماء جوش أمونيم البارزين وعضو الكنيست السابق: «إن العداء العربى ينبثق، مثل كل الحركات المعادية للسامية، من التمرد العالمى على أن يقوم اليهود بتخليصهم» (ص٧٧ ـ ٧٩) ويستشهد لوستيك أيضا بزعماء آخرين لجوش أمونيم والذين رفضوا على نحو قاطع الدخول فى أى اتفاقيات سياسية مع السكان اليهود لأرض

إسرائيل الذين يقاومون إقامة السيادة اليهودية على كامل الأرض» كما استشهد لوستيك أيضا بكلمات فيش الذى قال إن المقاومة العربية يجب أن تنسب إلى سعى العرب نحو «تحقيق رغبتهم فى التخلص الجماعى منهم» وعلى نحو روتينى يقوم حاخامات جوش أمونيم وسياسيوها وواضعو أيديولوجياتها بالمقارنة بين الفلسطينيين والكنعانيين القدماء، الذين كان استئصالهم أو طردهم بواسطة الإسرائيليين القدماء، تبعا للكتاب المقدس، أمرا إلهيا مقررا سلفا، وهذه الإبادة الجماعية الواردة فى الكتاب المقدس تصنع تعاطفا كبيرا مع جوش أمونيم عبر الكثير من الأصوليين المسيحيين الذين يتوقعون أن نهاية العالم سوف تسبقها مذابح ودمار. وأرادت جوش أمونيم دائما من البداية طرد أكبر عدد ممكن من الفلسطينيين. وأعمال الفلسطينيين الإرهابية تسمح لمتحدثى جوش أمونيم بإخفاء رغبتهم الحقيقية فى الطرد الجماعى للفلسطينيين من خلال القول بأن هذا الطرد تفرضه فقط احتياجات الأمن.

كما قام هاركابى بالاستشهاد بآراء موردخاى نيسان المحاضر بالجامعة العبرية بالقدس، والتى نشرت فى عدد أغسطس ١٩٨٤ من مجلة «كيفونين»، وهى إحدى المطبوعات الرسمية للمنظمة الصهيونية العالمية (ص ١٥١ ـ ١٥٦) وتبعا لما يقول نيسان، الذى اعتمد على أقوال الميامنة، إن غير اليهودى الذى سمح له بالإقامة فى أرض إسرائيل «يجب أن يقبل دفع الجزية وأن يعانى ذل العبودية» وعلى نحو يتوافق مع النص الدينى للميامنة يقول نيسان تبعا لهاركابى، بأن «غير اليهودى يجب أن يتم إخضاعه وألا يسمح له برفع رأسه أمام اليهود»، ويقول هاركابى أيضا نقلا عن نيسان بأن: «غير اليهود يجب ألا يعينوا فى منصب أو تكون لهم أية منزلة تحقق لهم سلطة على اليهود، فإذا رفضوا المعيشة فى هذه الحياة المتدنية، فإن هذا يشير إلى تمردهم وبالتالى إلى ضرورة شن الحرب ضد وجودهم فى أرض إسرائيل» وهذه الآراء المتعلقة بغير اليهود، والمنشورة فى مطبوعة رسمية

للمنظمة الصهيونية العالمية، تشبه الذرائع النازية ضد اليهود، ويعلق هاركابى على ذلك بالقول: «إننى لا أعلم كم من اليهود يشاركون نيسان معتقداته، ولكن نشر المقال فى مطبوعة صهيونية رائدة يدعو إلى إثارة القلق على نحو خطير».

إن الأمثلة الثلاثة الآتية لثلاثة مقالات ظهرت فى الصحف الناطقة بالعبرية تقدم تحليلات إضافية لمواقف الحزب الدينى القومى وجوش أمونيم، ويتعامل أحد هذه المقالات مع المجموعة الأكثر تطرفا داخل جماعة جوش أمونيم، والتى تسمى أمونيم «أو المؤمنين».

فبعد أن تكونت بعد تأسيس حركة رابين ١٩٩٢، قاد مجموعة أمونيم الحاخام بنى آلون، ابن مناحم آلون نائب رئيس المحكمة الإسرائيلية العليا السابق. وصرح الحاخام آلون، حسبما قال ناداف شراجاى فى مقاله المنشور بصحيفة ها آرتس فى ١٨ سبتمبر ١٩٩٢: «إن وسيلة منتصف السبعينيات لم تعد تصلح للعمل فى ظل حكومة يتحدد سلوكها الأخلاقى من خلال حزب ميرتس وتمتلئ عقول وقلوب أعضائها بالازدراء لكل أرض إسرائيل ولليهودية، كما أنهم لا يريدون فقط إقامة دولة فلسطينية خالية من اليهود فى قلب إسرائيل ولكنهم يريدون أيضا إنشاء دولة علمانية ديمقراطية بدلا من دولة إسرائيل اليهودية وهذه الحكومة متعفنة روحيا».

بعد ذلك قام الحاخام آلون بالمقارنة بين زعماء حكومة ١٩٩٢ وزعماء العمل فى منتصف الثمانينيات وما قبلها، الذين «كانوا يشعرون بما يشعر به اليهود ذوو القلوب الرحيمة»، لذلك كانوا يستجيبون لضغوط جوش أمونيم، وواصل آلون القول «ولكنك لا تستطيع تطبيق نفس الوسائل مع أشخاص على شاكلة ديدى تسوكر «عضو الكنيست عن ميرتس» أو موشى آميراف «عضو حزب ميرتس» الذى يتعاون مع أعدائنا». وعند إعداده للمقال الذى نشر بجريدة «معاريف» بتاريخ ١٨ سبتمبر ١٩٩٢، قام الصحفى آفى راتس بتوجيه الأسئلة لآلون واستكشاف تكتيكات أمونيم:

«إن أمونيم تريد حجب الثقة عن رابين «الذى أصبح رئيسا للوزراء» من خلال إجباره على الاعتماد (من أجل الحصول على الأغلبية فى الكنيست) على أعضاء الأحزاب العربية وبذلك يتم تدمير شرعية حكومته» وقام رابين وبيريز بتقديم تنازلات ولكنهما لم يصرا على توسيع المستوطنات اليهودية، وقام راتس فى مقاله بالاستشهاد بعبارات أخرى لآلون: «من المنظور الدينى الروحانى فإن رفائيل إيتان - مخطئ ويجب أن ينتقد حينما يبرر المستوطنات اليهودية على أساس المساهمة فى أمن إسرائيل، فالاعتبارات الأمنية التى فى صالح المستوطنات ليست هى محور الموضوع. ففى رأيى أن السياسة تعتمد على الروحانية، فالجسد السياسى يحتاج إلى روح. وأمن إسرائيل وحتى بقاء الأمة اليهودية ليس إلا أبعاد مادية للعمق الروحى اليهودى، وعندما نقول بأننا يجب أن نحول دون قيام دولة فلسطينية من أجل إنقاذ الدولة اليهودية من الانقراض، فإننا لا نتحدث عن أشياء روحية».

وكما أشار راتس: «عبر إيمانهم الروحى العميق، قام آلون ومساعدوه بالتوجه إلى الولايات المتحدة فى زيارة استغرقت خمسة أيام من أجل أن يطلبوا من الأصوليين المسيحيين دعم أنشطتهم ماليا»، ونجح آلون ومساعدوه فى الحصول على بعض هذه المعونة، وعلى الرغم من أنهم كأصوليين يهود يمقتون غير اليهود، فقد أبرموا تحالفا روحيا مع المسيحيين الذين يؤمنون بأن مساندة الأصولية اليهودية ضرورية من أجل مساندة العودة الثانية للمسيح، وهذا التحالف أصبح عاملا جوهريا فى كل من سياستى التعامل مع أمريكا ومع الشرق الأوسط.

المثال الثانى يتعلق بسياسات جوش أمونيم نفسها فى ظل حكومة العمل وميرتس فى التسعينيات، ففى مقاله المنشور فى ٥ أكتوبر ١٩٩٢ بجريدة هاآرتس، قام دانى روبنشتين بالاستشهاد بتصريحات زعماء جوش أمونيم الذين يؤمنون بأن هدف سياسات رابين هو «استئصال المستوطنات اليهودية فى الأراضى المحتلة من جذورها

وتدمير كل المنجزات الصهيونية» وميز روبنشتين على نحو دقيق بين مستوطنى مرتفعات الجولان العلمانيين ومستوطنى جوش أمونيم، فمستوطنو مرتفعات الجولان يزعمون أن سياسات رابين كانت خاطئة لأن السلام مع سوريا يمكن الوصول إليه حسب الشروط الإسرائيلية، وتزعم جوش أمونيم أن مفاوضات واشنطن مع منظمة التحرير الفلسطينية لا تخرج عن كونها حوارا بين بشر وقطيع من الذئاب المفترسة الراغبة فقط فى تحويل أراضى إسرائيل إلى أرض للعرب»، وهذا لا يعنى أن جوش أمونيم امتنعت عن أخذ المال لأغراضها الخاصة من الحكومة التى تتفاوض «مع قطيع الذئاب المفترسة».

وفى مقاله المنشور فى ١٤ أكتوبر ١٩٩٢، بجريدة هاآرتس، قام ناداف شراجاى بمناقشة إحدى الندوات التى نظمتها ورعتها وزارة الشئون الدينية بالتعاون مع وزارة التعليم، ورأستها شولاميت آلونى، كان موضوع الندوة «هل من الممكن استغلال الأغراب المقيمين فى الأرض المقدسة؟». وقال الحاخام شلومو جورين المتحدث الرئيسى فى الندوة: «إن الاستقلال يعادل إنكار الديانة اليهودية»، وتبعا لجورين، فإن الهالاخاه تعتبر إنكار اليهودية أخطر الآثام اليهودية، وحث اليهود المتقين على قتل هؤلاء الكفرة الذين ينكرون اليهودية، وشبه الحاخام هؤلاء الكفرة بالأشخاص الذين يدافعون عن الاستقلال. وأشار ذلك إلى أن محاولة اغتيال رابين يمكن أن تحدث لأسباب دينية. وأضاف جورين أيضا أن اليهودية تحرم «منح أى حقوق قومية لأى جماعة من الغرباء فى أرض إسرائيل». وأنكر جورين أيضا وجود أمة فلسطينية كما أكد على أن: «الفلسطينيين اختفوا فى القرن الثانى قبل الميلاد ولم أسمع عن بعثهم من الموت». وطمأن جورين جمهوره، ولم يمنعه انتشار الكفر من ذلك، بأن «عملية الخلاص، التى تجرى بالفعل طوال مائة عام، لا يمكن أن تعود إلى الوراء حيث تحيطنا العناية الإلهية طوال الوقت»، واتفق مشارك آخر فى الندوة وهو الحاخام آڤينيرى، مع جورين فى أن اليهودية تحرم منح أى استقلال حتى لو كان ضئيلا للفلسطينيين.

وقام الحاخام زالمان ميلاميد، رئيس لجنة حاخامات يهودا والسامرة وغزة بتوضيح نفس النقطة بقوله: «ليس هناك أى خلاف بين الحاخامات على أنه من الطبيعى أن يسكن أرض إسرائيل اليهود فقط». وقام الحاخام شلومو مين هائار بالتوسع فى هذا الزعم لكى ينطبق على المسلمين والمسيحيين من خلال القول بأن: «العالم الإسلامى بأكمله عبارة عن مستودعات نقود خربة وحقيرة وعاجز عن فعل أى شىء، وكل المسيحيين بلا استثناء يكرهون اليهود ويتطلعون إلى موتهم».

تحمل دافعو الضرائب الإسرائيليون، بمن فيهم العرب مسلمين ومسيحيين، تكاليف هذه الندوة، التى تفوه فيها الزعماء الدينيون بهذه المزاعم، وقد وافق عليها رابين رئيس الوزراء ووزيرا الشئون الدينية والتعليم ولم يوجهوا أى نقد علنى للآراء التى جاءت فيها. وموافقة رابين يمكن فهمها على أنها جزء من تشجيعه المقصود للبرامج السياسية، بصرف النظر عن رأيه فيها. ويمكن فهم موافقة آلونى وزيرة التعليم على أنها مجرد علامة أخرى على ضعفها وإهمالها وغبائها، وقام كل من رابين وآلونى بزيارة ألمانيا قبل وقت قصير من هذه الندوة، وأدانا علنا وعلى نحو غاضب «كره الألمان للأجانب» وتجنبا بحرص الإشارة إلى أى عبارات عنصرية أو أى توصيات قدمها الحاخامات فى إسرائيل عن الطريقة التى يجب معاملة الأجانب بها، كما أنهما لم يشيرا إلى، ناهيك عن إدانة، دفاع ميلاميد عن طرد غير اليهود من أرض إسرائيل، وهو الأمر الذى كان يمكن أن يكمل إدانتهما للخوف الألمانى المرضى من الأجانب.

المثال الثالث، والمأخوذ أيضا من الصحافة العبرية، مشتق من كتاب للردود نشر عام ١٩٩٠. والكتاب المعنون باسم «ردود الانتفاضة» والمكتوب بواسطة أحد أبرز حاخامات جوش أمونيم وهو الحاخام شلومو آفينيرى، يقدم فى لغة عبرية واضحة إجابات من الهالاخاه على تساؤلات خاصة بما يجب على اليهود المتقين عمله بالنسبة للفلسطينيين أثناء المواقف الشبيهة بالانتفاضة، وينقسم الكتاب إلى فصول موجزة

تحتوى على إجابات على الأسئلة. والإجابات لا علاقة لها بالقانون الإسرائيلى والأسئلة فى الفصلين الأولين (ص ١٩ - ٢٢) تمثل جوهر الأسئلة والإجابات الواردة بالكتاب. والسؤال النموذجى الأول بالفصل الأول يقول: «هل هناك فرق بين عقاب الطفل العربى والشخص العربى الراشد بسبب إقلاق سلامنا؟» وتبدأ الإجابة بتحذير الأشخاص غير المطلعين على الهالاخاه من أنه لا تجوز المقارنة بين الأطفال القصر اليهود وأطفال الأغيار:

«كما هو معروف، ليس هناك أى عقاب شرعى يمكن إنزاله بالأطفال اليهود أقل من ١٣ عاما، والفتيات اليهوديات أقل من ١٢ عاما.. وكتب ميمونيدس أن هذه القاعدة تنطبق على اليهود فقط. ولا تنطبق على أى شخص غير يهودى، وعلى ذلك، فإن أى شخص غير يهودى، مهما كان عمره، يجب أن يدفع ثمن أية جريمة يقترفها» وتوصل آفينيرى إلى أن مسألة تحديد ما إذا كان الطفل غير اليهودى يجب أن يعتبر راشدا أم لا، تعتمد على ما إذا كان الطفل حتى لو كان أصغر من ١٣ عاما، لديه الفهم الكافى أم لا، وتبعا لما كتبه آفينيرى فى كتابه، فإن أى يهودى يمكنه أن يقرر ما إذا كان الطفل غير اليهودى يمكن اعتباره ومعاقبته على أنه شخص كبير أم لا.

والسؤال النموذجى الثانى هو: «ما الذى يجب عمله إذا كان الطفل العربى يهدف إلى تهديد حياة يهودى؟». وأشار الحاخام آفينيرى إلى أن كل الإجابات المقدمة تتعامل فقط مع الارتكاب الفعلى للجرائم من خلال الأطفال غير اليهود. وأكد فى إجابته أنه إذا كان الطفل غير اليهودى يهدف إلى ارتكاب جريمة قتل، على سبيل المثال، من خلال إلقاء حجر على سيارة مارة، فإن هذا الطفل يجب أن يعتبر «مضطهدا لليهود»، ويجب أن يقتل. ومن خلال الاستشهاد بميمونيدس باعتباره حجته الدينية، ذكر آفينيرى أن قتل الطفل غير اليهودى فى هذه الحالة ضرورى لإنقاذ حياة يهودية.

وفى الفصل الثانى من هذا الكتاب وضع الحاخام آفينيرى وأجاب

على سؤال واحد: «هل تجيز الهالاخاه إنزال عقوبة الموت بالعرب الذين يلقون بالحجارة؟» وقالت إجابته أن إنزال هذا العقاب ليس جائزا فقط ولكنه إجبارى ومع ذلك فإن هذه العقوبة ليست قاصرة على إلقاء الحجارة ولكنها يمكن أن تطبق لأسباب أخرى. وأكد آفينيرى على أن المحكمة الحاخامية أو ملك إسرائيل «لديهما سلطة معاقبة أى شخص بالموت إذا اعتقدا أن ذلك يمكن أن يجعل العالم أفضل». كما يمكن للمحكمة الحاخامية أو ملك إسرائيل معاقبة غير اليهود واليهود الأشرار من خلال ضربهم بلا رحمة أو سجنهم فى ظل ظروف بالغة القسوة أو تعريضهم لمعاناة أكثر تطرفا. وقال المتحدثون باسم جوش أمونيم بأن هذه السلطة الخاصة بالمحكمة الحاخامية وملك إسرائيل يمكن أن تفوض إلى الحكومة الإسرائيلية على شرط أن تطيع الحكومة القواعد الدينية الصحيحة.

والصعوبات المذكورة هنا يجب أن تطبق إذا رأت السلطات أن ذلك سوف يردع الأشرار الآخرين، وأوضح آفينير تفضيله لإنزال عقوبة الموت أو الجلد العنيف بأى شخص غير يهودى يرى أنه مذنب فى جريمة إلقاء الحجارة على اليهود.

والمناقشة فى هذا الفصل يجب أن تفرق بين تركيبة جوش أمونيم - الحزب الدينى القومى، والتركيبة الحريدية للأصولية اليهودية. ومن الواضح أن الخطر الأكبر المحتمل هو ذلك المتمثل فى جوش أمونيم. والحزب الدينى القومى، لأن أعضاءهما تغلغلوا فى الدولة من أجل تطهير إسرائيل حسب زعمهم.

5

طبيعة مستوطنات جوش أمونيم



تركز التغطية الإعلامية للمستوطنات الإسرائيلية فى الأراضى المحتلة بشكل أساسى على تأثيرها على الفلسطينيين والتهديد الذى تمثله بالنسبة للحل السلمى للصراع. ومن منظور الأصولية اليهودية فإن المستوطنات يجب أن ينظر إليها من ثلاث زوايا: وقوفها كقلاع للأيديولوجية المسيانية، وتأثيرها الراهن والمحتمل على المجتمع الإسرائيلى، ودورها المرتقب كنواة للمجتمع الإسرائيلى الذى يرغب الزعماء المسيانيون فى بنائه.

وهذه المناقشة يجب أن يسبقها تعليقان مرتبطان بالمستوطنات كما يراها المجتمع الإسرائيلى: التعليق الأول يتمثل فى أن الغالبية العظمى من المواطنين الإسرائيليين، الممثلة فى أعضاء الكنيست، تفضل احتفاظ إسرائيل بكل المستوطنات، ففى بداية عام ١٩٩٩، أيد على الأقل ١٠٠ عضو من بين أعضاء الكنيست البالغين ١٢٠ عضوا بمن فيهم كل أعضاء حزب العمل، هذا الموقف حتى على الرغم من وجود فروق ضئيلة بينهم تتعلق بشكل هذا الاحتفاظ، ويعارض كل أعضاء الكنيست العرب الاحتفاظ بالمستوطنات، وعلى ذلك فإن نسبة أعضاء الكنيست اليهود الذين يؤيدون ذلك أعلى مما تشير الأرقام، ومع ذلك ففى المجتمع اليهودى الإسرائيلى، لايزال هناك خلاف شعبى حاد فى وجهات النظر حول موضوع المستوطنات، وتعارض بعض الجماعات اليسارية الصغيرة كل المستوطنات. والأمر الأكثر أهمية هو أن معظم اليهود

الإسرائيليين يعتبرون أنه من الطبيعى أن يعيش اليهود فى بعض المستوطنات.. ولكن ليس طبيعيا أن يعيشوا فى مستوطنات أخرى. وهذا الفرق عادة غير معروف خارج إسرائيل، وخاصة فى العالم العربى.

إن الغالبية العظمى من اليهود الإسرائيليين التى تعيش فى مستوطنات فى منطقة «القدس الكبرى» تعتبر أمرا عاديا و«القدس الكبرى» عبارة عن مصطلح إسرائيلى حضرى اجتماعى، لا يقتصر فى معناه على الخط الأخضر أو الحدود البلدية لمدينة القدس، كما وضعت أثناء احتلالها عام ١٩٦٧، فالمعيشة فى «القدس الكبرى» تعنى المعيشة فى مكان به خطوط مواصلات كافية لليهود للسفر إلى القدس للتسوق أو لقضاء الأمسيات والعودة إلى المنزل عند انتصاف الليل.

وفى مطلع عام ١٩٩٩، كان هناك ما يزيد على ٢٥٠ ألف يهودى إسرائيلى، يشكلون حوالى ٥٪ من مجموع سكان إسرائيل، يعيشون فى «القدس الكبرى» والعدد الكلى لسكان مستوطنات الضفة الغربية وقطاع غزة ومرتفعات الجولان حوالى ١٠٠ ألف نسمة. وهؤلاء غير مجتمعين فى منطقة صغيرة تتصل بمدينة كبيرة، ولكنهم مقسمون عبر الكثير من المستوطنات الصغيرة. فمستوطنة آرئييل، على سبيل المثال، والتى تعتبر أكبرمستوطنات الضفة الغربية خارج القدس الكبرى، بها حوالى ١٥ ألف نسمة، وتحتوى مستوطنة كريات أربع على أقل من ٦٠٠٠ نسمة، كما تحتوى الكثير من المستوطنات على حوالى ١٠٠ نسمة لكل منها. وهذه الأعداد تبين أن الغالبية العظمى من اليهود الإسرائيليين يعتبرون الإقامة فى هذه المستوطنات أمرا غير طبيعى ويرفضون العيش فيها، وعلى الرغم من الاعتمادات المالية الضخمة والأشكال الأخرى من الدعم المقدمة من جانب الحكومات الإسرائيلية لمدة طويلة من الزمن، فإن القليل من اليهود اختاروا الإقامة فى مستوطنات فى الأراضى المحتلة خارج «القدس الكبرى».

وفى المستوطنات الموجودة خارج «القدس الكبرى» هناك فرق

آخر، قام بصنعه الجمهور اليهودى الإسرائيلى، ويجب أن نذكره هنا، فتلك المستوطنات التى يتشابه سكانها اجتماعيا وسياسيا مع القطاع العلمانى الغالب فى المجتمع اليهودى الإسرائيلى كان ينظر إليها ولايزال على نحو مختلف عن المستوطنات التى يسكنها يهود متدينون جميعا أو معظمهم. (كما ذكر من قبل فإن ٢٠٪ من اليهود الإسرائيليين من المتدينين) ويتضح ذلك فى نتائج الانتخابات الإسرائيلية، والتى يكتب عنها فى وسائل الإعلام كل أربعة أعوام حيث يتم تناول كل مكان بما فى ذلك المستوطنات. ففى مستوطنات «القدس الكبرى» لم يختلف نمط التصويت عن الشكل السائد لمتوسط التصويت خلف الخط الأخضر، وفى المستوطنات العلمانية الأخرى يتشابه أيضا نفس النمط ولكن مع ميل طفيف نحو اليمين. ويحصل حزبا العمل وميرتس دائما على نسب جيدة من إجمالى الأصوات. أما فى المستوطنات الدينية، من جهة أخرى، فإن سكانها نادرا ما يعطون أصواتهم حتى لليكود أو لأى حزب علمانى يمينى آخر، ويصوتون بدلا من ذلك للأحزاب الدينية وغالبا للحزب الدينى القومى فقط، ففى مستوطنة كريات أربع فى انتخابات ١٩٩٢، على سبيل المثال، حصلت الأحزاب العلمانية الأربعة الأكبر - العمل والليكود وميرتس وتسومت - معا على ما يقل عن ٥٪ من عدد الأصوات. أما على المستوى القومى، فقد حصلت هذه الأحزاب معا على حوالى ٨٠٪ من عدد الأصوات. وفى انتخابات ١٩٩٦، ارتفعت نسبة الليكود من أصوات كريات أربع لتصل إلى ٢٤,٤٪ من عدد الأصوات بسبب وعود نتنياهو، وفى التصويت المنفصل الذى جرى ذلك العام على منصب رئيس الوزراء حصل نتنياهو على ٩٦,٣٪ وحصل بيريز فقط على ٣,٦٪ من عدد الأصوات، وعلى المستوى القومى حصل نتنياهو على ٥٠,١٪ وحصل بيريز على ٤٩,٣٪ وفى «بيت إيل ب» تلك المستوطنة الدينية الصغيرة النمطية حصل نتنياهو على ٩٩,٦٪ من الأصوات مقابل ٠,٣٪ لبيريز فى عام ١٩٩٦. وفى انتخابات الكنيست لنفس العام فى «بيت إيل ب» حصل الحزب الدينى

القومى على ٧٦,٤٪ وحصل موليدت، أكثر الأحزاب اليمينية تمثيلا فى الكنيست، مغ ميول دينية قوية، على ١٤,٥٪ وعلى ذلك فإن الحزب الدينى القومى وموليدت، وهما الحزبان اللذان حصلا معا على ١١ مقعدا من مقاعد الكنيست البالغة ١٢٠ مقعدا أو ٩,١٪ من انتخابات ١٩٩٦، حصلا على ٩٠٪ من أصوات مستوطنة «بيت إيل ب» وعلى النقيض، فى المستوطنة العلمانية المسماة «ألفى مناشة»، حصل نتنياهو على ٧١,٥٪ وبيريز على ٢٨,٤ ٪ من الأصوات.

إن المستوطنات الأكثر انعزالا والأكثر تعرضا للخطر هى تلك التى يسكنها المستوطنون المتدينون، وعلى الرغم من عدم العلم بذلك على نحو موسع فى وسائل الإعلام خارج إسرائيل، فهذه حقيقة مهمة، ففى هذه المستوطنات المعزولة والمعرضة للخطر، نجد أن اليهود المتدينين المسيانيين فقط هم المستعدون للإقامة فيها، وإلى حد بعيد، كان هذا هو السبب الجوهرى فى دعم كل الحكومات الإسرائيلية للمستوطنات الدينية المسيانية بصرف النظر عن عدد من صوتوا فى الانتخابات منها.

وتعتبر مستوطنة «نتساريم» الموجودة فى وسط قطاع غزة، مثالا جيدا لهذه المستوطنات، وتوجد إلى الشمال من نتساريم مدينة غزة، وإلى الجنوب بعض من أكبر مخيمات اللاجئين الفلسطينيين، وكل تجمع من التجمعات به حوالى ٢٠٠ ألف نسمة.

وفى منتصف عام ١٩٩٨، كان يقطن نتساريم حوالى ١٢٠ عائلة مستوطن يهودى مسيانى متدين. (وفى وقت توقيع اتفاقية أوسلو كانت نتساريم تحتوى على حوالى ٦٠ عائلة).

وبعض الذكور الراشدين الذين يعيشون فى نتساريم يقضون الجانب الأعظم من وقتهم فى دراسة التلمود، وتوجد بالقرب من نتساريم قاعدة عسكرية تقوم بحراسة أحد الطرق العسكرية، الذى يعبر قطاع غزة من الشرق إلى الغرب. وهذا الطريق - والذى تبعا لاتفاقية أوسلو يخضع للسيطرة الإسرائيلية فقط. يقسم قطاع غزة إلى قسمين.

والقاعدة العسكرية تعتبر ذات أهمية استراتيجية فى التحكم فى غزة ولكنها بالنسبة للجمهور اليهودى الإسرائيلى وللعالم الخارجى ضرورية لحماية مستوطنة نتساريم. ولم يختر اليهود العلمانيون أو التقليديون أو الحريديم الاستيطان فى نتساريم ولم يظهروا أية مؤشرات تدل على احتمال حدوث ذلك فى المستقبل. وعلى ذلك، فإن الحكومة الإسرائيلية، التى ترغب فى الاحتفاظ بالسيطرة على الطريق، يجب أن تعتمد على المستوطنين المسيانيين الذين هم مؤهلون أيديولوجيا للإقامة فى هذا المكان.

إن المستوطنات فى الأراضى المحتلة يمكن فهمها على نحو صحيح فقط داخل سياق الاستراتيجية الإسرائيلية الشاملة. والمفهوم الأساسى، الذى تم التمسك به منذ عام ١٩٦٧ من خلال كل من حزبى العمل والليكود، بدرجات مختلفة من الرياء، كان يتمثل فى قمع الفلسطينيين بأكبر فاعلية ممكنة، وأقصى فاعلية ممكنة تتمثل فى أصغر عدد ممكن من القوات اليهودية لتحقيق هدف محدد، والفكرة الجوهرية فى ذلك هى أن الجنود اليهود المدربين جيدا يجب الحفاظ عليهم لأقصى درجة ممكنة من أجل الاستعانة بهم فى أى حرب كبرى مع دولة عربية أو أكثر.

فبعد الاستحواذ على الأراضى المحتلة فى يونيو ١٩٦٧ مباشرة قامت الحكومة الإسرائيلية بالتفكير بجدية فى «الخيار الأردنى» وكانت الفكرة التى تقف وراء ذلك هى أن القوات الأردنية يمكن أن تأتى إلى الضفة الغربية من أجل القيام بالعمل الضرورى من أجل إسرائيل. ومع ذلك، رفضت حكومة الأردن الموافقة على هذه الخطة. ولذلك ابتكرت حكومة إسرائيل وقامت بإدارة «اتحادات القرى» المكونة من فلسطينيين محليين يقومون بحكم الضفة الغربية على نحو فعال لبضع سنوات مع القليل من مساندة الجيش الإسرائيلى. وأدت الانتفاضة إلى تحطيم «اتحادات القرى». وكان كل من مفهومى «الخيار الأردنى» و«اتحادات القرى» مبتكرا لنفس الهدف، كما كانت عملية أوسلو فى التسعينيات. وأوضح رابين رئيس الوزراء أن هذا الهدف كان يتمثل فى

أن يُحكم الفلسطينيون بواسطة فلسطينيين لصالح إسرائيل، وكان من المفترض أن يتحقق ذلك بدون تدخل من منظمات حقوق الإنسان ودون معوقات قانونية اسرائيلية تعوق تنفيذ الرغبة الاستبدادية للنظام التوسعى. وتبعا لهذا التفكير، فإن الجيش الإسرائيلى يمكن أن يتفرغ للتركيز على استراتيجيته العسكرية الكبرى.

كانت الاستراتيجية الإسرائيلية المتعلقة بقطاع غزة والضفة الغربية فى الفترة التى أعقبت أوسلو، ولا تزال تقوم، على أن تكون المستوطنات بؤر تركيز للقوى العسكرية الإسرائيلية، وهذه الاستراتيجية يمكن أن توصف من خلال النظر إلى قطاع غزة، حيث السمات الجغرافية أوضح منها فى قطاع غزة. وقطاع غزة كما يرى بوضوح فى الخرائط المنشورة تتقاطع فيه الطرق العسكرية.

وطبقا لاتفاقيات أوسلو الأخيرة، فإن هذه الطرق العسكرية تظل تحت السيطرة الإسرائيلية ويحرسها الجيش، مع الشرطة الإسرائيلية أو بشكل منفصل. والجيش الإسرائيلى لديه حق قانونى فى إغلاق أى جزء من هذه الطرق فى وجه المرور الفلسطينى، لو كان هذا الجزء يقع داخل منطقة تحكمها السلطة الفلسطينية، ويستخدم الجيش الإسرائيلى هذا الحق بشكل روتيني، أما عندما تكون هناك قافلة فى طريقها إلى إحدى المستوطنات أو حينما يتخذ قرار بتطويق السلطة الفلسطينية. وأحد هذه الطرق، وهو الذي يمر بمدينة غزة، يقطع كامل القطاع ويمر بالمدن الرئيسية ومخيمات اللاجئين. وهناك طريق عسكرى آخر، متصل بقطاع من الأرض ويفصل قطاع غزة عن مصر، وهناك طرق أخرى تقطع قطاع غزة وتصل جانبه الشرقى عند الحدود الإسرائيلية بالبحر أو إلى تجمع المستوطنات اليهودية «قطيف» عند الغرب. وأحد هذه الطرق، وهو طريق نتساريم يلتقى مع الطريق المار بقطاع غزة عند نتساريم، وبذلك فإنه يجعل من نتساريم تقاطع طرق استراتيجيا مهما. وبعد وقت قصير من توقيع اتفاق أوسلو، أعلنت الصحافة العبرية الإسرائيلية أن هناك قوات ضخمة من حرس الحدود والجيش متمركزة بالقرب من

نتساريم حيث تمت إقامة قاعدة عسكرية جديدة هناك.

والوضع الرسمى لنتساريم يسمح لإسرائيل بأن تفعل ذلك بشكل قانونى وتحظى بدعم ذلك الجزء من الجمهور الإسرائيلى اليهودى الأكثر ولاءً للمستوطنات منه للقواعد العسكرية، وحسب تعبير ناحوم بارنيا أحد المعلقين المشهورين: «إذا لم تكن نتساريم موجودة، لجرى اختراعها».

إن التأثير العام لهذه الطرق يتمثل فى تقطيع قطاع غزة إلى مقاطعات من خلال الطرق المارة فيه، ودور المستوطنات اليهودية فى قطاع غزة هو العمل كمحاور لشبكة الطرق. والغرض من ذلك هو التأكد من وجود سيطرة إسرائيلية دائمة أكثر فعالية عليها. وهذا النوع الجديد من السيطرة الذى يسمى «السيطرة من الخارج» حسب تعبير رابين وساسة العمل الآخرين، يساعد الجيش على السيطرة على قطاع غزة بأقل عدد ممكن من القوات، وهذا أفضل كثيرا من الوضع السابق حيث كان يجب تواجد قوات ضخمة من أجل السيطرة المباشرة على مدن ومعسكرات اللاجئين فى قطاع غزة، وكثيرا ما كانت الصحافة العبرية تشير إلى الشكل الأقدم فى السيطرة على أنه «سيطرة من الداخل» وأكدت على أنه كان أقل فعالية ويتطلب عددا أكبر من القوات من التى يحتاجها أسلوب «السيطرة من الخارج». ويواصل أسلوب السيطرة من الخارج الاعتماد على شبكة الطرق التى بدورها تعتمد على مستوطنات مثل نتساريم، وكما ذكرنا بالفعل ويجب أن نكرر ذلك، أن اليهود المتدينين الذين يؤمنون بالأيديولوجية المسيانية هم فقط الراغبون فى إقامة المستوطنات والسكنى بها.

والموقف فى الضفة الغربية، خارج القدس الكبرى، أكثر تعقيدا من الناحية الجغرافية من قطاع غزة، ولكنه يعتمد بشكل أساسى على نفس مبادئ «السيطرة من الخارج» وهذه السيطرة تتمركز حول شبكة من الطرق تقع محاورها الرئيسية عند المستوطنات. وهناك القليل من المستوطنات التى تم إنشاؤها لأسباب معنوية.

فعلى سبيل المثال، قام آرئييل شارون، من أجل إغضاب وزير الخارجية الأمريكى جيمس بيكر الذى كان يزور إسرائيل فى عامى ١٩٩١ و١٩٩٢، بالمساعدة فى إقامة هذه المستوطنات القليلة. كما قامت جماعات صغيرة من الأصوليين اليهود، أكثر تطرفا حتى من جوش أمونيم، بالمعاونة فى إقامة هذه المستوطنات الصغيرة. وعلى الرغم من التغطية الواسعة فى وسائل الإعلام، ظلت هذه المستوطنات ذات أهمية قليلة نسبيا، حيث تمثل فقط نسبة ضئيلة من هذه المستوطنات، وهناك مستوطنات مثل كريات أربع والمستوطنة اليهودية المنفصلة فى الخليل، حصلت على دعم كل الحكومات الإسرائيلية لأسباب استراتيجية. وعلى الرغم من تصريحاته اللاذعة فى بعض الأحيان، والتى انتقد فيها المستوطنين، والتى كان الغرض منها مجرد العمل كستار للتغطية على نواياه الحقيقية، قام رابين رئيس الوزراء منذ توقيع اتفاق أوسلو وحتى وفاته بدعم معظم المستوطنات، وخاصة تلك الموجودة فى الضفة الغربية. وطمأن يوسى بيلين، أحد مهندسى اتفاق أوسلو، مرارا وتكرارا الجمهور الإسرائيلى بأن حكومة العمل لن تتخلى عن المستوطنين. وقام بيلين، كما جاء ذلك فى صحيفة «معاريف» فى ٢٧ سبتمبر ١٩٩٥، بالرد على اتهامات أعضاء الكنيست عن حزب الليكود بالقول:

«إن أسخف اتهام يوجهونه إلينا هو ذلك القائل أننا تخلينا عن المستوطنين. إن اتفاق أوسلو تم تأجيله لمدة شهور من أجل ضمان أن كل المستوطنين لن يلحق بهم أى ضرر وأنهم سوف يتمتعون بأقصى درجات الأمن ، وهذا ينطوى على تقديم استثمار مالى ضخم لهم، والوضع فى المستوطنات لم يكن أبدا أفضل مما هو عليه الآن بعد توقيع اتفاق أوسلو».

الأمر الأكثر أهمية هو أن حكومة العمل أتيحت لها الفرصة لكى تقوم بإزالة مستوطنات الخليل، أو على الأقل جزء منها، خلال الصدمة التى أعقبت مذبحة جولد شتاين، وأحجمت حكومة العمل عن ذلك، وفى مقاله

الذى نشر بصحيفة دافار فى ١٨ أغسطس ١٩٩٥، كشف دانييل بن سيمون عن المناقشة التى دارت حول هذا الموضوع فى مكتب رابين رئيس الوزراء:

«إن كل رؤساء خدمات الأمن الإسرائيلية يعارضون إخلاء مستوطنى الخليل» وهذه المعارضة كانت تؤكد على الأهمية الاستراتيجية للمستوطنات واعتماد كل من الحكومة الإسرائيلية والجيش على المستوطنين المسيانيين.

وتكشف الأيديولوجية المسيانية، التى أوضحناها فى الفصل السابق، والكثير من تصريحات الحاخامات المسيانيين والزعماء العلمانيين عن أن هدف جوش أمونيم، بخلاف هذه الحكومات الإسرائيلية، ليس مقتصرا على القيمة الاستراتيجية للانتفاع بالمستوطنات من أجل السيطرة على الأراضى المحتلة، فالغرض الأكثر أهمية لزعماء جوش أمونيم هو خلق نماذج لمجتمع إسرائيلى جديد داخل مستوطناتهم المتجانسة. ويحدوهم الأمل فى أن ينتشر هذا المجتمع الإسرائيلى الجديد حتى يمتص فى النهاية اليهود العلمانيين والتقليديين والحريديم بحيث ينصهرون فى بوتقة هوية يهودية جماعية يتصورونها. وهذه الهوية، حسب اعتقادهم، سوف تكون عبارة عن مجتمع دينى عرقى مضاد لليبرالية والعالمية، ويأتمر بأمر الله. ومن أجل محاولة ترسيخ فكرتهم، يمكن لزعماء جوش أمونيم التسامح فى الديمقراطية فقط مادامت تساعد على خلق المملكة اليهودية المقدسة، وهم يؤمنون بأن أى قيم لا تتماشى مع القيم اليهودية، كما جاءت فى الهالاخاه والقبالاه، يجب التخلص منها، والحقوق المدنية والإنسانية، وكذلك مفهوم الدولة، يجب أن تتحدد من خلال مجموعة من الحاخامات الملهمين. وأصبحت هذه الآراء أكثر قبولا لدى المجتمع الإسرائيلى، وخاصة بين أعضاء الحزب القومى الدينى بعد هزيمة حرب أكتوبر ١٩٧٣، وفى تلك الحرب ذاقت العسكرية العلمانية الإسرائيلية الهزيمة، وأدت الهزيمة التى لحقت بالجنرالات، وأدركت على نطاق واسع، إلى

تشكيل صفوة مختارة تستقى معلوماتها من مصدر أعلى من مجرد الاعتبارات الاستراتيجية. واعتبر بعض الجنرالات الرواد فى تلك الحرب أنهم كانوا منغمسين فى متعهم الشخصية، ومهملين للأمور العسكرية التى أؤتمنوا عليها، أما حاخامات جوش أمونيم والزعماء المدنيون فقد نظر إليهم عن طريق الكثير من اليهود الإسرائيليين على أنهم يمتلكون الإخلاص والإحساس بالواجب والالتزام الأخلاقى والأمانة التامة فى الأمور المالية، وأنهم أهل للثقة، واستمر هذا التوصيف حتى بعد ذلك، على نحو يشبه الانطباع السائد عن قادة حماس فى المجتمع الفلسطينى، وظل زعماء جوش أمونيم مخلصين لمبادئهم وأمناء ماليا. وفى مجتمع ملئ بكل أنواع الفساد، يعتبر ذلك فى غاية الأهمية، علاوة على ذلك فإن جوش أمونيم كانت ولاتزال لديها قاعدتها المالية الخاصة، والتى تغذى باستمرار عن طريق أتباعها المخلصين الذين يستطيعون التعامل مع الأسلحة بمهارة كما يستطيعون القيام بالمهام العسكرية.

ازدادت قوة جوش أمونيم بدرجة ملحوظة فيما بين عامى ١٩٧٤ و١٩٩٢ وبالإضافة إلى أعضائها حظيت بأنصار آخرين على درجات متفاوتة من الالتزام، وربما كان أعظم إنجازاتها بعد عام ١٩٧٤ هو ذلك الذى تمثل فى قدرتها على التأثير فى الثقافة اليهودية والهوية الجماعية أثناء الفترة التى طفت فيها الأفكار المتمركزة حول العرق على سطح المجتمع الإسرائيلى. وظل معظم الجناح اليمينى السياسى، وكذلك العديد من أنصار حزب العمل، متعاطفين مع جوش أمونيم مادام الفلسطينيون فى الأراضى المحتلة محافظين على هدوئهم. واستمر هذا الوضع حتى اندلعت الانتفاضة فى ديسمبر ١٩٨٧. وقبل حدوث الانتفاضة شعر الكثير من اليهود الإسرائيليين أن السيطرة على الفلسطينيين من الداخل ليست باهظة التكلفة، ومن الممكن احتمالها. وعلى ذلك، شعر الكثير من اليهود الإسرائيليين العلمانيين أنهم يمكنهم أن يدعموا تصور جوش أمونيم لاحتلال الأرض أكثر من دعمهم لتصور

موشيه ديان، الذى ساد حتى عام ١٩٧٤، وكان يعتمد على التعاون مع الوجهاء الفلسطينيين المحافظين، وأدى التعاون مع الوجهاء الفلسطينيين التقليديين إلى أن جعل من غير الضرورى الاحتفاظ بقوات إسرائيلية ضخمة داخل المناطق المكتظة بالسكان الفلسطينيين. وبسبب أن هؤلاء الوجهاء كانوا معزولين بسبب الاستيطان وبسبب مصادرة الأراضى فى تلك المناطق، تم ابتكار «اتحادات القرى» كبديل للقوات التقليدية وكشفت الانتفاضة عن أن هذا الأسلوب لم يكن له سوى أهمية مؤقتة. وبدأ الاستيطان فى غزة وبقية أراضى الضفة الغربية فى عام ١٩٧٥، حينما أصبح رابين رئيسا للوزراء للمرة الأولى وأصبح بيريز وزيرا للدفاع ومسئولا بالتالى عن الأراضى المحتلة، وهذان المهندسان لما أطلق عليه عملية السلام فى التسعينيات كانا مسئولين إلى حد كبير عن أحد العوامل الكبرى المعوقة للسلام.

أدى اندلاع الانتفاضة إلى تغيير اتجاه التعاطف داخل المجتمع اليهودى الإسرائيلى، وقامت الحكومة الإسرائيلية بنشر مزيد من الجنود الإسرائيليين فى الأراضى المحتلة. ودفع هذا الكثير من اليهود الإسرائيليين العلمانيين إلى إعادة النظر فى التكاليف الخاصة بالحفاظ على الأراضى المحتلة. وتوصل الكثير من هؤلاء اليهود إلى أن تكاليف ذلك باهظة، وتكون موقف جديد داخل المجتمع الإسرائيلى واستمر لما بعد ذلك. وتحالف المسيانيون وأنصارهم من الاتجاهات المختلفة، والمؤمنون جميعا بأيديولوجية التمركز حول العرق، وتكتلوا وكونوا معسكرا واحدا. وتكون المعسكر الآخر من جماعة متجانسة سياسيا واجتماعيا، جمعها جميعا معارضة الاتجاه الثيوقراطى اليهودى الذى اعتبروه نتيجة حتمية للدعم المستمر لجوش أمونيم ومستوطناتها. وأدى استمرار الهيمنة الإسرائيلية على الأراضى المحتلة، والتى تمليها إلى حد ما جوش أمونيم، إلى أن أصبح هذا الموضوع قضية جوهرية فى الصراع بين المعسكرين اليهوديين الإسرائيليين.

ساهم التنظيم السريع لمستوطنى جوش أمونيم فى توسيع وزيادة قوة

المستوطنات الدينية بعد عام ١٩٧٤. وقام الحاخامات الذين أصبحوا وظلوا زعماء مهيمنين على مستوطنى جوش أمونيم فى عام ١٩٩١، بتنظيم أنفسهم من خلال اتحاد حاخامات يهودا والسامرة (أى الضفة الغربية).

وتكونت هذه المجموعة بعد قيام الرئيس الأمريكى بوش بالضغط على شامير للمشاركة فى مؤتمر مدريد، وكان زعماء المستوطنين يخشون ما يمكن أن يسفر عنه مؤتمر مدريد، ويتضح ذلك من خلال ما كتبه دوف ألباوم فى ٧ يناير ١٩٩٤ من «جيروزاليم بوست»:

«قام الحاخامات، الذين يثقون فى الوعد الإلهى، باستغلال الموقف من خلال ملء فجوة الزعامة» وازدادت قوة الاتحاد الحاخامى بعد توقيع اتفاق أوسلو، ويواصل ألباوم تحليله من خلال الاستشهاد بكلمات الحاخام دانييل شيلو، حاخام مستوطنة كودنيم المسيانية:

«إن حاخامات يهودا والسامرة يقومون الآن بحل أخطر المشاكل التى يواجهها المستوطنون المتدينون حينما بدأوا فى فقد إيمانهم بالاستيطان اليهودى فى يهودا والسامرة، كما أمرنا الله، كوسيلة لخلاص اليهود. وبدأ اليهود الذين يفتقرون إلى الإيمان فى التفكير مليا فيما إذا كانت فكرة الاستيطان فى الأراضى المحتلة من أساسها خاطئة أو فيما إذا كانت عملية الخلاص الإلهى لم يأن أوانها بعد أو ما إذا كان الله يشير إلينا بأن نوقف الاستيطان. ففى هذا الوقت يجب على الحاخامات الإجابة عن كل هذه الأسئلة. وهذا هو السبب فى أن الحاخامات لديهم سلطة أكبر من أى زعيم آخر من زعماء جوش أمونيم الدنيويين».

وقام الحاخامات باستخدام هذه السلطة من أجل التأكيد لأتباعهم على أنهم يجب أن يؤمنوا بهم، فالإيمان بهم يعبر عن إيمانهم بالله.

وأشار ألباوم أيضا إلى:

«إن حاخامات يهودا والسامرة غير راضين عن أن تخلع عليهم فقط سلطة روحية. فسرعان ما بدأوا فى تكوين شبكة استخبارات خاصة

بهم، والتى اتسعت بدرجة كبيرة، باستخدام المعلومات المجمعة من الضباط المتدينين أو المتعاطفين فى المناصب العليا بالجيش الإسرائيلى. وتمت الإشارة إلى الجنرال موشيه باركوفا، أحد أعضاء الأركان العامة الذى توفى مؤخرا بعد تقاعده من الجيش، من خلال حاخامات يهودا والسامرا باعتباره أحد مصادر المعلومات الكبرى لهم. وزعموا أن باركوفا كان يمدهم بالمعلومات على نحو منتظم وكان يخبرهم مسبقا بعمليات الجيش فى الأراضى المحتلة. وبعد العلم بذلك، حذا ضباط آخرون حذوه، وبناءً على ذلك، قررت قيادة الجيش، الوصول للزعامة الحقيقية للمستوطنين المتدينين، بتنظيم هذه العلاقات وإخطار الحاخامات بشكل رسمى بهذه العمليات. فعلى سبيل المثال، لم يتردد قائد إحدى الكتائب فى إلباس حاخام إحدى المستوطنات المحلية الثياب العسكرية واصطحبه إلى أحد المواقع العسكرية المخصصة للمراقبة لكى يتعرف بنفسه على الجنود المتخفين الذين يعملون فى القرى العربية المحلية. وكان يأمل القائد من وراء ذلك فى إقناع حاخامات يهودا والسامرة بالتوقف عن إغلاق الطرق السريعة الكبرى، الأمر الذى يؤدى إلى إعاقة تحركات الوحدة، وهذه ليست الحالة الوحيدة. ويواجه الآن رؤساء مجلس استيطان يهودا والسامرة، الذى يتكون من متدينين عاديين «أى ليسوا حاخامات» المجلس الحاخامى لمملكة يهودا، الذى نشأ أمام أعينهم، ويجد مجلس العوام بعض التعزية فى علاقاته المتينة مع الوكالات الحكومية.

وحافظ رابين، الذى كان يضع على قمة أولوياته محاولة التوصل إلى حوار مع المستوطنين المتدينين، على الاتصال بأعضاء مجلس يهودا والسامرة، ولم يكن يستطيع إقامة نفس الحوار مع حاخامات مملكة يهودا، لأنهم اعتبروا أن التواصل مع شخص آثم مثله يحط من قدرهم. كما أنهم كانوا يدركون أيضا أن «أعضاء المجلس الوضعى (أو مجلس العوام) لايجرؤون على اتخاذ أى قرار مهم دون الحصول على مباركتهم».

هبطت عملية أوسلو كالصاعقة على رأس حاخامات جوش أمونيم

وكذلك المستوطنين العوام. وقد حدث ذلك على الرغم من الدعم المادى الكبير للمستوطنات الذى كانت تحصل عليه جوش أمونيم فى التسعينيات من رؤساء الوزراء رابين وبيريز ونتنياهو. وقدم بعض الحاخامات المسيانيين تفسيرات لحدوث أوسلو وحاولوا التشاور مع رعاياهم فى ذلك ولكنهم لم يحققوا أى نجاح يذكر. فالرمزية الدينية، وخصوصا تلك التى تظهر على شكل رؤى مقدسة، منعت التواصل، فرؤية الفلسطينيين يلوحون بأعلامهم وظهور الشرطة الفلسطينية المسلحة وانتشار رموز السلطة الفلسطينية جسد أمام ناظريهم دليلا مرئيا يشير إلى فشل الرؤية المسيانية فى الخلاص العاجل. وأدى هذا بدوره إلى تعميق العداء «لليهود الخونة»، الذين أفسدوا بمنطقهم مخطط الرب ودفعوا غالبية اليهود إلى تجاهل الأمر الإلهى والمشى وراء الخونة. وهذا العداء والكره، الذى كان موجها فى معظمه نحو رابين ووزرائه، كان متسقا مع ما جاء فى القبالاه، التى تقول أن خلاص اليهود الذى يحدث فى أوقات مختلفة لايوقفه فقط فى كل مرة سوى أن تختار غالبية الأمة أن تتبع خائنا أو زنديقا، وفى التاريخ اليهودى كان أولئك الأكثر إيمانا بمجئ الخلاص هم الأكثر إحساسا بالخيانة. وبعد أوسلو كان معظم هؤلاء متمركزين فى المستوطنات اليهودية.

لم تكن كراهية العرب واليهود العلمانيين مقتصرة فقط على أعضاء المستوطنات اليهودية، ففى مقاله الصادر فى ١١ مارس ١٩٩٤ بصحيفة «شيش»، ركز نيرى هوروفيتس على جماعة أخرى من المتطرفين يسمون الحرديليم، وقام هوروفيتس بتحليل كراهية الحرديليم «المزدوجة للعرب واليهود العلمانيين» كما قدم وثائق على شكل مقتطفات من كتاباتهم الغزيرة والغامضة والمملوءة بإشارات إلى القبالاه. وعلى الرغم من غرابتها فقد أثرت كتابات الحرديليم على الغالبية العظمى من اليهود المتدينين. (عارضت أقلية ضئيلة من اليهود المتدينين كتابات الحرديليم).

وقدم ناداف شراجاى وصفا أكثر شيوعا لأيديولوجية «الكره

المزدوج» هذه فى مقاله بهاآرتس فى ١٨ فبراير ١٩٩٤. فأشار شراجاى إلى إغفال بعض المستوطنين المتدينين ويهود متدينين آخرين للصلاة التقليدية من أجل دولة إسرائيل، والتى لم تقبل أبدا من قبل الحريديم ولكنها تتلى بواسطة أنصار الحزب الدينى القومى فى كل يوم سبت وفى كل عيد دينى منذ عام ١٩٤٨. وأشار شراجاى إلى أن بعض اليهود المتدينين الذين أدركوا فى السابق أن دولة إسرائيل هى دولة مقدسة أغفلوا هذه الصلاة وأغفلوا قداسة الدولة، وأصبحوا مقتنعين بأن الحكومة والدولة، بقبولها أوسلو، قد «خانت مهمتها المقدسة» وبعد استنتاج أن رابين ووزراءه هم خونة، اعتبر المسيانيون أن الكلمات الآتية للصلاة هى كلمات آثمة:

«يا إلهى، اغمر بنورك وحكمتك زعماء إسرائيل ووزراءها ومستشاريها»، وأصر شراجاى على أن هذا التحليل يركز على خصوم معتدلين نسبيا، وهؤلاء المعتدلون ركزوا على جدل أيديولوجى مكثف، ولكنهم لم يقوموا، كما فعل المتطرفون، بالتخطيط والتورط فى القتل وفى أعمال عنف أخرى.

وكتب شراجاى يقول:

«ولدت الأزمة الشخصية والأيديولوجية والدينية التى وجد المجتمع اليهودى المتدين القومى فى إسرائيل نفسه فيها، الشكوك حول الأسس الجوهرية للصهيونية الدينية: ألا وهى تحالفها التاريخى مع الصهيونية العلمانية وقبولها الحماسى لدولة إسرائيل، ففى الماضى كان هذا التحالف يدور حول إدراك أن دولة إسرائيل العلمانية هى المرحلة الأولى فى عملية الخلاص. وفى الوقت الحاضر، حتى المعتدلون يشككون فى هذا الافتراض، وهؤلاء المشككون ليس لديهم الكثير الذى يشتركون فيه مع متطرفين مثل يهودا عتسيون المنتمى للحركة السرية اليهودية التى تعارض أى دولة يهودية لا تكون ملكية تحكمها الأسرة الداودية، أو مع موردخاى كاربل، مؤسس حركة «الأمة اليهودية توجد للأبد»، والذى يرغب أيضا فى تحويل إسرائيل إلى ملكية ثيوقراطية.

كما أشار شراجاى إلى أن العديد من الحاخامات المؤثرين، بمن فيهم عزرائيل أرئييل الذى قام بمدح السفاح جولد شتاين، يقودون «المعتدلين».

واستشهد شراجاى بأقوال الحاخام آرئييل:

«إن المستوطنات الدينية قد أقيمت ليس فقط من أجل خلق حقائق على الأرض ولكن أيضا من أجل جمع قلوب وعقول الشعب اليهودى حولها. فنحن نؤمن بأنه من خلال تجسيد الأجزاء المقدسة من الأرض كما لو كانت حية، فإن قلوب الجماهير اليهودية سوف تتحد مع قلب الأرض. كما تصورنا أن هذه العملية سوف تعيد تواصل الوعى اليهودى القومى بجذوره الروحية».

وأشار الحاخام آرئييل أيضا إلى أنه:

«بالنسبة للغالبية العظمى من اليهود فشلت المستوطنات فى إعادة هذه الصلة المقدسة. فالغالبية العظمى من اليهود تخلوا عن الجذور الموجودة فى أرواحهم ولوثوا أنفسهم من خلال ارتكاب إثم اختيار ما يطلق عليها «أخلاقيات» الحضارة الغربية بدلا من قيمهم الخاصة. وفى دولة الإثم هذه ظلت قلوبهم جامدة تجاه أرض إسرائيل....

وعلينا الآن أن نقوم ببناء المجتمع المقدس والملتزم من الداخل، دعونا نكف عن الترقب، دعونا نكف عن البحث عن دروب تقودنا إلى قلوب أشقائنا اليهود الآثمين. فيوما ما، سوف يجد أولئك الذين تخلوا عن الدين اليهودى أحلامهم وقد تحطمت، وسوف يشعرون بالخواء. وبعد أن يتخبطوا فى كل طريق، سوف يأتون للبحث عنا. وحتى ذلك الحين فإن دورنا سوف يتمثل فى إنشاء جيل من المقدسين والمختارين، جيل قادر على استقبال اليهود المخطئين التائبين بأذرع مفتوحة».

عندما قام الحاخام آرئييل بتقديم حجته، لم يشر إلى الفلسطينيين من قريب أو بعيد.

فعلى الرغم من إدراكه أن الفلسطينيين يحيطون بمجتمعاته المقدسة

والملتزمة من كل الجوانب، فإن الحاخام آرئييل وحاخامات آخرين مثله اعتبروا وجود الفلسطينيين لا علاقة له بالموضوع، وشغلوا أنفسهم بالصهاينة اليهود العلمانيين. واستشهد شراجاى بقول آرئييل: «وصلت الصهيونية التاريخية إلى قمة الإفلاس.. فالصهيونية الحقيقية، وهى الوحيدة المقدسة ذات الجذور العميقة، توجد فقط حيث يوجد اليهود المتدينون، فى جبال يهودا ووديان السامرة».

وفى هذا المقال قام شراجاى أيضا بالاستشهاد بحاخام الاستيطان يائير درايفوس. فمن خلال إيمانه بأن إسرائيل تقوم بردة روحية من خلال اتفاقها مع منظمة التحرير الفلسطينية، أعلن درايفوس أن توقيع هذا الاتفاق سوف «يضع نهاية للحقبة اليهودية - الصهيونية فى التاريخ المقدس لأرض إسرائيل.

وواصل درايفوس القول:

«إن المؤرخين سوف يسجلون أن الحقبة اليهودية - الصهيونية استمرت من ١٩٤٨ إلى ١٩٩٣. فقد انتهت حينما تحول معظم اليهود إلى كنعانيين، وعلى ذلك، فإن عام ١٩٩٣ يشير إلى بداية الحقبة الكنعانية الجديدة.. تلك الحقبة من الفكر السياسى اليهودى الآثم، والفكر الثقافى - التعليمى الذى سوف يتلوث من خلال التيار العربى المتسارع. وسوف يواصل اليسار اليهودى ممارساته الخيانية فى طرد اليهود من المواقع الجوهرية واستبدال العرب بهم، وهذا سوف يحدث فى الحكومة وفى الإعلام، وفى هيئات تحرير الصحف وفى مجالس إدارة الجامعات. فكل موقع مهم سوف يحتله عربى».

وعلى الرغم من عدم تحقق نبوءاته بعد ١٩٩٣، ظل الحاخام درايفوس مصرا على اعتقاده الخاص بالحقبة الكنعانية الجديدة، فهو يؤمن بأن التلوث سوف ينتج من اتصال اليهود بالأغيار. واتهم الحاخام درايفوس اليهود العلمانيين بأنهم «يريدون خلق شخصية إسرائيلية - كنعانية جديدة، وهذا يؤدى إلى تدمير اليهودية الحقة من خلال مزجها بعناصر غريبة» كما أنه خشى من أن تؤدى هذه الشخصية

الجديدة إلى استئصال الدافع اليهودى ـ الصهيونى. كما اتهم حزب ميرتس بأنه يمتزج بالشيوعية، وبذلك فإنه يلوث الصهيونية. ويواصل درايفوس قائلا: إن هذا المزيج «أدى إلى استيلاد بذور نمو هوية شرق أوسطية جديدة: ألا وهى اليهود الكنعانيون ـ الفلسطينيون المزيفون».

وتوصل فى النهاية إلى:

«إن اليهود الحقيقيين الذين يرغبون فى العيش كيهود، لن يكون أمامهم خيار سوى أن يعزلوا أنفسهم فى مجتمعات مغلقة «جيتو» والدولة الكنعانية ـ الفلسطينية الجديدة الآثمة (إسرائيل بعد أوسلو) سرعان ما تقوم على أنقاض الدولة اليهودية ـ الصهيونية الأصلية، ولن تكون، كما هو متوقع من إسرائيل فى أن تكون كلمة الله، وقاعدة لعرش الله على الأرض. إن الله ربما حتى يشن الحرب على تلويث عرشه. واليهود الذين قادونا إلى هذا الإثم لم يعودوا يستحقون أى حماية إلهية. ويجب علينا أن نقاتل أولئك الذين فصلوا أنفسهم عن إسرائيل الحقيقية. لقد أعلنوا الحرب علينا، نحن الذين نحمل كلمة الله. وقيادتنا سوف تسير عبر طريق الآلام قبل أن تفهم أننا أمرنا أن نقاوم دولة إسرائيل وليس حكومتها فقط، وتعاوننا مع وكالاتها يمكن أن يقوم فقط على ميثاق جديد، وبدون ذلك، فإننا نكون مستسلمين لحكومة الشر. وبدلا من ذلك فإننا سوف نشن حربا لا تعرف الرحمة ضد الكيان الكنعانى ـ الفلسطينى».

من خلال تعبيره عن آرائه بصراحة وقوة، فإن الحاخام درايفوس مثل وأثر فى تفكير المستوطنين الأكثر تدينا قبل وبعد اغتيال رابين. وبصرف النظر عن العداء للمسيحية الموجودة فى اليهودية التاريخية والصهيونية الدينية، فإن العناصر المناظرة هنا لتكوينات لاهوتية مسيحية خاصة واضحة.

وبالنسبة لليهود الإسرائيليين العلمانيين، فإن القضية الأكثر أهمية المتعلقة بالحزب الدينى القومى والمستوطنين المتدينين دارت حول اختراق أنصار الحزب الدينى القومى من الشباب للوحدات القتالية

ووحدات الصفوة فى جيش الدفاع وصفوف الضباط، فلمدة ما يقرب من ٢٥ عاما بعد حرب يونيو ١٩٦٧، أدى هذا الاختراق إلى تعزيز صورة وأهمية الحزب الدينى القومى فى المجتمع الإسرائيلى، وظهر نوع من أنواع الشراكة بين الحزب الدينى القومى والغالبية العلمانية، ومع ذلك، أدى البدء فى عملية أوسلو إلى دفع الكثير من اليهود العلمانيين إلى مراجعة مواقفهم وإثارة بعض القضايا الجادة. كما أدى اغتيال رابين إلى إلقاء الضوء وإثارة المخاوف من اختراق الحزب الدينى القومى للجيش، وقد حدث كل ذلك بسبب الشخصية العسكرية القوية للمجتمع اليهودى الإسرائيلى.

تبلورت هذه الشخصية ليس فقط لأن اليهود الذكور يخدمون فى الجيش لمدة ثلاث سنوات على الأقل، ولكن أيضا لأنهم، بعد أداء الخدمة العسكرية، يستمرون فى الخدمة الاحتياطية لمدة شهر كل عام حتى سن ٥٤ عاما، كما أن خدمة نصف الإناث اليهود فى الجيش لمدة عامين على الأقل تساهم بشكل إضافى فى بلورة هذه الشخصية، وأولئك الذين يخدمون فى الوحدات القتالية أو وحدات الصفوة أوكطيارين يتمتعون بمكانة اجتماعية هائلة عندما يتركون الخدمة ويكونون غالبا قادرين على ممارسة نفوذ سياسى. وكان الضعف السياسى للأحزاب الدينية، وخاصة الحزب الدينى القومى، قبل ١٩٦٧ متصلا اتصالا مباشرا بعدم وجود جنود متدينين فى وحدات القتال والصفوة بالجيش. وتغير هذا الموقف ببطء بعد ١٩٦٧، وحينما ظهرت جماعة جوش أمونيم فى عام ١٩٧٥، فإن زعماءها وخاصة حاخاماتها بدأوا فى حث أتباع الحزب الدينى القومى من الشباب على التخصص العسكرى كواجب دينى والانضمام إلى الوحدات المقاتلة ووحدات الصفوة فى الجيش وأن يصبحوا ضباطا. وأصبح أتباع الحزب الدينى القومى الشباب جنودا مخلصين ومنظمين وفعالين ومستعدين، عند الضرورة، للتضحية بأرواحهم فى سبيل بلدهم. ورحبت القيادة العليا للجيش، وقطاع كبير من اليهود الإسرائيليين بهذا التطور بحماس كبير، وبذلك حظى الحزب

الديني القومي بتقدير شعبي، كما حدث في السابق مع حركة الكيبوتس، وذلك بسبب الأداء العسكرى الممتاز لأعضائها الشباب.

أحدثت عملية أوسلو تغييرا في الإعجاب المنقطع النظير بجوش أمونيم والحزب الديني القومي، وتصاعدت المخاوف من أن يرفض أتباع الحزب الديني القومي تنفيذ أوامر الحكومة بالانسحاب الإسرائيلي من أجزاء من الأراضي المحتلة وإزالة مستوطنة يهودية أو أكثر. وتزايدت المخاوف بعد اغتيال رابين، وحتى قبل الاغتيال، عبر باروخ كيمرلنج في مقاله المنشور بجريدة هاآرتس بتاريخ ٦ أبريل ١٩٩٤، عن قلقه وتخوفه. وناقش موضوع اختراق الجيش الإسرائيلي بواسطة المتحمسين الدينيين والتأثير القوى للمستوطنين المتدينين على الوحدات المتمركزة في الأراضي المحتلة. وتوصل إلى أنه: «الآن يجب على قيادة الجيش أن تتأكد من أن كل وحدات الجيش خاضعة للإشراف، فالضباط، وحتى الوحدات التي كانت مشتركة لمدة طويلة في التفاوض مع المستوطنين المتدينين وحمايتهم وأقامت علاقات قوية معهم، يجب استبعادهم في الوقت الحالي».

واعتبر كيمرلنج هذه التوصية الحل البديل الوحيد.

ولم توافق القيادة العليا للجيش على ذلك، وكذلك معظم الجمهور المجامل في هذا الوقت. وأدرك كيمرلنج أنه «على المدى الطويل» لن تكون المشكلة الناشئة عن هذا الوضع قابلة للحل، بدون تغيير عميق في المجتمع. وكتب يقول: «من ناحية، من الصعب أن نرى كيف يمكن للجيش، الذي لديه عدد كبير من الضباط المعتنقين لأيديولوجية المستوطنين المتدينين، أن يخلي مستوطنة يهودية. ومن ناحية أخرى أرى أنه من الصعب تخيل كيف يمكن للجيش الإسرائيلي أن يكون نقيا أيديولوجيا».

والجدير بالذكر أن هناك مخططين متفردين تم ابتكارهما لشباب الحزب الديني القومي على نحو منظم من أجل الخدمة واختراق الوحدات المقاتلة ووحدات الصفوة..

المخطط الأول تمت صياغته على شكل اتفاق لا يحكمه القانون بين طرفين مستقلين وهما وزارة الدفاع الإسرائيلية والنظار الحاخاميين للمدارس الدينية الهاسديرية التابعة للحزب الدينى القومى. فتبعا لهذا الاتفاق، يحصل طلاب المدرسة الدينية الهاسديرية على نوع معين من الخدمة العسكرية، فهم لا يلتحقون بالجيش بالطرق المعتادة، وعلى ذلك لا يخدمون بشكل متواصل لمدة ثلاثة أعوام فى الوحدات التى يحددها الجيش تبعا لاحتياجاته، والوحدات المعتادة للجيش تتكون دائما من جنود يحملون آراء دينية، وعلمانية مختلفة. أما طلاب المدارس الدينية الهاسديرية فإنهم بدلا من ذلك يلتحقون بالجيش كمجموعة واحدة ويخدمون فى معسكراتهم الخاصة المتجانسة، ويصاحبهم حاخاماتهم حيث يكونون مسئولين عن مراقبة «النقاء الدينى» لطلابهم، ويقضون فى الخدمة العسكرية ثمانية عشر شهرا فقط بدلا من ثلاث سنوات كاملة، وفترة الثمانية عشر شهرا لا تكون متصلة ولكنها تقسم إلى ثلاث فترات· كل منها مدتها ستة أشهر، وبعد كل مدة منها يقوم طلاب البيشفوت الهاسديرية بترك الجيش لمدة ستة أشهر لدراسة التلمود بالمدرسة الدينية، حيث يتم التخلص من الآثارالسلبية الخاصة بالالتقاء بالجنود اليهود العلمانيين. ويواصل جنود البيشفوت الهاسدير الخدمة فى وحدات الاحتياط فى ظل الظروف العادية. والضغوط السياسية التى مارستها جماعة جوش أمونيم، والتعاطف مع أعضائها من خلال جنرالات الجيش فى السبعينيات كان المسئول جزئيا عن هذا الاتفاق الخاص. ومع ذلك فإن السبب الرئيسى فى استمراره هو الأداء العسكرى الممتاز والسجل المشرف لطلاب المدرسة الدينية الهاسديرية.

فأداؤهم كان متفوقا على بقية جنود الجيش وكذلك ولاؤهم كان أقوى. ولم يكن هذا رأى الجنرالات فقط ولكنه كان رأى الجنود أيضا، فأثناء الأعوام الثلاثة لحرب لبنان (٨٢ - ١٩٨٥) وإبان القتال فى «المنطقة الأمنية» على سبيل المثال، واصل طلاب المدرسة الدينية القتال حتى بعد أن جرح وقتل عدد كبير من الجنود الإسرائيليين كما أن

وحدات الهاسدير أيضا كانت مميزة أثناء قمع الانتفاضة واشتهرت بوحشيتها مع الفلسطينيين، والتى كانت من خلال وجهات نظر متعددة أكثر قسوة من باقى وحدات الجيش الإسرائيلى، والتركيب المتجانس لوحدات مدرسة الهاسدير الدينية بالجيش كان سببا آخر لاستمرار هذا الاتفاق الخاص، وحينما كان الضباط القادة يرغبون فى إنزال عقاب وحشى بالفلسطينيين أو غيرهم فإنهم فى الغالب يعتمدون على استخدام الجنود المتدينين، أما فى الوحدات العادية، التى تتألف من جنود يحملون وجهات نظر سياسية متنوعة، فإن بعض أفرادها يمكن أن يعترضوا على الوحشية غير المشروعة وربما كانوا يبلغون وسائل الإعلام بذلك. أما فى وحدات الهاسدير، حيث يكون الجنود المتدينون أكثر وحشية من معظم الجنود العلمانيين، فإنهم لا يعترضون على الأوامر.

ومنذ عام ١٩٩٦، حينما أشارت الدلائل إلى أن عضوية المدارس الدينية الهاسديرية كفت عن الازدياد، وربما تبدأ فى التناقص، أصبح نظام الأكاديمية الدينية قبل - العسكري هو الوسيلة الرئيسية للاختراق المنظم لأنصار الحزب الدينى القومى لصفوف الجيش الإسرائيلى.

ومن خلال هذا النظام فإن الشباب، فى سن الثمانية عشر عاما، الذين يلتحقون بالأكاديميات الدينية ما قبل - العسكرية يتم إعطاؤهم تأجيلا لمدة عام أو عام ونصف للدراسة. وبعد ذلك يخدمون لمدة ثلاثة أعوام فى الوحدات المقاتلة أو وحدات الصفوة، والمدرسون فى هذه الأكاديميات فى معظمهم ليسوا حاخامات ولكنهم ضباط سابقون فى الجيش حاصلون على بعض المعرفة التلمودية. ويخصص جانب صغير من التعليم للمواد العسكرية والتدريب على المشى وقوة التحمل. ويخصص الجانب الأكبر من وقت الدراسة لتلك الأجزاء من التلمود والمواد الدينية الأخرى التى تغرس الولاء بأرض إسرائيل والقيم الأخرى المحبذة بواسطة جوش أمونيم، وهذه الحياة الأكاديمية ما قبل العسكرية المتقشفة تكون جذابة للشباب المتدينين الذين غالبا ما يكونون

ضد أسلوب الحياة المنغمس فى اللذة الدنيوية للشباب الإسرائيلى العلمانى. ومنذ افتتاحها والأكاديميات ما قبل العسكرية توجد فى مستوطنات الأراضى المحتلة، وقام الجيش منذ البداية بمساعدة هذه الأكاديميات إلى حد ما، ولكن الجانب الأكبر من الدعم المالى كان يأتى من المتبرعين، ومعظم خريجى هذه الأكاديميات قبل - العسكرية يتم إعدادهم بشكل جيد مقدما لصفوف الضباط. وبسبب إيمانهم بأن الجيش الإسرائيلى هو جيش مقدس، فإن أولئك الذين يتخرجون من هذه الأكاديميات يخدمون لمدة ثلاث سنوات كاملة. ويقضى البعض منهم فترة زمنية أطول ويصبحون ضباطا عاملين بالجيش.

بعد اغتيال رابين، بدأ الكثير من الإسرائيليين فى النظر إلى ازدياد عدد أنصار الحزب الدينى القومى باعتباره تهديدا للحكومة وللنظام الإسرائيلى ككل. وقام ران إدليست بمناقشة هذا الموضوع بإيجاز فى مقاله المنشور فى ١٣ سبتمبر ١٩٩٦ بصحيفة «أورشليم» الناطقة بالعبرية، بعنوان «أولا سوف نغزو المحكمة العليا، وبعد ذلك الأركان العامة». وعنوان هذا المقال يتحدث عن الرغبة فى اختراق وغزو المؤسسات الأكبر أهمية فى دولة إسرائيل. وعند مناقشة الأهداف العامة للحق الدينى المسيانى، الذى يكون فيه المستوطنون المتدينون حراسه الأشداء، كتب إدلست يقول:

«إن مؤسساتهم لديها قدرة على الاحتمال تشبه تلك التى لدى عداء المسافات الطويلة، حيث إنهم يؤمنون بالحياة الأبدية للأمة اليهودية، ويعدون فى هذا الإطار أربعة محاور للمعركة من أجل أرض إسرائيل: المستوطنات، والدعم المالى، والتعليم، وإدخال رجالهم فى الجيش من أجل تحقيق الهيمنة على هيئة الأركان. وهذه ليست مؤامرة ولكنه تقدير هادئ للموقف القومى فى صراعهم من أجل الصورة المستقبلية للمجتمع الإسرائيلى واستغلالهم للحكومة الانتهازية من أجل ملء خزائنهم، إن القضية ليست قضية الخير والشر، ولكنها صراع على شخصية دولة إسرائيل، ويستخدم الجناح اليمينى المتدين المدخل.

الشرعى من أجل غزو مواقع السلطة والتى تحتل «الأركان العامة» للجيش موقع الصدارة فيها. وقد يقال أنه منذ إنشاء إسرائيل والشعار السرى للساسة الإسرائيليين يتمثل فى «سوف نقوم أولا بغزو جهاز الأمن وبعد ذلك الكنيست والحكومة». وفعل بن جوريون هذا حين أزاح شاريت ولافون. وكان شعار جولدا مائير هو «الحزب هو كل شيء» ومنذ ذلك الوقت وحزب العمل يسيطر على «الأركان العامة» وأصبحت هذه السيطرة عتيقة لدرجة أن بيجن وشامير، فى فترات رئاستيهما للوزراء لم ينجحا فى تغيير ذلك، وقاما بتكوين هيئة أركان أخرى تخضع لأيديولوجيتيهما».

ومن خلال فهمهم للسياسة الإسرائيلية ، قام المستوطنون المتدينون بابتكار وتطوير خطتهم الخاصة باختراق الجيش، وضباطه، وفى النهاية هيئة أركانه العامة، وكتب إدلست فى ذلك يقول:

«أدرك المستوطنون المتدينون أنه من خلال معونة السياسة الحزبية، وأيديولوجياتها فقط لن يمكنهم المضى قدما وتحقيق دولة إسرائيل طبقا للحدود التى وعد بها الرب. فإذا كانوا يريدون أن تكون لهم قدم فى كل مكان تتخذ فيه القرارات المهمة وخاصة فى الجيش ككل وهيئة الأركان على وجه الخصوص، فإنهم يجب أن يكون لهم ممثلون فى هذه الأماكن، فأولا يتم تحديد الهدف وبعد ذلك يتم تقرير وسائل تحقيق هذا الهدف».

وأصبحت المدارس الدينية الهاسديرية والأكاديميات الدينية قبل العسكرية هى هذه الوسائل.

وهناك مراقبون ومعلقون إسرائيليون آخرون قدموا تحليلات مشابهة، ففى مقاله بجريدة ها آرتس بتاريخ ٢٤ يناير ١٩٩٧ ، بعنوان «جيش الله» قام إيدان ميللر على سبيل المثال، بوصف وجهات نظر د. ريفين جال، الذى عمل كرئيس للأطباء النفسيين بالجيش الإسرائيلى فيما بين ١٩٧٦ و١٩٨٢ وأصبح بعد ذلك مديرا لمعهد كارمل الشهير للبحوث العسكرية والاجتماعية، وقام د. جال، تبعا لميللر، بتلخيص

البيانات المتعلقة بالتطوع للخدمة فى الوحدات المقاتلة ابتداء من عام ١٩٩٤، وحتى عام ١٩٩٦ وقارنها بالبيانات المقابلة لها فى عام ١٩٨٩.

وأفاد تقرير د. جال أنه بينما كانت نسبة الشباب العلمانى الراغب فى الخدمة فى الوحدات المقاتلة تبلغ ٦٠٪ عام ١٩٨٩، فإن هذه النسبة انخفضت فى الفترة من ١٩٩٣ إلى ١٩٩٦ إلى ٤٨٪. وحدث الجانب الأعظم من هذا الانخفاض فى الفترة من ١٩٩٥ إلى ١٩٩٦، وكان الانخفاض أكبر ما يمكن فى مواقع الكيبوتسات العلمانية التى تحتوى على أغلبية من اليساريين. فكان الانخفاض من ٨٣٪ عام ١٩٨٩ إلى ٨٥٪ فى الفترة من ١٩٩٣ إلى ١٩٩٦، وإذا قارنا ذلك بالشباب المتدين نجد أن نسبة من يرغبون فى التطوع فى الوحدات المقاتلة ظلت ثابتة عند ٨٠٪، أثناء نفس الفترة الزمنية. وفى الكيبوتسات المتدينة، تصل هذه النسبة إلى ٩٠٪، وقبل اتفاق أوسلو كانت الغالبية العظمى من الشباب المتدين التى تدخل الجيش تعتبر أمر القائد أعلى من أى أمر من أى حاخام. ولكن تغير هذا بحلول عام ١٩٩٦. فمن خلال الاستشهاد بملخص د. جال، كتب ميللر يقول: «بالنسبة لقطاع كبير من الشباب المتدين أصبح أمر الحاخام موازيا وفى بعض الأحيان أعلى من أمر القائد».

أدى نشر هذه النتائج إلى قلق الكثير من اليهود العلمانيين وحاولوا الحصول على فرص لشبابهم للعمل فى مجالات شبيهة بتلك المتاحة للشباب المتدين، كما طالبوا بإقامة أكاديميات قبل - عسكرية دينية. ومع ذلك، أثناء العامين الأولين من حكومة نتنياهو، حينما أصاب عملية أوسلو الركود، ازداد عدد الشباب العلمانيين الذين تطوعوا للخدمة فى الوحدات المقاتلة إلى مستوى غير مسبوق منذ السبعينيات. وأدى ذلك إلى التأثير بشكل سلبى على محاولات اليمين المسيانى المتدين لاختراق الجيش،. ولأنه يشكل فقط من ٦ إلى ٧٪ من اليهود الإسرائيليين، اعتمد اليمين المسيانى المتدين على غياب الدافع لدى

اليهود الآخرين للعمل فى الوحدات المقاتلة من أجل اختراق الجيش.

إبان انتخاب نتنياهو لرئاسة الوزراء فى عام ١٩٩٦، كان هناك عاملان دفعا المزيد من اليهود الإسرائيليين للتطوع فى الوحدات المقاتلة. الأول هو تزايد مستوى العداء العربى تجاه إسرائيل وتجاه حكومتها المنتخبة كما قام بعض القادة العرب بالتهديد بالحرب. واعتبر معظم الشباب اليهودى الإسرائيلى كل ذلك ليس له ما يبرره واستجاب بالطريقة الإسرائيلية التقليدية، وهى الدفاع عن المزيد من التوجه العسكرى. أما العامل الثانى فقد نبع من إدراك أن حكومة نتنياهو عبارة عن ائتلاف جديد من الأقليات اليهودية مما أدى على نحو لم يحدث من قبل فى تاريخ دولة إسرائيل إلى السماح لأولئك الذين استبعدوا فى السابق من الفرص والإنجازات الاجتماعية المهمة بأن يحققوا مالم يحققوه من قبل. فللمرة الأولى فى التاريخ الإسرائيلى كان وزير الدفاع ورئيس الأركان من اليهود الشرقيين، وقام أعضاء الصفوة القدامى المتعاطفين مع حزب العمل بمعارضة هذين التعيينين، وأدى هذا إلى تشجيع اليهود الإسرائيليين الشباب غير القادمين من عائلات إشكنازية تناصر حزب العمل إلى محاولة العمل كضباط فى الجيش، ومعظم هؤلاء وأمثالهم من الشباب صغار السن كانوا يؤمنون فى السابق بأنهم لن يسمح لهم أبدا بأن يصبحوا ضباطا عاملين فى الجيش، وبالنسبة للطبقة ذات الدخل المنخفض من اليهود الإسرائيليين فإن المجال العسكرى برواتبه المرتفعة نسبيا يعتبر ذا منزلة مرتفعة، وكذلك له جاذبيته من الناحية الاقتصادية.

وباستثناء خبراء الكمبيوتر والأطباء المتخصصين الآخرين ذوى التعليم العالى، فإن الحصول على وظيفة جيدة يتطلب العمل فى إحدى وحدات القتال.

ومن المفارقات الساخرة، أن انهيار عملية أوسلو البغيضة أثر على نحو سلبى على المستوطنين المتدينين فى محاولاتهم لاختراق الجيش الإسرائيلى من أجل ممارسة نفوذ قوى على السياسة الإسرائيلية.

وأثناء الجانب الأعظم من الفترة التى كانت تمضى فيها عملية أوسلو قدما فى ظل حكومتى رابين وبيريز، ازدادت فرص المستوطنين المتدينين فى اختراق الجيش، وتناقصت فرص المستوطنين المتدينين فى صياغة سياسات إسرائيلية معينة بعد صعود نتنياهو والليكود إلى السلطة فى عام ١٩٩٦، وربما يقدم لنا هذا التطور مثالا لما يئول إليه مصير التعصب فى بعض الأحيان: فالجماعة المتعصبة تنمو وتزدهر حينما تشعر أنها فى خطر أو مهددة بواسطة القطاعات الأخرى من المجتمع الذى تعيش فيه. والعكس صحيح، حينما تواجه بمجتمع أصبح متحدا تجاه ما يعتقد أنه خطر خارجى يهدده، فإنها تكون أقل قدرة على اختراق المؤسسات الكبرى مثل الجيش والتأثير على السياسة الطويلة المدى.

6

الأهمية الحقيقية لباروخ جولدشتاين



■ نتانياهو



■ جولدشتاين

إن قصة المذبحة التى ارتكبها باروخ جولدشتاين فى الحرم الإبراهيمى بالخليل فى ٢٥ فبراير ١٩٩٤، معروفة جيدا. فقد دخل جولدشتاين إلى المسجد أثناء أداء المسلمين للصلاة وأطلق النار على المصلين فى ظهورهم، وقتل ٢٩ شخصا، من بينهم أطفال، وجرح الكثير. وفى هذا الفصل لن نقوم بوصف هذه المذبحة، ولكننا سوف نلقى الضوء على المجال المهنى لجولد شتاين قبل المذبحة وعلى ردود أفعال الحكومة الإسرائيلية والأصوليين اليهود تجاه المذبحة من وقت قليل من حدوثها.

وسوف نتوسع فى مناقشتنا لنصل إلى بعض التفاصيل حتى صيف ١٩٩٨.

وتقدم إحدى الخلفيات المهمة المتعلقة بجولدشتاين مثالاً واضحا يدل على مدى تأثير الأصولية اليهودية فى إسرائيل: فقبل وقت طويل من ارتكاب المذبحة، قام جولدشتاين باعتباره طبيبا يعمل بالجيش الإسرائيلى مرارا وتكرارا بخرق نظام الجيش من خلال رفضه معالجة العرب، حتى الذين يخدمون فى الجيش الإسرائيلى. ولم يوقع عليه أى جزاء، سواء عندما كان فى الخدمة الفعلية أو فى الاحتياط، بسبب هذا الرفض، وذلك لأنه حدث تدخل فى الأمر لصالحه، وقام المعلقون السياسيون بمناقشة هذه القصة فى الصحف العبرية على الرغم من عدم إشارة أى سياسى إسرائيلى إليها، وهذه القصة تستحق المزيد من البحث

التفصيلى فى سياق تحليلنا للأصولية اليهودية.

ففى مقاله المنشور فى ١ مارس ١٩٩٤، بجريدة «يديعوت أحرونوت»، كتب آريش كتسل، مراسل جريدة «دافار»، أن جولدشتاين، بعد هجرته إلى إسرائيل بوقت قليل وتكليفه بالعمل فى إحدى كتائب المدفعية العاملة فى لبنان كطبيب، رفض علاج الأغيار، وتبعا لما يقول كتسل، بعد رفضه علاج أحد المصابين العرب، صرح قائلا: «إننى لا أرغب فى علاج أى شخص غير يهودى. فأنا لا أعترف سوى بسلطتين دينيتين: ميمونيدس(*) وكاهانا»(**).

وكتب كتسل أيضا يقول:

«قام ثلاثة جنود دروز يخدمون فى كتيبة جولدشتاين بالتوجه إلى قائدهم وطلبوا منه تعيين طبيب آخر فى الكتيبة، لأنهم يخشون أن يصابوا ويرفض جولدشتاين علاجهم، وبسبب هذا الطلب تم نقل جولدشتاين إلى كتيبة أخرى. واستمر فى العمل كطبيب عسكرى فى الجيش العامل وفى الاحتياط، وبعد بضعة أعوام تم تكليفه بالعمل فى لواء الخليل الإقليمى بالقيادة المركزية، حيث كان يقضى فترة الاحتياط. وفور تلقيه هذا التكليف، أخطر قادته بأن عقيدته الدينية تمنعه من علاج العرب الجرحى أو المرضى، وطلب نقله إلى مكان آخر. وتمت الاستجابة لطلبه وتم تكليفه بالعمل فى وحدة احتياط تعمل فى جنوب لبنان».

وقدم عامير أورين، الذى أصبح بعد ذلك المراسل الحربى لجريدة «هاآرتس»، القصة الكاملة لعلاقات جولد شتاين بالجيش الإسرائيلى والمؤسسة السياسية الإسرائيلية بأكملها فى مقاله المنشور بجريدة «دافار» فى يوم ٤ مارس. وتبعا لما قاله أورين، بعد انتخابات عام ١٩٨٤ والتشكيل اللاحق لحكومة الوحدة الوطنية، تناهى إلى علم

(*) وهى نسبة إلي أحد أهم رجال الدين اليهودي «موسي بن ميمون» صاحب أهم الكتب المشكلة للشريعة اليهودية وطبيب صلاح الدين الأيوبي.

(**) وهو الحاخام المتطرف «مائير كاهانا» الذي أسس جماعة «كاهانا» الإرهابية.

إسحاق رابين وزير الدفاع وموشيه ليفي رئيس الأركان رفض جولدشتاين علاج غير اليهود في لبنان. فكتب أورين يقول:

«عندما أصبح واضحا لرؤساء جولدشتاين رفضه علاج المرضى غير اليهود، أراد قادته في سلاح المدفعية وفي الخدمات الطبية تقديمه لمحاكمة عسكرية وطرده من الخدمة. واعتقدوا أن ذلك أمر سهل، لأن جولدشتاين تخرج فقط من البرنامج العسكري للضباط الأطباء. (فهو لم يحصل على تدريب ضابط مقاتل الذي يكون عادة شرطا أساسيا للالتحاق ببرنامج الضباط الأطباء) وعلم قادته أيضا أنه بينما كان يحضر برنامج الضباط الأطباء، أصبح مشهورا كمتطرف معاد للعرب».

وتبعا لتقارير الصحف العبرية الأخرى، طلب بعض زملاء جولدشتاين في البرنامج التدريبي طرده من البرنامج، ولكن رفض طلبهم. ويعقب أورين على ذلك بالقول: «كان جولدشتاين يتمتع بحماية أشخاص في مناصب عليا بالوزارات المهمة وطلب هؤلاء أن يسمح لجولدشتاين بالخدمة في كريات أربع بدلا من الخدمة في كتيبة قتال». وبعد ذلك تطور الموقف إلى أن أصبح «سبب النزاع بين قائد الفيلق الطبي بالجيش والحاخام المشرف عليه».

ويواصل أورين القول:

«وفي النهاية فإن الموضوع المتصل بما يجب فعله مع ضابط رفض علنا إطاعة الأوامر اعتمادا على الهالاخاه(*) لم يحل أبدا حتى، ولو كان هذا الضابط يرفض تقديم المساعدة الطبية لجنود إسرائيليين أو أسرى حرب.

فهل يمكن ألا نصعق بسبب فشل الجيش في محاكمة جولدشتاين؟ فلماذا لم يصدر أي قرار بمحاكمته عبر كل التسلسل القيادي للجيش؟ هذا التسلسل القيادي الذي كان يحتوي على قائد الجبهة الشمالية الجنرال أوري أور «عضو الكنيست عن حزب العمل، والذي أصبح لاحقا

(*) الشريعة اليهودية

- فى عام ١٩٩٤ - رئيس لجنة الشئون الخارجية والدفاع بالكنيست. والجنرال عاموس يارون، الذى شغل وقتها منصب قائد قسم الأشغال. ولماذارفض اتخاذ أى قرار قبل استشارة الحاخام المسئول؟ ويعترف قادة الفيلق الطبى الذين كانت تتملكهم الحيرة منذ البداية، الآن«بعد المذبحة» أنهم كانوا يخشون من شيوع الموضوع مما يمكن أن يدفع الأحزاب الدينية وتكتلات المستوطنين المتدينين إلى جعل الأمور أسوأ مما هى عليه. وأدى الخوف من ذيوع الموضوع مرة أخرى إلى تشجيع قادة الجيش على الرضوخ بكل أنواع «الجولدشتاين»، بدلا من شجب آرائهم وتقديمهم لمحاكمة عسكرية».

أيد كثير من المصادر إشارة أورين إلى أن موقف جولدشتاين لا يمثل حالة فريدة. فالقصة التى قدمها أورين تكشف عن مدى تغلغل نفوذ الأحزاب الدينية فى الجيش الإسرائيلى. وموقف اليهود الأرثوذكس من غيراليهود، كما يدافع عنه الأب الروحى لجولدشتاين، الحاخام مائير كاهانا، كان ولايزال يمثل موقفا مبدئيا بالنسبة للأحزاب الدينية الرئيسية. وعلى ذلك، فإن هذا الموقف كان له تأثير قوى على الجيش الإسرائيلى. علاوة على ذلك، لو كان رابين وقادة الجيش الذين ذكرهم أورين لا يشعرون بأى ميل نحو وجهات نظر كاهانا وجولدشتاين، لما أرخوا العنان للأحزاب الدينية ولما ضحوا بكل اعتبارات النظام العسكرى.

فالسياسات الإسرائيلية، تجاه الفلسطينيين وعرب الشرق الأوسط الآخرين (الذين ينظر إليهم الصهاينة على أنهم غير يهود) وشعوب الدول الأخرى، يمكن تفسيرها فقط من خلال افتراض أنها تقوم على الإحساس المعادى للأغيار. والإحساس المعادى للأغيار يكون أقوى ما يمكن بين صفوف اليهود الأكثر تدينا ولكنه يوجد أيضا فى البيئة العلمانية. وهذا هو السبب فى أن مساندة جولدشتاين فى ١٩٨٤ و١٩٨٥ وجدت امتدادا لها فى اعتذارات الكثير من القادة الإسرائيليين عن المذبحة. تلك الاعتذارات التى كانت تستتر وراء غلالة رقيقة من

عبارات النفاق المعبرة عن الصدمة.

استمر رفض جولدشتاين تقديم العلاج الطبى الملائم لغير اليهود بعد أن تم نقله إلى كريات أربع. وفى مقاله المنشور بتاريخ ٢٧ فبراير ١٩٩٤ بجريدة يديعوت أحرونوت، كتب ناحوم بارنيا يقول:

«أبلغنى القائد العسكرى للجيش الإسرائيلى فى منطقة الخليل عن مواجهتين له مع باروخ جولدشتاين. المرة الثانية التى رآه فيها كان بصحبة بعض حمقى «كاخ»، حيث كانوا يسبون الرئيس عيزرا وايزمان أثناء زيارته لكريات أربع. أما المرة الأولى التى رآه فيها فكانت بعد أن قام أحد الجنود الإسرائيليين بإصابة أحد العرب المحليين فى ساقيه. وتم إحضار العربى إلى العيادة العسكرية للعلاج، ولكن جولدشتاين رفض علاجه. وكان لابد من استدعاء طبيب عسكرى آخر لكى يحل محل جولدشتاين. ولم يوضح الضابط لماذا لم يتم تنزيل رتبته ولكن سمح له بالاستمرار فى أداء واجباته فى الاحتياط.

ويعد سوء سلوكه أيضا خيانة للقسم الذى أقسمه عندما أصبح طبيبا، ولكن الجيش الإسرائيلى لا يلام فى ذلك».

أوضح بارنيا أيضا أن المؤسسة الإسرائيلية بأكملها، وليس فقط الجيش، كانت مسئولة عن التساهل مع جولدشتاين، رغم أفعاله الآثمة. واستمر هذا التساهل حتى حدوث المذبحة. فقط بعد حدوث المذبحة تحول الخط الرسمى إلى التعبير عن الصدمة المصحوبة بالتأكيد على أن تصرف جولدشتاين، إنما هو عمل فردى. وعلى ذلك، خلال الساعات الثلاثة الأولى بعد المذبحة أصر رابين وبطانته على أن جولدشتاين إما أنه مختل عقليا أو أنه طبيب مخلص، ولكن أصابه خلل عقلى مفاجىء. وكتب بارنيا يقول: «وخلال ساعات تم بناء صرح من التبرير المنطقى، ينص على أن جولدشتاين تعرض لضغوط ذهنية لا تحتمل، لأنه كان مضطرا لرؤية الكثير من الجرحى والقتلى، ومن بينهم عرب» والأشخاص الذين أذاعوا هذه الكذبة كانوا يعلمون أن جولدشتاين كان يرفض علاج العرب. وواصل بارنيا قائلا: «وبذلك، أصبح العرب

مذنبين فيما كان لا يستطيع تجنبه. ومعنى هذا أن العرب هم من اغتالوه وأنه لم يغتلهم، وأنه تصرف لمصلحة العرب عندما جعلهم يدركون فى النهاية أن الدم اليهودى لا يمكن أن يسفك دون عقاب» استمرت هذه الكذبة الوقحة لأطول وقت ممكن قبل أن يتم التخلى عنها دون اعتذار. وانتشار هذه الكذبة يكشف عن مدى تأثير الأصولية اليهودية على القطاعات العلمانية من المؤسسة الإسرائيلية.

وكان جولدشتاين يعبر عن الأصولية اليهودية فى أقصى مستويات تطرفها.

وكان بعض زعماء جوش أمونيم فى وقت المذبحة أقل تطرفا منه بمقدار ضئيل. وقام بارنيا بمقارنة موقف جولدشتاين من غير اليهود بموقف الحاخام لفنجر، أحد زعماء جوش أمونيم والذى أجرى معه مقابلة شخصية فى يوم المذبحة:

«كان لفنجر فى حالة مزاجية جيدة، فبعد أن تحدث عن كيف يجب على المستوطنين المتدينين الاستجابة للمذبحة، كان قبل وقت قصير قد فاز فى مناظرة مدتها ثلاث ساعات فى جلسة ببلدية كريات أربع. فقد اقترح سكرتير مجلس الضفة الغربية وغزة، أورى آرئييل، (الذى أصبح مديرا لمكتب رئيس الوزراء فى عام ١٩٩٨) إدانة المذبحة. استخدم لفنجر سلطته من أجل تمرير اقتراح بديل يقول بوجوب إدانة الحكومة الإسرائيلية بسبب وضعها جولدشتاين فى ظل ضغوط عقلية لا تحتمل (دفعته إلى هذا العمل).

وفى أثناء المناقشة تم تجنب استخدام ألفاظ «القتل» أو «المذبحة» أو «جريمة القتل»، وبدلا من ذلك تم استخدام ألفاظ «العمل» أو «الحدث» أو «الحادث». وسبب ذلك هو أنه تبعا للهالاخاه فإن قيام يهودى بقتل غير يهودى تحت أى ظرف لا يعتبر جريمة قتل. ولكنه يمكن أن يحظر لأسباب أخرى، وخاصة حينما يشكل خطرا على اليهود، وفى كثير من الحالات فإن الشعور الحقيقى المتعلق بقيام يهودى بقتل غير يهودى يعبر عنه فى إسرائيل من خلال عدم العقاب، حسب الشريعة اليهودية.

وأخبر لفنجر بارنيا أن القرار هو «الإعراب على نحو عابر عن الأسى للموتى العرب على الرغم من أن ذلك يؤكد على مسئولية الحكومة».

وحينما سأله بارنيا عما إذا كان يشعر بالأسف، أجاب لفنجر: «إننى لست آسفا فقط على الموتى العرب ولكننى آسف أيضا بشأن الطيور التى تموت».

رفض جولدشتاين من حيث المبدأ علاج غير اليهود قبل سنوات طوال من المذبحة. وقد عمل كطبيب محلى فى كريات أربع وعالج العرب فقط حينما لم يكن باستطاعته تجنب ذلك. واستشهد بارنيا بأحد زملاء جولدشتاين فى عيادة كريات أربع الذى قال: «حينما وصل جولدشتاين إلى موقع حادث مرور وأدرك وجود بعض المصابين العرب قام بالعناية بهم ولكن فقط حتى يصل طبيب آخر. وبعد ذلك يتوقف عن علاجهم. وبهذه الطريقة فإنه يوفق بين القسم الذى أقسمه كطبيب وأيديولوجيته».

إن الهالاخاه تحظر ما قام به جولدشتاين من حيث رفضه علاج غير اليهود. فالهالاخاه تقول: إن الطبيب اليهودى الورع يمكنه أن يعالج الأغيار عندما يكون من المحتمل الإبلاغ عن سلوكه إلى السلطات، ويؤدى ذلك إلى حدوث متاعب له أو ليهود آخرين. وهناك سبب للاعتقاد بأنه عندما يضطر طبيب ورع مثل جولدشتاين أن يعالج عربا فإنه يتصرف على النحو الذى تصرف به.

وفى المقال الذى أشرنا إليه آنفا بصحيفة يديعوت، أضاف آريش كتسل أن الجيش الإسرائيلى وجد أن سلوك جولدشتاين لا يستوجب توقيع أية عقوبات عليه. وكتب مراسل صحيفة «معاريف» فى مقاله المنشور بتاريخ ٨ مارس ١٩٩٤ أن سجل الخدمة العسكرية لجولدشتاين كان مميزا بدرجة تجعله مؤهلا لنيل ترقية شرفية، لينتقل من رتبة الكابتن إلى رتبة الميجور وقد كان من المقرر أن يمنحه رئيس إسرائيل هذه الترقية فى يوم ١٤ أبريل عام ١٩٩٤، فى ذكرى قيام إسرائيل، فقط موت جولدشتاين، الذى حدث فى نفس وقت وقوع

المذبحة هو الذى أدى إلى منع حدوث الترقية الفضيحة.

وهناك مثال أوضح يدل على مدى تأثير الأصولية اليهودية على الجانب العلمانى من المؤسسة الإسرائيلية يمكن أن يستشف من خلال التنظيم الرسمى لجنازة جولدشتاين التى رتبت بعناية فائقة فى الوقت الذى لم يكن يمكن فيه إنكار الطبيعة المتعمدة للمذبحة. فلقد تأثرت المؤسسة الإسرائيلية بالحقيقة التى سجلتها الصحف العبرية على نحو موسع ولكنها لم تعط إلا مساحة قليلة فى الصحف الأجنبية، وهى أنه خلال اليومين اللاحقين على المذبحة تمت تغطية حوائط الأحياء الدينية فى القدس الغربية «والكثير من الأحياء الدينية الأخرى ولكن بدرجة أقل» بالملصقات التى تمجد فضائل جولدشتاين وتأسف لأنه لم يقتل المزيد من العرب. وقام أطفال المستوطنين اليهود الذين جاءوا إلى القدس بارتداء ملابس رياضية لمدة شهور بعد المذبحة كتب عليها «جولدشتاين شفى أوجاع إسرائيل»، كما تحولت العديد من الحفلات الموسيقية الدينية ومناسبات أخرى إلى تظاهرات لتحية جولدشتاين. وقامت الصحافة العبرية بتسجيل هذه الاحتفالات الشعبية بالتفصيل الممل. ولم يقم أى سياسى بارز بالاحتجاج على هذه الاحتفالات.

كان الرئيس فايتسمان هو الأكثر مبالغة فى التعبير عن مدى أسفه لحدوث المذبحة، وكان فايتسمان أيضا، كما كتب عوزى بنزيمان فى مقاله بجريدة ها آرتس فى ٤ مارس ١٩٩٤، منخرطا فى مفاوضات مطولة وودية مع عائلة جولدشتاين ورفاقه فى كاخ من أجل إعداد جنازة مشرفة تليق بالقاتل. كما طالب مستوطنو كريات أربع، الذين أعلن الكثير منهم تأييدهم للقاتل بالجملة فى اللقاءات التى أجريت معهم بالإذاعة والتليفزيون وأثنوا على جولدشتاين كشهيد ورجل مقدس، طالبوا الجنرال ياتوم، القائد المسئول عن منطقة الخليل بأن يسمح للموكب الجنائزى بأن يمر عبر مدينة الخليل لكى يراه العرب على الرغم من حظر التجول المفروض على المدينة. لم يعترض ياتوم على الطلب من حيث المبدأ، ولكنه اعترض عليه بسبب ما يمكن أن يسببه من

اضطراب، وقام تسفي كاتسوفر، عمدة كريات أربع وأحد زعماء المستوطنين المتدينين الأكثر تطرفا، بالاتصال بفايتسمان تليفونيا وهدده بأن المستوطنين إذا لم ينفذ طلبهم قد يرتكبون مذبحة ضد العرب. وقام فايتسمان بالاتصال برئيس الأركان وسأله عن سبب رفض الجيش لمطلب المستوطنين وتبعا لما قاله بنزيمان، أجاب باراك رئيس الأركان بالقول: «إن الجيش يخشى من أن يقوم العرب بنبش مقبرة جولدشتاين وإلقاء جثته». وفى المفاوضات اللاحقة التى ضمت باراك وياتوم ورابين وزعماء كاخ ومستوطنى كريات أربع، تبنى فايتسمان موقفا مؤداه، كما ذكر بنزيمان أن: «الجيش يجب أن يبدى احترامه لرغبات ومشاعر المستوطنين وأسرة جولدشتاين» وفى النهاية، تم اتخاذ قرار بأن تقام جنازة جماهيرية فى القدس، وأن تقوم الشرطة بإغلاق بعض الشوارع الأكثر ازدحاما أمام المرور إكراما لجولدشتاين. وبعد ذلك يتم دفن القاتل فى كريات أربع عبر امتداد طريق كاهانا.

وتبعا لما كتبه بنزيمان، رفض زعماء كاخ فى أول الأمر هذا الاقتراح. وقام الجنرال ياتوم بالالتقاء بزعماء كاخ بشكل شخصى واستعطفهم فى تذلل لكى يوافقوا على الاقتراح، وفى النهاية حصل على مبتغاه. وكان على ياتوم أيضا أن يحصل على موافقة حاخام كريات أربع الشهير، دوف ليور. وكما جاء فى عدد صحيفة «جيروزاليم بوست» الصادر فى ٤ مارس ١٩٩٤، أعلن ليور أنه :«بما أن جولدشتاين فعل ما فعل باسم الله، فإنه يجب أن يعتبر رجلا صالحا». وقام بنزيمان بتفسير مسلك فايتسمان وبطانته قائلا: «بعد أن وقعت الواقعة يقوم مسئولو القصر الرئاسى بتبرير الأحداث من خلال الحاجة إلى تهدئة المستوطنين» وبعد الجنازة قام الجيش بتوفير حرس شرف لمقبرة جولدشتاين.

أصبحت المقبرة مكانا يحج إليه، ليس فقط من قبل المستوطنين المتدينين، ولكنه أيضا بالنسبة لوفود اليهود الأتقياء من كل المدن الإسرائيلية.

وتفاصيل جنازة جولدشتاين كما تم وضعها فى مكتب الرئيس فايتسمان لها مغزاها المهم. والحقائق التالية تم أخذ معظمها من تقرير ألانا باوم وتسفى سنجر، الذى نشر فى صحيفة يديعوت أحرونوت فى ٢٨ فبراير ١٩٩٤ . جرت أحداث المرحلة الأولى من الجنازة فى القدس. وضمن المشيعين المقدر عددهم بنحو ألف شخص كان هناك القليل من مستوطنى كريات أربع. وأشار باوم وسنجر إلى أنه: «دون أن يلتقوا بجولدشتاين شخصيا، فإن مشيعين آخرين معظمهم من القدس كانوا معجبين متحمسين لما فعله. وكان هناك الكثيرون من طلاب الياشيفاه «المدارس الدينية». وهناك مجموعة كبيرة كانت تمثل حركة حاباو الحسيدية ومجموعة أخرى كانت مكونة من حسيدى ساتمار «المعادين للصهيونية» وكانت هناك حركات حسيدية أخرى ممثلة على نحو جيد. «ولم يذكر فى الصحافة الناطقة بالإنجليزية، أن جولدشتاين، تابع كاهانا، كان أيضا تابعا للحاخام لوبو فتشر» واصل باوم وسنجر قائلين:

«كان الناس المنتظرون وصول الجثمان يرددون :

«يا له من بطل! يا له من رجل صالح! لقد فعل ذلك بالنيابة عنا جميعا» وكما هو معتاد فى اجتماعات اليهود المتدينين، تحول كل المشاركين إلى شخصية جماعية واحدة يجمعها العداء المشتعل نحو وسائل الإعلام الإسرائيلية، والحكومة الإسرائيلية الآثمة، وأى شخص يجرؤ على التحدث ضد القاتل».

وقبل بداية الجنازة قام مشاهير الحاخامات بتأبين جولدشتاين وأثنوا على القاتل. وقال الحاخام إسرائيل آرئييل، على سبيل المثال، «إن الشهيد المقدس باروخ جولدشتاين هو منذ الآن شفيعنا فى الفردوس. إن جولدشتاين لم يتصرف كفرد ولكنه سمع صراخ أرض إسرائيل، التى تسلب منا يوما بعد يوم بواسطة المسلمين. لقد فعل ذلك لكى يغيث الأرض» وفى نهاية خطبة التأبين أضاف الحاخام آرئييل:
«سوف يرث اليهود الأرض ليس من خلال معاهدة سلام ولكن فقط من

خلال إراقة الدماء» وقام بن شوشان يشوع، عضو إحدى المنظمات السرية، الذى حكم عليه بالسجن مدى الحياة بتهمة القتل وتم العفو عنه بعد بضع سنوات قضاها فى ظروف تضاهى الإقامة فى فندق خمسة نجوم، قام بالثناء على جولدشتاين ومدح تصرفه كنموذج يجب أن يحتذيه اليهود الآخرون.

وقام حرس الحدود والشرطة والشرطة السرية بحماية موكب الجنازة. وعلق باوم وسنجر على ذلك بالقول:

«قامت وحدة كاملة من حرس الحدود بالسير أمام الجنازة وتبعها أعضاء جماعة كاهانا الشباب من القدس الذين كانوا يصرخون قائلين: «الموت للعرب».

وبينما كانوا يبحثون عن أى عربى لكى يقتلوه، فإنهم لم يجدوا ما يبحثون عنه، وشاهد أحد حرس الحدود فجأة أحد العرب يقترب من موكب الجنازة خلف أحد الحواجز المنخفضة. فقام الحارس على الفور بالقفز فوق الحاجز وأوقفه وقاده إلى مكان آمن قبل أن يلحظ ذلك أحد، وبذلك فإنه أنقذه من الإعدام الذى كان ينتظره».

وخلف أعضاء جماعة كاهانا الشباب سار النعش الذى كان محاطا بزعماء الجماعات المنشقة عن كاهانا، والذين كان بعضهم مطلوبا من الشرطة. (زعمت الشرطة وكذلك الشرطة السرية لاحقا أنها لم تتعرف على أولئك الزعماء المطلوبين. وتعرف عليهم مراسلو الصحف بسهولة).

وكتب باوم يقول:

«منحنى تيران بولاك، أحد زعماء جماعة كاهانا المطلوبين من الشرطة، مقابلة شخصية بالقرب من النعش. وقال لى «إن جولدشتاين ليس فقط صالحا ومقدسا ولكنه أيضا شهيد. وبما أنه شهيد فإن جثمانه يجب أن يدفن دون أن يغسل، ليس فى كفن ولكن فى ثيابه. لقد رفض د. جولدشتاين المبجل دائما أن يعالج العرب. وحتى أثناء الحرب من أجل الجليل رفض علاج العرب، حتى من يخدمون بالجيش الإسرائيلى.

فى ذلك الوقت، قام الجنرال جاد نافون، الحاخام الأعلى للجيش الإسرائيلى، بالاتصال بمائير كاهانا لكى يطلب منه إقناع باروخ جولدشتاين، طيب الله ثراه، بعلاج العرب. ومع ذلك رفض كاهانا القيام بذلك لأن ذلك يتعارض مع الديانة اليهودية وفجأة بدأ الجمع الحاشد فى الصراخ: «الموتٌ للصحفيين» تلفت من حولى وأدركت أننى الصحفى الوحيد داخل جموع المشيعين. تشبثت بتيران بولاك واستعطفته قائلا: «احمنى أرجوك»، كنت أرتعد رعبا من أن يدرك الجمع الحاشد شخصيتى».

قام الحرس التابع للجيش بنقل نعش جولدشتاين إلى كريات أربع عبر القرى الفلسطينية، وفى قاعة المؤسسة العسكرية «هاسدير ياشيفاه نير» بدأت جولة ثانية من خطب التأبين بواسطة مجموعة متنوعة من المستوطنين المتدينين، بما فيهم الحاخام دوف ليور الآنف الذكر. وقال ليور :«:كان جولدشتاين مليئا بالحب لإخوانه البشر. فقد وهب نفسه لمعاونة الآخرين». ومصطلحا «البشر» و«الآخرين» فى الهالاخاه يشيران فقط إلى اليهود. وواصل ليور قائلا: «لم يستطع جولدشتاين تحمل الذل والعار المفروض علينا هذه الأيام ولذلك قام بما قام به لسبب واحد فقط هو تطهير اسم الله المقدس».

قام توحاى هاكاح بنشر خطبة تأبين أخرى لجولدشتاين من الحاخام ليور بعد بضعة أيام من الجنازة، وذلك فى جريدة «أورشليم» بتاريخ ٤ مارس ١٩٩٤ وذكر أن ليور قد انتقد منذ عدة سنوات مضت فى الصحافة بسبب اقتراحه إجراء التجارب الطبية على الإرهابيين.

وأدى الاحتجاج العنيف على هذا الاقتراح إلى دفع النائب العام إلى الحيلولة دون انتخابه المضمون فى المجلس الحاخامى الأعلى لإسرائيل. ومع ذلك، لم يتدخل النائب العام فى الواجبات الحاخامية الحالية لليور. وتحدثت الصحافة أيضا عن خطب تأبين أخرى تم إلقاؤها ليس فقط فى المستوطنات الدينية ولكن أيضا فى الأحياء الدينية

للكثير من المدن الإسرائيلية فى خلال الأيام القليلة اللاحقة على المذبحة، وكتابات الصحف العبرية عن هذه الخطب الخاصة بالتأبين تقترح أن الإطراء والثناء والمديح الغزير لجولدشتاين والمطالبة بالمزيد من المذابح للعرب جاء من الأحياء الدينية الأكثر تجانسا.

امتد قبول جولدشتاين وجريمة القتل الجماعى إلى ما وراء حدود المجتمع اليهودى المتدين، وقام اليهود الإسرائيليون العلمانيون، وخاصة الكثير من الشباب، بالثناء على جولدشتاين وصنائعه. ومسألة أن الشباب الإسرائيلى كان أكثر سعادة بحدوث المذبحة من الكبار تعتبر حقيقة تبرهن عليها المستندات والوثائق على نحو واضح. ومع ذلك فسوف نهتم هنا بالسكان الكبار الذين يعتبرون أكثر أهمية من وجوه متعددة، فتبعا لما كتبه أوفال كاتس فى مقاله الذى نشر فى ٤ مارس ١٩٩٤ بصحيفة «جيروزاليم بوست»، ليس صحيحا أنه «باستثناء بعض المختلين عقليا المعادين للمجتمع، فإن الأمة بأكملها وسياسييها، أدانت جولدشتاين، حتى على الرغم من - ولحسن حظنا - أن كل شبكات التليفزيون العالمية الكبرى كانت حتى الأسبوع الماضى لا تزال تتغذى على هذه الكذبة».

وأفاد كاتس كيف أن مذيعا تليفزيونيا شهيرا، وهو رافى ريشاف، لم يكن يتعرض للرقابة الصارمة كما يحدث للمعتدلين فى القنوات الرصينة، «أعلن هذا الأسبوع نتائج بعض استطلاعات الرأى الموثوق فيها».

وواصل كاتس مقاله قائلا:

«من المهم الإشارة إلى أنه، طبقا لأحد استطلاعات الرأى، أن حوالى ٥٠٪ من سكان كريات أربع يوافقون على المذبحة، والأمر الأكثر أهمية هو أن هناك استطلاعا آخر بين أن حوالى ٥٠٪ من اليهود الإسرائيليين يوافقون على المذبحة، ولكن على شرط ألا يطلق عليها وصف مذبحة ولكن تسمى «عملية الحرم الإبراهيمى»، وهو مصطلح ذو رنين جميل يستخدم بالفعل بواسطة المستوطنين المتدينين.

وذكر كاتس أن السياسيين والأكاديميين الذين التقى بهم ريشاف أخفقوا فى إدراك أهمية هذه النتائج. ومن خلال نسبتها إلى الصدفة البحتة، رفضوا التعليق عليها. ونزع كاتس إلى تلمس الأعذار لهم بقوله:

«إننى أفترض أن تلك الشخصيات العامة المشغولة دائما، إلى جانب أى شخص آخر استنفد جهده فى الحديث باسم الأمة، لم يتوافر لها الوقت للسير فى الشوارع فى الأيام الأخيرة. ومع ذلك، باستثناء الأحياء الراقية، يمكن أن نرى الناس وهم يبتسمون فى سعادة عندما يتحدثون عن المذبحة. وكان التعليق الشعبى السائد هو « بالطبع، يجب لوم جولدشتاين. فقد كان يمكنه الهرب بسهولة وفعل نفس الشىء فى أربعة مساجد أخرى ولكنه لم يفعل».

إن انطباع الكثير من الإسرائيليين الآخرين يتوافق مع النتائج التى أوردها ريشاف.

فكان الناس منقسمين إلى فئتين متساويتين: من هم متحمسون للمذبحة إلى أقصى مدى، ومن ظلوا صامتين وأدانوا المذبحة فقط عندما شجعوا على ذلك. وواصل كاتس حديثه قائلا:

«ولهذا، كان هذا هو الوقت المناسب للتوصل فى النهاية إلى نتيجة واضحة مؤداها أننا نحن معشر اليهود لسنا أكثر إحساسا ولا أكثر رحمة من الأغيار. فالكثير من اليهود قد برمجوا بنفس برنامج الكمبيوتر العنصرى الذى يشكل الغالبية العظمى من دول العالم. ويجب أن ندرك أن تقدمنا المزعوم فى الديمقراطية. والمعتقدات التقدمية، فشل فى التأثيرفي الأشكال العتيقة للقبلية اليهودية. وأولئك الذين مازالوا يخدعون أنفسهم بالقول بأن اليهود مختلفون عن سائر شعوب الأمم الأخرى يجب أن يفيقوا من الوهم. وطلقات الرصاص التى انطلقت من بندقية جولدشتاين تعتبر فرصة سانحة لكى يتعلموا شيئا».

لم يلتفت إلى تعليقات كاتس الحكيمة إلا نفر قليل من المجتمع الإسرائيلى. ربما لو انتبه لكلمات كاتس عدد أكبر من الناس لما قتل إسحاق رابين.

وفى رأى مؤلفى هذا الكتاب، أن الفرق المهم بين الصدمة الحقيقية التى حدثت بسبب اغتيال رابين وعدم حدوث صدمة بسبب مذبحة جولدشتاين يكمن فى الحقيقة الممثلة فى أن ضحايا جولدشتاين كانوا من غير اليهود.

وعلى الرغم من حدوث ذلك على نحو أقل مباشرة من كاتس، قام الكثير من المعلقين الآخرين فى الصحف العبرية الإسرائيلية بالتركيز على ذلك الجانب من الجمهور اليهودى الإسرائيلى الذى أصيب بالصدمة من جراء الابتهاج بقتل الأبرياء، ولهجة التبرير التى استخدمت بواسطة الكثير من الساسة والشخصيات العامة، ووصف أولئك الذين أصابتهم الصدمة مؤيدى ومبررى أفعال جولدشتاين بأنهم «نازيون» أو «أشباه النازيين»، ونفس هؤلاء الأشخاص، الذين يمكن اعتبارهم صقورا معتدلين وليسوا صهاينة حمائم، هم من كانت ردود أفعالهم سلبية تجاه استخدام بعض النقاد اليهود الإسرائيليين لهذه المصطلحات فى وصف قطاع من المجتمع اليهودى الإسرائيلى قبل المذبحة. ونفس هؤلاء «الصقور المعتدلين» هم من اعتادوا تسمية الكثير من المنظمات العربية، مثل جماعة أبو نضال والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين «بالنازية» أو «أشباه النازية». وهم لم يتخلوا عن وجهات نظرهم المتعلقة بهذه المنظمات العربية، ولكنهم فقط توصلوا إلى أن بعض اليهود أفرادا ومنظمات تنطبق عليهم نفس المواصفات، وقام الصحفى الشهير تيدى بريس بتأمل كل ذلك بطريقة أكثر حدة ولكنها أكثر تعبيرا فى مقاله المنشور بصحيفة «دافار» بتاريخ ٤ مارس ١٩٩٤ :

«مقارنة بالعدد الهائل من جرائم القتل الجماعى التى ارتكبها أوسشفيتس، يعتبر جولدشتاين قاتلا تافها. فعباراته المسجلة وعبارات رفاقه تثبت أنهم كانوا يرغبون فى القضاء على مليونى فلسطينى على الأقل عندما تحين الفرصة. وهذا يجعل جولدشتاين من الممكن أن يقارن بدكتور منجل، ونفس الشىء ينطبق على أى شخص يقول بأنه يرحب بالمزيد من هذه الاحتفالات بالأعياد الدينية. (حدثت المذبحة فى عيد البوريم) دعونا لا نغمط جولدشتاين حقه من خلال مقارنته بأحد أعضاء محكمة التفتيش أو بمقاتل ينتمى لمنظمة الجهاد الإسلامية.

فلو أبدى الوثنى استعداده للدخول فى المسيحية أو الإسلام لأصبح دمه حراما بالنسبة لعضو محكمة التفتيش فى الحالة الأولى ومقاتل الجهاد الإسلامى فى الحالة الثانية. أما جولدشتاين والمعجبون به فلا يهمهم دخول العرب فى اليهودية. فكما تشهد عباراتهم، فإنهم لايرون فى العرب سوى فئران تنشر الأمراض أو قمل أو أى مخلوقات أخرى كريهة، وهذا تماما ما كان يؤمن به النازيون من حيث امتلاك الجنس الآرى لكل سمات التفوق التى يتم توارثها، ولكنها يمكن أن تتلوث من خلال الاتصال باليهود الأقذار والمقرفين. وكاهانا، الذى لم يتعلم شيئا من قوانين نورمبرج، يقول نفس الكلام عن العرب».

نعم إن كاهانا يقول نفس الشيء عن العرب، وعلى الرغم من أنهم قاموا بذلك على نحو أقل حدة من بريس، اقترح معلقون إسرائيليون آخرون نفس المضمون. وعلى النقيض من النقد السابق فإن هناك تعليقات أكثر عددا تناولت الضرر الذى سببته مذبحة جولدشتاين لليهود الإسرائيليين. ففى الملحق الاقتصادى لجريدة هاآرتس بتاريخ ٢٨ فبراير ١٩٤٤، على سبيل المثال، كان هناك عنوان رئيسى يقول: «مذبحة جولدشتاين تنزل كارثة بسوق تل أبيب للأوراق المالية». وعبرت صحف أخرى عن آراء مشابهة. الأمر الأكثر أهمية، هو قيام شيمون بيريز وساسة حمائم كبار آخرين بتقديم اعتذار سياسى من خلال نقدهم للمذبحة، فى أحد اجتماعات لجنة الشئون الخارجية والدفاع بالكنيست. وهناك تفاصيل معينة لهذا الاجتماع تم إيرادها فيما يلى من أجل التعبير عن الآراء الحقيقية لمعظم الساسة الإسرائيليين وإغفالهم العام لمذبحة كبرى لغير اليهود فيما عدا تلك الجوانب المتصلة بمصالح إسرائيل وحلفائها. وتحدث مقال بتاريخ ٨ مارس ١٩٩٤ بجريدة ها آرتس عن المناقشة التى دارت فى هذا الاجتماع. فلم يضيع بيريز وقتا فى التعبير عن صدمته إزاء قتل الفلسطينيين ولكنه تحدث بدلا من ذلك عن الضرر الذى أصاب إسرائيل نتيجة «صور أجساد القتلى التى رآها العالم بأسره». ولم يشجب بيريز المستوطنين المتدينين المسلحين وهتافهم، ولكنه استنكر بشدة الضرر الواقع على إسرائيل وعليهم بسبب ما يبدون

عليه. وبعد ذلك مضى بيريز يقول: «كانت لدينا كيبوتسات موجودة فى قلب المناطق المأهولة بالسكان العرب لمدة ٨٠ عاماً، ولا أستطيع أن أتذكر حالة واحدة حدثت فيها مثل هذه المذبحة أو إطلاق النار على حافلات الركاب العرب ولا التشويه العمدى للعرب». عند هذه النقطة قام أحد كبار سياسيى الليكود بمقاطعة بيريز. وكما جاء فى ها آرتس:

كان شارون هو أول من قاطع بيريز. فقال: «إن الكيبوتسات عزيزة على كما هى عزيزة عليك، ولكن كانت هناك الكثير من الحالات التى قام فيها شخص من الكيبوتس بالخروج لقتل العرب». ورد عليه بيريز بالقول : «إننا لا نستطيع المقارنة بين الحالتين، لأن الحالة الحالية يتبع القاتل فيها مجموعة كاملة من الأتباع». وقال بنى بيجن «لماذا تتحدث دائما على وجه العموم»؟. . وأجاب بيريز بالقول : «إننى لا أعمم. إننى أعتقد فقط أنه لكى ندفع عملية السلام فنحن نحتاج إلى منظمة التحرير الفلسطينية كشريك، والآن فإن هذه الشراكة تمر بظروف صعبة». ورد شارون بالقول : «إذن أنت تعنى أننا يجب أن نساعد ذلك القاتل «عرفات»!!

وهنا ضرب بيريز المنضدة بقبضة يده قائلا فى غضب: «وماذا عن المصريين الذين وقعتم معهم، أنتم الليكود، اتفاقية سلام؟ ألم يقتل المصريون يهودا؟ ما هو الفرق بين الحرب والإرهاب. فهل مقتل ١٦٠٠٠ جندى من جنودنا يصنع أى فرق؟ فى كل مكان تقوم الحكومات بعقد صفقات مع المنظمات الإرهابية». وتحدث نتنياهو قائلا: «لم تقم أى دولة بعقد أى اتفاق مع منظمة لا يزال هدفها يتمثل فى تدميرها. إن منظمة التحرير الفلسطينية لم تلغ الميثاق الفلسطينى. إنك تبحث الجريمة التى ارتكبت فى الخليل ليس من أجل طمأنة الشعب اليهودى الذى يعيش هناك، ولكن من أجل تنفيذ مخططك الذى يهدف إلى إنشاء دولة فلسطينية». وأجاب بيريز بالقول: «إنك أنت ومخططاتك السبب الذى سيؤدى إلى إنشاء دولة فلسطينية، لأنكم أنتم الليكود الذين خلقتم منظمة التحرير الفلسطينية فى مدريد. وأنتم الذين تحدثتم عن

الاستقلال خلافا لكل أهدافنا». وأجاب نتنياهو: «إن الاستقلال لا يعنى إنشاء دولة» وواصل بيريز القول: «ولكن شارون كان أول من أعلن أن الاستقلال مرتبط بقيام دولة فلسطينية. . إننى لست أقل إخلاصا منكم، وهذا هو السبب فى قيامى بتقديم تفسير أكثر تحفظا لمفهوم الاستقلال فى أوسلو وعلاقته بالأرض والحكم والسلطات. وهذا هو السبب فى رفضنا لوجود مراقبين دوليين وموافقتنا فقط على وجود مؤقت لممثلين من الدول المساهمة بالمال. وفيما يتعلق بالميثاق الفلسطينى، فإنهم أعلنوا إلغاءه بشكل علنى، ولكنهم يجدون أنه من الصعب اجتماع هيئاتهم للتصديق على هذا الإلغاء». ورد بيجن قائلا: «دعنى أذكرك أن منظمة التحرير لم تتعهد علنا بإلغاء الميثاق الفلسطينى». وأجاب بيريز بالقول: «إننى لا ألقى بالا لما تقول أو للتلاعب القانونى بالألفاظ الذى تحاوله. فعرفات أعلن إلغاء الميثاق الفلسطينى وبالنسبة لى فإن عرفات هو منظمة التحرير الفلسطينية».

تبين الفقرة السابقة، ضمن أشياء أخرى، أن التعرف على السياسة الإسرائيلية والشئون اليهودية عموما يمكن أن يتحقق كأفضل ما يكون من خلال استخدام المصادر الأصلية لما يقوله اليهود بين بعضهم البعض.

والعملية المستمرة للارتفاع بجولدشتاين إلى مصاف القديسين بواسطة جماعات اليهود الإسرائيليين وتأليهه بدأت مباشرة بعد ارتكاب المذبحة. ففى مقاله المنشور بتاريخ ٢٨ فبراير ١٩٩٤ بجريدة هاآرتس، قام صموئيل روزنر بتحليل الموعظة التى ألقيت يوم السبت اللاحق على المذبحة بواسطة الحاخام جورين، الحاخام العسكرى الأعلى السابق ورئيس حاخامات إسرائيل وقتها، فكتب روزنر يقول: «توصل جورين إلى أنه فى المرة القادمة يجب الحصول على تصريح قبل القيام بالمذبحة. وهذا التصريح يجب أن يؤخذ من المجتمع وليس من الحكومة غير الشرعية الحالية».

وأشار روزنر إلى أن الجمهور أعجب بموعظة جورين ولكنه كان

يفضل، كما يفضل ذلك الكثير من اليهود الإسرائيليين الآخرين، أن يقوم الجيش بتلك المذبحة بدلا من جولدشتاين.

وفي الأيام والأسابيع اللاحقة على المذبحة، انتشر تقدير جولدشتاين وصنائعه عبر المجتمع الإسرائيلي المتدين وعبر أنصاره في الولايات المتحدة. ومظاهر التعبير الأولى عن هذا التقدير ربما تكون هي الأكثر أهمية لأنها كانت عفوية ولأنها كانت تعبر عن نفوذ تلك الأيديولوجية الخاصة بقتل الأغيار دون تمييز، والتي يؤمن بها اليهود على نحو يتجاوز حتى حدود المجتمع المسياني. وقامت أفيراما جولان في مقالها المنشور بجريدة «هاآرتس» في ٢٨ فبراير ١٩٩٤، بوصف كيفية انتشار أخبار جولدشتاين في اليوم الذي ارتكب فيه المذبحة وكيف أصبحت معروفة على نحو سائد في المدينة الحريدية المسماة «بني براك» وكيف احتشد اليهود المتدينون في اليوم التالي للثناء على جولدشتاين أثناء أحد العروض الترفيهية. فقد حدثت المذبحة في عيد البوريم، ذلك العيد الذي يبتهج فيه اليهود المتدينون ويحتسي البعض المشروبات الكحولية حتى الثمالة، وكانت شوارع «بني براك» مكتظة عن آخرها بالمحتفلين النشوانين في ذلك اليوم. وكانت هناك وحدة أمنية خاصة، تتألف من المحاربين المتدينين القدماء لوحدات الصفوة بالجيش الإسرائيلي، تم استئجارها بواسطة عمدة المدينة للحفاظ على النظام والاحتشام. وقامت جولان بوصف رد فعل الشارع عندما انتشرت أنباء المذبحة قائلة:

«صرخ رجل الأمن، الذي كان يحمل مسدسا ضخما في حزامه ويضع قلنسوة سوداء على رأسه، ويعلق على صدره شارة مكتوبا عليها «فريق أمن بني براك»، وهو يشير إلى أحد جامعي التبرعات :«إنها معجزة عيد البوريم، إنها معجزة». ثم صرخ بأعلى صوته قائلا : «ذلك الرجل المقدس فعل شيئا عظيما. ٥٢ عربيا بضربة واحدة». ومع ذلك، فإن جامع التبرعات، طالب المدرسة الدينية، لم يكن مصدقا. وقال «هذا مستحيل ربما يكون ذلك مجرد روايات» ولكن الأشخاص الواقفين من

حوله أكدوا الأنباء. فقالوا: «نعم لقد أذيعت بالإذاعة» «أين؟» «فى «الحرم الإبراهيمى بالخليل». امتقع وجه طالب الياشيفاه. وقال: «إننى لا ألقى بالا للعرب، ولكن من سيدفع ثمن ذلك». فصرخ رجل الأمن قائلا: «عم تتحدث؟ إنها معجزة البوريم. فالله هو الذى مد لنا يد العون». وانقسم الناس إلى طائفتين: طائفة تقول بأن الله أنزل بالعرب ما يستحقون من عقاب، وطائفة أخرى ظلت صامتة. وقالت زوجة المسئول عن مدينة بنى براك أن عشرات الزائرين، كما يحدث عادة فى البوريم، زاروا منزلهم هذا الصباح وهم مشدوهون. وسأل أحد الأشخاص «بسبب القتل»؟ فأجابنى «لكى أصدقك القول، ليس بسبب القتل، ولكن بشأن ما يمكن أن يحدث لليهود».

وتطرقت جولان إلى ما حدث فى اليوم التالى، وواصلت قائلة: «كان من المتوقع أن تأتى جموع من اليهود المتدينين إلى ستاد ياد إلياهو «أكبر استاد رياضى بإسرائيل» لكى تشهد الحفل الذى يحييه مغنى الجاز المتدين الشهير موردخاى بن دافيد. وقبل شهور من المذبحة، كان يتم التخطيط لهذا الحدث لكى يبدو كمظاهرة لإنقاذ أرض إسرائيل من رابين وبيريز والزنادقة الآخرين». وكل طوائف المجتمع الدينى كانت ممثلة فى هذا الجمع.

وتواصل جولان قائلة:

«مر الجزء الأول من الحفل بسلام، وعلى نحو يفتقر إلى الحماس. فقط بعد الاستراحة، قبل دقائق من ظهور نجم الحفل، جن جنون الحاضرين. فقام منظم الحفل بالنداء على أحد مواطنى كريات أربع لإلقاء خطاب وبدأ حديثه بالثناء على «ذلك الرجل الصالح والطبيب المقدس، د. جولدشتاين الذى أدى لنا خدمة جليلة واستشهد فى العملية» وطالب الحضور بتأبينه. وظل الجانب الأعظم من الحضور يلوذون بالصمت، وقام البعض بالهتاف. رجل واحد فقط، ذو لحية قصيرة ويضع على رأسه قلنسوة مشغولة، قام وصرخ قائلا: «إننى لا أوافق على ذلك، فهذه جريمة قتل نكراء» وفى الحال قاموا بالاعتداء عليه.

وصرخ كثير من الجمهور قائلا: «اطردوا هذا الكافر من القاعة» ولم يعد الهدوء مرة أخرى إلا بعد أن ظهر فى النهاية بن دافيد على المسرح وبدأ الغناء. وبعد أن انتهى الحفل تجمع بعض الناس وتذكروا أن هناك عددا أكبر من الأغيار قتلوا على يد اليهود فى «سوسا» أثناء البوريم الأصلى «٧٥٠٠٠».

وزعموا أن هذا هو الوقت المناسب لقتل عدد مقابل من الأغيار فى الأرض المقدسة.

ولا عجب أن قام دوف هالفرتال، عضو الجماعة المنحلة تقريبا من حمائم الحزب الدينى القومى، بإخطار جولان بأن: «هذا الابتهاج فى عيد البوريم يعبر عن الانهيار الأخلاقى للصهيونية الدينية.. فإذا لم تقم الصهيونية الدينية الآن بعملية بحث عن الروح، فأنا أشك فى توافر فرصة أخرى لها للقيام بذلك».

بينت التطورات اللاحقة أنه لا الصهاينة المتدينون ولا الطوائف الأخرى داخل المجتمع اليهودى المتدين كانت فى حالة بحث عن الروح، على العكس، فإن تقدير جولدشتاين والإحساس بأن اليهود لديهم الحق فى والواجب نحو قتل الأغيار الذين يعيشون على أرض إسرائيل كانا متزايدين. وفى مقاله بتاريخ ٢٣ مارس ١٩٩٤ بجريدة «ها آرتس»، قام ناداف شراجاى بمناقشة زيارة الوفد الممثل لكل الفروع الإسرائيلية لبنى أكيفا، وهى حركة الشباب الواسعة المنتمية للحزب الدينى القومى، إلى كريات أربع والخليل، حيث كان حظر التجول هناك مازال مفروضا على السكان العرب. وكان الغرض من الزيارة هو «تشجيع المستوطنين اليهود». وقام يوس ليبوفيتس، وهو أحد زعماء المستوطنين بالخليل، كما وصفه شراجاى «وأمارات الرضا والسرور بادية على وجهه بتوجيه سؤال إلى الوفد قائلا: «هل قمتم بزيارة مولانا المقدس الدكتور جولدشتاين»؟ رفض الزائرون الاقتراح ولكنهم لم ينبسوا ببنت شفة من التوبيخ لعبدة القديس الجديد. وعلى ذلك كان عليهم الصمود فى وجه عاصفة من السباب من قبل

زملائهم أعضاء الحركة المحليين الذين زعموا أن رفضهم مبايعة جولدشتاين ماهو إلا محاولة لمساندة اليسار، وقام الحاخامات المحليون الموالون للحزب الديني القومي بالهجوم التالي. وقام الحاخام شيمون بن صهيون، أحد كبار المعلمين بياشيفاه الحاسدير المحلية والذي يعتبر بذلك أحد موظفي الدولة بإلقاء خطاب لتأبين جولدشتاين والثناء على ما أطلق عليه «صنيعه». وأضاف قائلا: «إذا استمرت الحكومة في خفض جناحها للعرب، الذين هم جميعا قتلة، وإذا أخفق اليهود في فرض حكمهم على أرض إسرائيل فسوف يكون هناك المزيد من جولد شتاين، وقام معظم الزائرين بإلقاء خطب مضادة ومع ذلك فقد كانوا متأثرين بآراء مضيفيهم حيث اعتبروا أن واجبهم يتمثل في مساندة المستوطنين اليهود في الخليل، وهو أمر أكثر أهمية من أي اختلاف ثانوي حول قداسة جولد شتاين.

وكتب جابي بارون في ١٦ مارس ١٩٩٤ بجريدة يديعوت أحرونوت يقول:

«تعرض نائب وزير التعليم ميخا جولدمان للاعتداء البدني بالأمس، وذلك بعد إلقائه خطاب ترحيب في اجتماع معلمي مقاطعة القدس في قاعة بنيني هاأوما بالمدينة. ونجح في تجنب الإصابة. فقد استفز خطابه العشرات من المدرسين المتدينين لأنه تحدث عن زيارته إلى كريات أربع والصدمة التي شعر بها حينما لمس مدى حماس أطفال المدارس الدينية مع مذبحة (الحرم الإبراهيمي). واندلع شغب كبير في القاعة بمجرد قوله ذلك. وقفز العشرات من المدرسين المتدينين إلى المنصة. وحاولت إحدى المدرسات الوصول للمنصة لالتقاط آنية الزهور الموضوعة على المائدة لكي تقذفه بها. ولكنها تعثرت. وتجمع كل المدرسين المتدينين في غضب أمام المنصة ونعتوه «بالفاشي». وأصر جولدمان على إكمال خطبته. وعندما انتهى منها اضطر إلى مغادرة المكان وسط حراسة مشددة، ولذلك لم يستطع المدرسون الغاضبون إيذاءه».

لم يقم آمنون روبنشتاين وزير التعليم وقتها ولا رابين رئيس الوزراء الراحل بتوجيه كلمة واحدة تشجب ماحدث.

وفى ٥ أبريل ١٩٩٤ ، أذاع راديو إسرائيل أن الحاخام شيمون بن صهيون قام بتوزيع منشور على مستوطنى كريات أربع والخليل يطلب منهم فيه المساهمة المالية لإصدار كتاب عن «القديس باروخ جولدشتاين». وفى يوم ٦ أبريل قامت يديعوت أحرونوت بنشر نص المنشور، ويشير الكتاب إلى جولدشتاين باسم «الحاخام دكتور باروخ جولد شتاين ذى الذكرى المباركة، الذى سوف ينتقم الله له» ودعم مجلس بلدية كريات أربع أفكار بن صهيون. وفى مقاله المنشور بتاريخ ٥ أبريل ١٩٩٤ بجريدة هاآرتس، ذكر آمنون بارزيلاى أنه منذ يومين قام زعماء جوش أمونيم ، بمن فيهم العمدة بنى كاتسوفر، بالالتقاء برابين رئيس الوزراء حيث تحدثوا حديثا وديا معه واعتذر عن هجومه السابق عليهم، وتعهد بعدم تكرار ذلك. (فهذه الانتقادات على أى حال كان الهدف منها الاستهلاك المحلى «للحمائم» الإسرائيليين وعرفات ووسائل الإعلام الغربية» واتفق الجانبان على التعاون فى المستقبل على نحو وثيق. وعلى ذلك وجد رابين أنه ليس من اللائق قول أى شيء عن فكرة الحاخام بن صهيون.

وبعد مرور نحو عام على ذلك حصلت بلدية كريات أربع على تصريح من الإدارة المدنية للأراضى المحتلة بإقامة نصب تذكارى فخم ومهيب فوق مقبرة جولدشتاين والذى أصبح مزارا يحج إليه. فقد جاء الآلاف اليهود من كل المدن الإسرائيلية ومن الولايات المتحدة وفرنسا لإضاءة الشموع والصلاة طلبا لشفاعة «القديس والشهيد» الذى ينعم بمنزلة خاصة فى الفردوس مقربا من الله حيث يكون قادرا على منحهم بركاته لكى يشفوا من الأمراض أو لكى يحصلوا على ذرية من الذكور، ويقوم الزائرون بتقديم المال لرفاق جولدشتاين ولم يعترض أى حاخام أرثوذكسى على ذلك .

أدت عبادة القديس الجديد إلى تصاعد المعارضة من قبل اليهود

العلمانيين .(اعتراض الفلسطينيين وخاصة أولئك الذين يعيشون فى الخليل على تأليه جولدشتاين وتخليد ذكرى هذا القاتل الجماعى ، ليس من اختصاص هذا الكتاب ولكن يجب أن يكون واضحا). وبعد حملة صحفية ضخمة، وافق أعضاء الكنيست على تشريع جديد فى مايو ١٩٩٨ ، يحظر بناء أى أضرحة للقتلة الجماعيين وإزالة ماهو موجود منها، وبناء على ذلك وجب على الجيش الإسرائيلى على الفور بعد صدور القانون إزالة الضريح. ولكن بدلا من ذلك أعلن المتحدثون باسم الجيش أن هناك مفاوضات تجرى مع عائلة جولدشتاين والحاخامات المحليين بشأن الضريح .

صدر الكتاب الذى يمجد جولدشتاين فى عام ١٩٩٥ بعنوان «الرجل المقدس» وطبعت منه طبعات عديدة وكان معظم قراء الكتاب من المتدينين، ويحتوى الكتاب على تمجيد وتأبين وثناء على جولدشتاين وتبريرات الهالاخاه لحق أى يهودى فى قتل غير اليهود.

وقام الحاخام إسحاق جينسبرج ، الذى أصبح بعد ذلك ناظرا لمدرسة مقبرة يوسف الدينية، التى تقع فى ضواحى نابلس، بكتابة أحد فصول الكتاب.

وخلاصة آراء الحاخام جينسبرج موجودة فى الفصل الرابع وأيديولوجياته والأيديولوجيات المشابهة لها، تبرر مذبحة جولدشتاين والمساندة التى حصل عليها هو وأتباعه من اليهود المتدينين وموقف الحكومات الإسرائيلية الغامض من هذه الجريمة.

إن أولئك الأشخاص، وخاصة الألمان، الذين التزموا الصمت ولم يدينوا الأيديولوجية النازية قبل مجىء هتلر إلى السلطة، مذنبون أيضا، على الأقل من الناحية الأخلاقية، فيما حدث بعد ذلك من أحداث مروعة. وبالمثل، فإن أولئك الذين يلتزمون الصمت ولا يدينون النازية اليهودية، كما تتجسد فى أيديولوجيات جولدشتاين وجينسبرج، وخاصة من اليهود، هم أيضا مذنبون فيما سوف يحدث من أحداث مروعة نتيجة لصمتهم.

7

الخلفية الدينية لاغتيال رابين



■ إسحاق رابين



■ إيجال عامير

تم اغتيال إسحاق رابين رئيس الوزراء لأسباب دينية. فالقاتل والمتعاطفون معه كانوا ومازالوا يؤمنون بأن القتل حدث بأمر من الله ولهذا فهو فريضة يهودية. وأشارت استطلاعات رأى واسعة نشرت بالصحف الصادرة بالعبرية وذلك للأشخاص الذين يقطنون بالأحياء الدينية وخاصة المستوطنات الدينية إلى وجود جانب كبير من التعاطف مع الجريمة. كما ازداد أيضا استقطاب الموافقة وعدم الموافقة فى المجتمع اليهودى الإسرائيلى على قتل رئيس وزراء الدولة اليهودية منذ حدوث الجريمة. فالكثير من اليهود الإسرائيليين وأعداد كبيرة من اليهود الذين يعيشون خارج إسرائيل ومعظم غير اليهود ليست لديهم المعرفة الكافية بالتاريخ والديانة اليهودية لكى يضعوا هذا النوع من الاغتيال داخل سياقه الملائم. وفى هذا الفصل سوف نحاول تقديم الخلفية التاريخية - الدينية الضرورية لفهم اغتيال رابين.

يمتلىء تاريخ اليهود بالعديد من الحروب الأهلية الدينية أو التمردات المصحوبة بحروب أهلية والتى ارتكبت فيها جرائم اغتيال مروعة. ويعتبر التمرد العظيم «٦٦ - ٧٣ ميلادية» لليهود ضد الرومان والذى بلغ ذروته بتدمير الهيكل الثانى والانتحار الجماعى فى المسادا(*) نموذجا مثاليا لذلك. وكان المدافعون عن المسادا وهو ما يجهله الكثير من زوار موقع المسادا اليوم، مجموعة من السفاحين يطلق عليهم اسم

(*) قلعة أثرية في الأراضي المحتلة وقعت فيها حادثة الانتحار الجماعي اليهودي في عصر الرومان

سيكاريكين. وهذا الاسم مأخوذ من وصف كان يطلق على سيف قصير يخفيه أعضاء الجماعة تحت أرديتهم، ويستخدمونه فى قتل خصومهم اليهود فى الزحام. وفى التلمود تعنى هذه الكلمة الإرهابيين أو اللصوص وتستخدم فقط مع اليهود. والواقع أن السيكاريكين، هم بديل يهودى قديم لإرهابيى اليوم. ونشاطهم الاستشهادى يشبه السلوك الإرهابى لمفجرى القنابل الاستشهاديين والمكروه لأقصى درجة فى دولة إسرائيل. فقد هرب السيكاريكين إلى المسادا ليس من الرومان ولكن من أشقائهم اليهود. وبعد وقت قصير من بدء التمرد على الرومان هزم الجيش الرومانى الذى كان يتقدم نحو القدس واضطر للانسحاب.

وحاول السيكاريكين تتويج زعيمهم مناحم كملك مطلق. وقام يهود القدس بالهجوم على السيكاريكين وهزيمتهم فى الهيكل وقتلوا معظمهم بمن فيهم مناحم. وهرب ما تبقى منهم إلى المسادا حيث ظلوا هناك طوال التمرد، ولم يقاتلوا الرومان ولكنهم كانوا يسرقون القرى اليهودية المجاورة. وبعد ثلاثة أعوام من هزيمة السيكاريكين زحف الجيش الرومانى بقيادة تيتوس على القدس للقيام بشن الهجوم النهائى. «كان رئيس أركان تيتوس ، تيبرياس جوليوس ألكسندر، يهوديا، وكان ابن شقيق الفيلسوف العظيم فيلو» وكانت القدس مقسمة إلى ثلاثة أجزاء وكل جزء كان يخضع لهيمنة قائد مختلف، وكان القادة يتقاتلون فيما بينهم لمدة عامين. وكانت الإمبراطورية الرومانية فى ذلك الوقت مشغولة بالحرب الأهلية، وكان أحد القادة، وهو الكاهن إليعازر، يسيطر على الهيكل ويستخدمه كحصن قوى. وفى عشية عيد الفصح عام ٧٠ ميلادية قام قائد متمرد آخر وهو يوحانان حاكم جوش هالاف بالتفكير فى خطة عبقرية للتغلب على إليعازر، فقام بإلباس جنوده أردية الحجاج بحيث يبدون وكأنهم جاءوا إلى الهيكل من أجل التضحية فى عيد الفصح. وبعد أن سمح لهم بالدخول إلى الهيكل بواسطة إليعازر الساذج دون تفتيش، قاموا بعد أن ضمنوا على نحو صحيح أن إليعازر ورجاله لا يحملون أى سلاح فى هذا المكان المقدس، بتجريد

سيوفهم وذبح أعدائهم، أما إرهابيو المسادا فقد أصبحوا أبطالا قوميين يهودا وإسرائيليين، كما أصبح كذلك يهود القدس الذين قتلوا معظم السيكاريكين. كما أصبح يوحانان حاكم جوش هالاف أيضا بطلا قوميا، أما الكاهن إليعازر فقد طواه النسيان، ربما لأنه قتل على يد اليهود. وفى هذه الحوادث وحوادث أخرى مماثلة كان القتل يرتكب من أجل التمجيد الأعظم لله»، وزعم إيجال عامير أنه اغتال رابين من أجل ذلك.

لم ينته العنف بين اليهود مع فقدان الاستقلال اليهودى وتوقف التمردات اليهودية. «حدث آخر تمرد يهودى فى عام ٦١٤ ميلادية». ومنذ العصور الوسطى وحتى قيام الدولة الحديثة تمتعت المجتمعات اليهودية بدرجة من الاستقلال تحت السيادة الرومانية. وكان الحاخامات الذين يرأسون هذه المجتمعات ويمتلكون السلطة قادرين غالبا على اضطهاد اليهود بلا رحمة. فكانوا يضطهدون اليهود الذين يرتكبون آثاما دينية، كما كانوا يضطهدون اليهود الذين يقومون بالوشاية عن اليهود إلى غير اليهود أو يضرون بالمصالح اليهودية. وكان الحاخامات عادة يتسامحون مع العنف الذى يمارسه بعض اليهود ضد يهود آخرين، وخاصة ضد النساء، مادامت لم تتضرر من ذلك الديانة اليهودية ومصالحهم الخاصة.

والصلة بين هذا الجانب من «التاريخ اليهودى» واغتيال رابين واضحة تماما. فالقاتل إيجال عامير هو دارس للتلمود تم تدريبه فى إحدى المدارس الدينية «ياشيفاه» التى كانت تغرس فى أذهان طلابها أن هذا العنف الذى كان يرتكبه الحاخامات على مدار الزمان كان يتم تبعا لكلمة الرب.

وقبل وقت طويل من اغتيال رابين كانت الدراسات البحثية «للتاريخ اليهودى» المكتوبة بالعبرية تشير إلى العنف المذكور. وأدى الاغتيال إلى إثارة الكثير من الاهتمام الجماهيرى بهذه القضية لدرجة قيام الصحافة العبرية بنشر العديد من المقالات التى كتبت بواسطة أو من

خلال لقاءات شخصية مع باحثين إسرائيليين بارزين. ويعتبر مقال رامى روزين الذى نشر فى ١٥ نوفمبر ١٩٩٦ بمجلة ها آرتس بعنوان «تاريخ الإنكار» مثالا ممتازا يعبر عن ذلك. وعلى الرغم من قيام روزين بإجراء لقاءات شخصية مع العديد من المؤرخين البارزين، فقد اعتمد بشكل أساسى على آراء البروفيسور إسرائيل بارتال، رئيس قسم التاريخ اليهودى بالجامعة العبرية بالقدس.

استهل بارتال حديثه بالقول:

«وصفت الصهيونية يهود الشتات بأنهم شعب ضعيف يرغب فى السلام ويكره أى شكل من أشكال العنف. ومن المثير للدهشة أن نكتشف أن اليهود الأرثوذكس أيضا يقدمون أوصافا مماثلة. فهم يصفون المجتمع اليهودى فى الماضى على أنه لم يكن مهتما بغير الهالاخاه وإقامة الفروض الدينية».

ولكن كل الكتابات اليهودية التى أنتجت فى أوروبا الشرقية تخبرنا أن العكس هو الصحيح. فحتى فى القرن التاسع عشر تمتلىء بالأوصاف التى تتحدث عن كيفية معيشة اليهود بالمعارك العنيفة التى حدثت فى المعابد الدينية وتتحدث عن يهود يضربون يهودا آخرين فى الشوارع أو يبصقون عليهم وعن نتف اللحى وعن جرائم القتل».

ومن خلال الاستشهاد بأقوال بعض المتعمقين فى الديانة اليهودية، يقول روزين أن الكثير من جرائم القتل ارتكبت لأسباب دينية وكان من المعتاد فى بعض الدوائر الحسيدية حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر الهجوم على وقتل اليهود ذوى الميول الإصلاحية حتى ولو كانوا قليلى العدد. وقام هؤلاء اليهود الحسيديون أيضا بالهجوم على بعضهم البعض بسبب الشجارات الكثيرة بين مختلف الحاخامات المقدسين على دوائر النفوذ والمال والمكانة وبعد أن تعرف على آراء أفضل الباحثين الإسرائيليين، تساءل روزين:

هل إيجال عامير وباروخ جولدشتاين ويوناح أفروشمى (الذى ألقى بقنبلة يهودية على مظاهرة لحركة «السلام الآن» فقتل شخصا وجرح

بضعة أشخاص) وآمي بوبر (الذى قتل سبعة عمال فلسطينيين أبرياء واعتبره المتطرفون بطلا عظيما) يمثلون أجزاء من العرف اليهودى؟ وهل من قبيل الصدفة فقط أن قام باروخ جولدشتاين بقتل ضحاياه فى عيد البوريم؟

ويجيب روزين عن السؤال بقوله:

«تبين مراجعة الحقائق الأساسية للتأريخ اليهودى للألف والخمسمائة عام الأخيرة أن الصورة مختلفة عما كنا نعرفه فى السابق. فهى تحتوى على مذابح للمسيحيين «بواسطة اليهود» وأحداث مشابهة لصلب المسيح حدثت عادة فى عيد البوريم وجرائم قتل وحشية داخل العائلة وتصفيات للوشاة، تمت غالبا لأسباب دينية بواسطة المحاكم السرية الحاخامية التى كانت تصدر الأحكام وتعين منفذيها السريين، كما كان يتم اغتيال الزانيات فى المعابد الدينية أو تجدع أنوفهن بأمر الحاخامات».

وضمن روزين مقاله الطويل الكثير من الحالات المدعمة بالوثائق للمذابح التى ارتكبت ضد المسيحيين وحالات مشابهة لصلب المسيح فى عيد البوريم والتى حدث معظمها إما فى أواخر الزمن القديم أو العصور الوسطى. (وهناك بعض الحالات المنفردة حدثت فى بولندا فى القرن السادس عشر). ومنذ القرن الحادى عشر وحتى القرن التاسع عشر كان اليهود الإشكناز أكثر عنفا وتعصبا من اليهود الشرقيين على الرغم من أن تعصب اليهود الإسبان أثناء كل من الحكمين المسيحى والإسلامى كان أمرا استثنائيا. ولم يقم المؤرخون اليهود مع ذلك بتحديد أسباب هذه الاختلافات. وربما يكون تأثير التعصب المسيحى على اليهود أحد تلك الأسباب فاليهود الذين عاشوا فى إسبانيا ربما يكونون قد تأثروا بحقيقة أن المسلمين الإسبان كانوا أكثر تعصبا من بقية العالم الإسلامى.

أثر العنف المرتكب ضد النساء لقرون عديدة والجوانب الأخرى من العنف الداخلى للتجمعات اليهودية على الشخصية النامية للمجتمع اليهودى التقليدى.

وهذه الشخصية هى التى شكلت الإطار العام لاغتيال رابين، والاستشهاد ببعض الأمثلة هنا ربما يمكن أن يساعد على المزيد من الفهم لهذه الشخصية. ويعتبر كتاب الحاخام سمحة عساف المعنون باسم (العقوبات بعد التلمود كانت نهائية: مواد خاصة بتاريخ القانون العبري) (القدس ١٩٢٢) مصدرا للمعلومات الغزيرة. فالحاخام عساف الذى أصبح بعد ذلك أستاذا بالجامعة العبرية، وفى عام ١٩٤٨ أصبح أحد القضاة التسعة الأول للمحكمة الإسرائيلية العليا. ومن خلال إيمانه بوجوب إقامة دولة يهودية، ألف كتابه من أجل أن يبين أن هناك عددا كافيا من القضايا القانونية التى وجدت فى تاريخ العقوبات المحكوم بها من قبل محاكم دينية يهودية تمثل سوابق كافية.

وعلى الرغم من وجود بعض الاختلافات فى تفسير الهالاخاه وتطبيقها فإن العنف ضد النساء كما يعرف بأية وسيلة منطقية ومعاصرة، كان يمارس بشكل روتينى عبر القرون فى معظم المجتمعات اليهودية، وسمح بعض الحاخامات للزوج بأن يضرب زوجته حينما تعصى أمره. وهناك حاخامات آخرون قيدوا هذا «الحق» من خلال اشتراطهم أن تقوم محكمة حاخامية أولا ببحث شكوى الزوج قبل أن تصدر أمرا بذلك، وعلى اعتبار أن ذلك امتداد لحق الزوج قامت المحاكم الحاخامية فى إسبانيا بالأمر بتوقيع أقصى عقوبة على النساء اليهوديات المشكوك فى ممارستهن الدعارة أو الزنى وعقوبة أقل للزناة من اليهود. وفى أوائل القرن الرابع عشر قام أحد وجهاء اليهود بسؤال الحاخام الإسبانى الشهير رابينوا آشر، عما إذا كان جدع أنف أرملة يهودية حملت سفاحا من أحد المسلمين يعتبر عقوبة صحيحة.

وأضاف الوجيه قائلا: على الرغم من أن الأدلة ليست قاطعة فإن الحمل أصبح معروفا على نحو مؤكد فى المدينة، وأجاب رابينو آشر بالقول: «لقد قررت على نحو حسن أن يقطع أنفها حتى يجدها من يرتكب معها الخطيئة قبيحة، ولكن يجب أن يتم ذلك على حين غرة حتى لا ترتد عن الدين لتجنب حدوث ذلك».. «عساف، ص٦٩».

وفى حالة قيام رجل يهودى بارتكاب الزنى مع امرأة مسلمة أمر الحاخام يهودا بن رابينو آشر بأن يعزل أو يسجن فقط «عساف، ص٧٨»، ونفس العقوبة تطبق إذا كان رجل يهودى لديه أمة مسلمة وقام يهودى آخر بارتكاب الزنى معها. واعتبر الحاخامات ارتكاب النساء اليهوديات للزنى مع رجال يهود أمرا أقل خطورة. وفى هذه الحالة أمر أحد الحاخامات بأن يقصر شعر المرأة وأن تعزل فى أحد المعابد فى وجود نساء أخريات «عساف، ص٨٧» واستمر اليهود السفارديم فى القدس يقصون شعور النساء كعقوبة لهذه الآثام الجنسية حتى القرن التاسع عشر. وفى بعض الحالات المسجلة كان العقاب يقوم على الاعتقاد بأن الآثام الجنسية لليهود، وخاصة التى ترتكبها النساء، تمنع المطر من الهطول. وافترض الحاخامات أن المطر يمكن أن يهطل إذا عوقبت النساء اليهوديات المخطئات. وأشار معلقو الصحافة العبرية المثقفون إلى ذلك فى سخرية قائلين ذات مرة أن المطر لم يهطل حتى بعد معاقبة النساء. ومع ذلك ففى الأماكن التى تسود فيها المواقف الأكثر معاصرة أقلع اليهود الإسبان والبرتغاليون عن هذه العادات المتوارثة، ويستشهد عساف بشيوخ المجتمع اليهودى البرتغالى فى هامبورج فى أواخر القرن التاسع عشر.. فعلى الرغم من سماحهم لأعضاء مجتمعهم بتكوين علاقات حميمة مع نساء غير يهوديات، فقد عبروا عن أسفهم لعدم استطاعتهم معاقبتهم. وأشار عساف إلى سبب ذلك قائلا: «فى كل حالة من هذه الحالات يجب عليهم أن يحصلوا على تصريح من قضاة المدينة» «ص٩٥». ويمكن للمجتمع اليهودى تبعا لما قاله عساف أن ينزل بهم عقوبات دينية فقط، وذلك كما حدث عندما تم إخبار شقيقين بأنهما لن يدخلا المعبد اليهودى حتى يتم طرد خادمة سيئة السمعة من منزلهما «ص٩٧».

وكان يمكن للسلطات الحاخامية اليهودية فى بعض الأجزاء الشرقية من أوروبا أن تطبق عقوبات أكثر صرامة. ومع ذلك فإن هذه العقوبات كانت أقل قسوة من تلك التى كانت تطبق فى إسبانيا. فى عام ١٦١٢

قرر رؤساء المجتمع اليهودى فى براغ وجوب قيام كل العاهرات اليهوديات بمغادرة المدينة فى تاريخ معين وإلا سوف يتم كيهن بالحديد الساخن «عساف، ص١١٤» وكانت التهمة الأساسية للبغايا هى أنهن كن يشاهدن وهن يشربن نبيذا غير حلال «كوشير» مع بعض وجهاء المجتمع، أما أكثر المجتمعات اليهودية تسامحا فهى تلك الخاصة بإيطاليا، كما يقول عساف، حيث كان يتم التشجيع التام للبغايا لأنهن أنقذن «غير المتزوجين والحمقى من ارتكاب خطايا الزنى أو الإقامة مع نساء غير يهوديات».

وفى مقاله المشار إليه آنفا يشير روزين إلى أحد البحوث التى أجراها مؤرخون يهود جدد والذى يبين أن اليهود الإيطاليين أخذوا عن عصر النهضة العادة المتمثلة فى أن الزوج أو الأخ يستطيع أن يقتل زوجته أو أخته دون أن يناله أى عقاب إذا شك فى ارتكابها خطيئة الزنى. ومن أجل تطهير شرف الزوج مما لحق به من عار، قام اليهود بارتكاب العديد من جرائم القتل فى المعبد أثناء الصلاة من أجل أن تكتسب صفة العلنية. فقام أحد اليهود ويدعى عوفيديا من سبوليتو، على سبيل المثال، بقتل زوجته فى المعبد، وبعد أن أوضح سبب ذلك لم ينل أى عقاب. وقامت السلطات الإيطالية بتقديم عوفيديا للمحاكمة وحكمت عليه بالغرامة ولكن اليهود كانوا يؤمنون بأنه لم يفعل شيئا خاطئا. ولم يمر وقت طويل حتى تزوج من امرأة أخرى. وقام الأشقاء فى حالات أخرى بقتل الشقيقات المشكوك فى سلوكهن. واستشهد روزين بإحدى تلك الحالات التى حدثت فى فيرارا فى منتصف القرن السادس عشر. فقد كان القاتل يعمل فى إحدى المنظمات الخيرية التى تنتمى لإحدى الأبرشيات وواصل عمله المعتاد بعد ارتكابه جريمة القتل. وأشار روزين إلى أن الحاخامات فى هذه الحالات لا يتدخلون عادة.

سمح الاستقلال اليهودى قبل نشوء الدولة الحديثة للحاخامات بممارسة شتى أنواع القهر والتى كان العنف ضد النساء أحدها. واستخدم الحاخامات أنواعا عديدة من العنف ضد اليهود الذين

يرتكبون آثاما دينية أو أية آثام أخرى. وأرادت الأصولية اليهودية رغبة منها فى إحياء الموقف الذى كان موجودا قبل أن تؤدى التأثيرات المعاصرة إلى إفساد اليهود، التأكيد على هذا العنف.

ولعبت مركزية العنف فى الهالاخاه دورا مهما فى نشوء اليهودية الأرثوذكسية.. فاليهودية الأرثوذكسية من الناحية التاريخية كانت تحتوى على نظام مزدوج للقانون. فكان هناك النظام الطبيعى للقانون، ولكن كان هناك أيضا النظام الاستبدادى الذى كان يستخدم فى حالة الطوارىء، وهذه المواقف الطارئة كانت توجد حينما يكون لدى الحاخامات سلطة عظمى فوق المجتمع. فكان الحاخامات من خلال زعمهم بأن الهرطقة والزندقة بلغت مستويات بالغة الخطورة، يقومون بتجميد النظام الطبيعى للقوانين على الأقل فى مجال حماية معتقدات المجتمع ويلجأون إلى استخدام قوانين الطواريء من أجل تلافى غضب الله. وأحد أمثلة ذلك يتضح من خلال عقوبة الإعدام. ففى نظام القانون العادى كان تطبيق الهالاخاه لعقوبة الإعدام ضد اليهودى أمرا مستحيلا تقريبا، ولكنه أسهل كثيرا بالنسبة لغير اليهودى. وحتى العقوبات الأقل قسوة مثل الجلد ٣٩ جلدة كان من الصعب تطبيقها ضد اليهود. والبديل التلمودى العادى لعقوبة الإعدام بالنسبة لليهودى الذى قتل يهوديا آخر هو الإفراج عنه دون عقوبة. ويقدم التلمود بديلا آخر، هذا البديل كما وصفه ميمونيدس فى شروحاته المسماة «قوانين القاتل واتخاذ الاحتياطات» الفصل الرابع قاعدة ٨، هو أن القاتل اليهودى الذى يعفى من عقوبة الإعدام بواسطة محكمة حاخامية، «يمكن أن يوضع فى زنزانة ضيقة ويعطى فى أول الأمر مقدارا صغيرا من الخبز والماء حتى تضيق أمعاؤه وبعد ذلك يطعم بالكاد حتى تنفجر معدته من المرض».

وكان القضاة الحاخاميون يواجهون صعوبة فى تطبيق العقوبات حينما يكون الاستقلال اليهودى مقيدا بسلطات دينية. فقط أولئك القضاة الحاخامات الذين كانوا يعينون من خلال ما يطلق عليهم «الحكام

الوضعيون»، على سبيل المثال كان يمكنهم الحكم بتسع وثلاثين جلدة، وقام الحاخامات بعد ذلك بابتكار طريقة أكثر استبدادا تتمثل فى الحكم بما يسمى «جلد التمرد». فالوسيلة الجديدة التى كان يمكن لأى حاخام استخدامها كانت تشتمل على عقوبات أكثر صرامة. ؛ فعدد الجلدات على سبيل المثال لم يكن محدودا كما تمت إضافة عقوبات أخرى مثل قطع الأطراف والسجن لمدة غير محددة. وبعد الفترة التلمودية واضمحلال الإمبراطوريتين الرومانية والساسانية والخلافات الإسلامية أصبحت المجتمعات اليهودية فى أماكن كثيرة أكثر استقلالا وبذلك ازدادت فرص الحاخامات لتطبيق عقوبات أكثر صرامة.

قامت السلطات الدينية اليهودية بممارسة معظم العنف ضد اليهود الذين كان يتم اعتبارهم مهرطقين أو منشقين عن العقيدة، والعقوبات التى كان يتم تطبيقها كان يجب أن تكون نابعة من التلمود، أو على الأقل تفسير التلمود. وقد تم وضع التلمود فى ظل حكم وسلطة إمبراطوريتين قويتين وهما الرومانية والساسانية حيث قامت كلتاهما بتقييد سلطات الاستقلال اليهودى على نحو زاد كثيرا عما حدث فى نظم القرون الوسطى اللاحقة. وكثيرا ما شكا حكماء التلمود من أنه فى ظل هاتين الإمبراطوريتين، لم تكن لديهم سلطة معاقبة المجرمين اليهود بالإعدام ولكن من خلال الجلد فقط، وفى المرات القليلة التى حاول فيها حكماء التلمود إعدام أحد المجرمين اليهود تعرضوا لتحقيقات رسمية صارمة.

إحدى هذه الحالات، والتى ذكرت فى التلمود الفلسطينى، تتعلق بداعرة يهودية فى القرن الثالث تم إعدامها فى النهاية، ومن الواضح أنه بسبب صعوبة تطبيق عقوبة الإعدام فإن التلمود لم يأمر بإعدام اليهود المهرطقين ولكنه ألزم اليهود الأتقياء بقتلهم من خلال استخدام الحيلة، وهناك قوانين جوهرية بالهالاخاه، على الرغم من تأكيدها على أن عقوبة الإعدام يجب أن يحكم بها فقط إذا كان التنفيذ ممكنا، تحتوى على هذا الوصف. ومن المفارقات الساخرة أن التعبير

النموذجي عن هذا الأمر في قوانين الهالاخاه مدرج في الجزء المخصص لإنقاذ الحياة، والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو : ما الذي يجب على اليهودي التقي أن يفعله عندما يرى إنسانا يغرق في البحر أو سقط في بئر؟ والإجابة التلمودية تقول، والتي لاتزال مقبولة من اليهود التقليديين، أن ذلك يعتمد على: إلى من ينتمي هذا الإنسان؟ فإذا كان يهوديا ورعا أو مذنبا بجرائم عادية، فإنه يجب أن يتم إنقاذه، أما إذا كان غير يهودي أو يهودي «يرعى الأغنام والماعز» وهو تصنيف بطل استخدامه بعد الأزمنة التلمودية، فإنه يجب ألا ينقذ وألا يدفع إلى البحر أو البئر. ومع ذلك إذا كان هذا الشخص مهرطقا يهوديا فإنه يجب أن يدفع في البحر أو البئر، وإذا كان بالفعل داخلهما فإنه يجب ألا ينقذ. وهذا الشرط القانوني على الرغم من حذفه بواسطة الرقابة في بعض طبعات التلمود وفي معظم الترجمات، فإنه يظهر في «تراكتات عفودا زارا» «ص٢٦ أ - ب».

وأوضح ميمونيدس أيضا هذا الشرط في ثلاثة مواضع: في «قوانين القتل والحفاظ على الحياة»، حيث قارن مصير غير اليهود بمصير المهرطقين اليهود، على نحو متناقض.

وفي «قوانين القتل والحفاظ على الحياة» (الفصل الرابع، القاعدتان ١٠ - ١١)، كتب يقول :

«إن المهرطقين «اليهود» هم أولئك «اليهود» الذين يرتكبون الآثام عامدين، حتى لو كانوا يأكلون لحما غير مذبوح حسب الشريعة أو يرتدون ملابس شعتانيز «مصنوعة من الكتان المغزول مع الصوف» فإنهم يعتبرون مهرطقين «مثلهم مثل» أولئك «اليهود» الذين ينكرون التوراة والنبوة. فيجب أن يقتلوا. فإذا كان «اليهودي» لديه المقدرة على قتلهم بالسيف يجب عليه أن يفعل ولكن إذا لم تكن لديه المقدرة على فعل ذلك فإنه يجب أن يستخدم معهم الحيلة حتى يتسبب في موتهم.. كيف؟ فإذا شاهد أحدهم يسقط في بئر وكان هناك سلم داخل البئر، فإنه «يجب» عليه أن يسحبه ويقول: «إنني أحتاج إليه لكي يهبط عليه ابني

من السطح» أو يقول أشياء مشابهة. أما غير اليهود الذين ليسوا فى حالة حرب معنا ورعاة الأغنام والماعز اليهود والأشخاص المماثلون فإننا يجب ألا نتسبب فى موتهم، على الرغم من أننا محرم علينا إنقاذهم إذا كانوا مشرفين على الموت. فإذا شوهد أحدهم على سبيل المثال يسقط فى البحر فإنه يجب ألا ينقذ فكما كتب: «ولا تقف على دم قريبك» (لاويين ١٩ : ١٦) ولكن «غير اليهودى» ليس قريبك.

وفى «قوانين الوثنية» الفصل الثانى القاعدة ٥، يقول ميمونيدس:
«إن اليهود الذين يعبدون الأوثان يعتبرون غير يهود على النقيض من اليهود الذين يرتكبون إثما آخر يعاقب عليه بالرجم، فإذا تحول اليهودى إلى الوثنية فإنه يعتبر منكرا للتوراة.
واليهود المهرطقون لا يعتبرون يهودا بأى مقياس من المقاييس. ويجب ألا تقبل توبتهم. فكما كتب «كل من دخل إليها لا يئوب ولا يبلغون سبل الحياة». الأمثال ٢ : ١٩».
«وهذه الآية تشير إلى الرجال الذين يترددون على «امرأة غريبة» أى عاهرة».
وفيما يتعلق بالمهرطقين الذين يتبعون أفكارهم ويتكلمون على نحو أحمق فإنك يجب ألا تتحدث معهم أو تجيب عليهم، فكما قلنا من قبل «فى الجزء الأول من الكتاب» فإنهم فى النهاية سوف ينكرون الأجزاء الأكثر أهمية من الديانة اليهودية بكل إثم وكبر ويقولون أنهم لا يرتكبون إثما. وكما كتب «ابعد طريقك عنها ولا تقرب إلى باب بيتها» «الأمثال ٥ : ٨».
مرة أخرى تشير الآية الأخيرة إلى الرجال الذين «يترددون على امرأة غريبة»، بمعنى عاهرة. ويقول المعلقون الذين فسروا هذه الفقرة أن المقصود هو أن اليهودى الوثنى التائب تقبل توبته من المجتمع اليهودى أما المهرطق فلا. ومع ذلك فإن المهرطق الذى يريد التوبة يمكنه أن يفعل ذلك بمفرده، والسبب الأساسى لذلك هو أن اليهودى الوثنى بما فى ذلك الذى يتحول إلى المسيحية يقبل شريعة دينية أخرى بينما

المهرطق يتبع آراءه الخاصة، ويعتبر أكثر خطورة، وفى الفصل العاشر القاعدة ١ من «قوانين الوثنية» بعد أن أشار ميمونيدس إلى اقتلاع الكنعانيين القدماء والتأكيد على وجوب عدم قتل أى يهودى، قال: «كل ذلك ينطبق على الأمم «الكنعانية» السبعة، ولكن اليهود الوشاة والمهرطقين يجب أن يقتلعوا بأيدينا وأن يلقى بهم فى الجحيم، لأنهم يزيدون من متاعب اليهود من خلال عدم إخلاص قلوبهم لله، كما فعل تزادوك وبيتوس «مؤسسا الطائفة الصادوقية» وتلاميذهم. لعنهم الله جميعا». وفى القاعدة التالية أكد ميمونيدس على أن غير اليهود يجب ألا يتم علاجهم بواسطة اليهود إلا في حالة احتمال وجود خطر عداء غير يهودى. وفى «القوانين الجوهرية للتوراة»، الباب الأول، الفصل السادس، القاعدة الثامنة، يقول ميمونيدس بعد تأكيده على أن اليهود محرم عليهم حرق أو إتلاف أى نص مقدس أو أية كتابة عبرية تحتوى على الأسماء السبعة المقدسة لله.

«إذا كتب أى يهودى مهرطق أى نص من نصوص التوراة فإنه يجب أن يحرق مع كل الأسماء السبعة المقدسة لله، لأن المهرطق لا يؤمن بقداسة الله، كما أنه لم يكتبه من أجل الله ولكنه فكر فيه مثل أى كتاب آخر. وعلى ذلك فإن الله لا يمجد فيه ويجب حرق هذا النص حتى لا يكون هناك أى ذكر للمهرطقين ولا لصنائعهم، ولكن نص التوراة الذى يكتب من خلال شخص غير يهودى يجب أن ينحى جانبا مع الكتب المقدسة الأخرى التى فسدت أو كتبت بواسطة غير اليهود».

وعلى الرغم من أنه لم يأمر اليهود بحرق الكتب المهرطقة، فإن ميمونيدس اعتمد فى الفقرة السابقة على الكثير من التوجيهات التى صدرت بواسطة حكماء التلمود منذ عام ١٠٠ ميلادية تقريبا. وهذه التوجيهات طالبت بحرق الكتب التى كتبها مهرطقون، والواقع أن حكماء التلمود كانوا يتباهون فى أزمنة معينة بحرق هذه الكتب بأنفسهم. وقوانين الهالاخاه لم تأمر بذلك، ولكن الحاخامات كثيرا ما أمروا بذلك والتاريخ اليهودى يعج بأمثلة حرق الكتب اليهودية.

وحرق الكتب إلى جانب دفنها فى المقابر وصل إلى مستوى مرتفع في القرن الثامن عشر، وعلى الرغم من عدم ذكر ذلك إلا فى أضيق الحدود في الكثير من الكتابات التاريخية المنحازة لليهود، وخاصة تلك المكتوبة بالإنجليزية فإن حرق ودفن الكتب فى المقابر فى التاريخ اليهودى أكثر شيوعا مما نجده فى تاريخى المسيحية أو الإسلام.

وتحرم اليهودية التقليدية أيضا الأفكار المستقلة ففى كتابه «قوانين الوثنية» الفصل الثانى القاعدة ٣، بعد أن يؤكد ميمونيدس على أن اليهودى يجب ألا يفكر فى الوثنية يواصل قائلا: «ليس فقط محرما التفكير فى الوثنية ولكن من المحرم أيضا التفكير فى أى شيء يجعل اليهودى يشك فى أى مبدأ من مبادىء الديانة اليهودية. فيجب على اليهودى أن يحذر وصول أى من هذه الأفكار إلى وعيه. إننا يجب ألا نفكر فى هذا الاتجاه كما أننا يجب أن نسمح لأنفسنا بأن ننساق وراء تأملات القلب لأن فهم الإنسان محدود وليس كل رأى موجه نحو سويداء الحقيقة. فإذا سمح اليهودى لنفسه بأن يتبع أفكاره المستقلة فإنه بالتأكيد سوف يدمر العالم بسبب عدم فهمه الكافى. كيف ذلك؟ إنه فى بعض الأحيان قد ينجذب إلى الوثنية وأحيانا يفكر فى وحدانية الله، وأحيانا فى أنه موجود، وأحيانا أخرى فى أنه غير موجود، وأحيانا يفكر فيما هو فى السماء وأحيانا يفكر فيما هو فى الأرض، وما هو قبل «خلق العالم» وما هو بعد «نهاية العالم». وربما يفكر فى مدى صحة النبوة وهل التوراة من عند الله أم لا؟ ولأن هؤلاء الأشخاص لا يدركون المنطق الصحيح الذى يجب أن يستخدم للوصول للحقيقة الفعلية، فإنهم يصبحون مهرطقين، (وهذا هو ما حذرت منه التوراة. فكما هو مكتوب : «ولا تطوفون وراء قلوبكم وأعينكم التى أنتم فاسقون وراءها» (العدد ١٥: ٣٩).

هذه الفقرة مدرجة فى الفقرة الثالثة من «كريات شامة»، وهى إحدى أقدس الصلوات اليهودية التى تتلى يوميا فى الصباح وفى المساء، وهذا يعنى أن كل يهودى ممنوع من أن يسمح لنفسه بأن يتبع معرفته

القاصرة أو يتخيل أن أفكاره قادرة على الوصول به للحقيقة. وقال الحكماء أن «وراء قلوبكم» تعنى الهرطقة، و«وراء أعينكم» تعنى الفسق. وهذا الحظر على الرغم من أنه إثم يحرم اليهودى من دخول الجنة فإنه لا يستوجب عقوبة الجلد (لأنها توقع فقط على من يقوم بفعل ملموس).

وهذه المحظورات المتعلقة بتحريم أى تفكير مستقل (وهو ما يطبقه بعض الحريديم على بعض كتابات ميمونيدس نفسه)، كانت شائعة فى يهودية ما بعد التلمود واستمرت حتى اليوم فى جزء من اليهودية الأرثوذكسية. فاليهودية الأرثوذكسية تحرم أى تفكير مستقل يتعلق بالقضايا المناقشة بحرية بواسطة القديس أوغسطين بصرف النظر عن الإجابات التى قدمها، والواقع أن هذه القضايا لا يتم التطرق إليها اليوم بواسطة باحثى اليهودية الأرثوذكسية. والكثير من المشاكل اللاهوتية التى ناقشها بصراحة توما الإكوينى كانت وستظل غير قابلة للتفكير فيها فى اليهودية التقليدية. (تشتمل اليهودية التقليدية اليوم ليس فقط الأرثوذكسى، ولكن أيضا الكثير من اليهود المحافظين). ومما يثير الدهشة أن الكثير من الأشخاص وخاصة فى الدول التى تتحدث الإنجليزية، مازالوا ينسبون إلى يهودية ما بعد التلمود، التميز الثقافى الذى تحقق فى العديد من الدول على يد الكثير من اليهود فى المائة والخمسين عاما المنصرمة. وساهم هذا الوهم فى انتشار اليهودية الأصولية. والواقع أن العكس هو الصحيح. فمعظم اليهود الذين حققوا تميزا فكريا كانوا متأثرين بالتمرد على هذا النمط من النظم الشمولية وأنكروا الكثير من معتقداته الأساسية.

بالإضافة إلى التأكيد على قتل المهرطقين مادام ذلك ممكنا، من خلال استخدام وسيلة أو أخرى فإن اليهودية التقليدية أوصت بأن يعامل المهرطقون الذين على قيد الحياة معاملة أسوأ من تلك التى يعامل بها غير اليهود أو اليهود الذين تحولوا إلى دين آخر. وأحد الأمثلة المهمة من الناحية الاجتماعية لهذه المعاملة هو ذلك التوجيه المتعلق بدفن جثة

المهرطق والطقوس التى تقوم بها العائلة بعد الدفن، فبينما تسمح اليهودية التقليدية، وفى بعض الأحيان تحض على دفن معظم اليهود الآثمين، فإنها تحرم دفن اليهود المهرطقين وبعض فئات اليهود الآثمين. ويناقش «تراكتات الترومومت من التلمود الفلسطينى»، الفصل الثامن، هالاخاه ٣ ، موضوع الجزار اليهودى فى مدينة تسيبورى بالجليل الذى باع لحما غير كوشير (ليس حلالا وفقا للشريعة اليهودية). فهذا الجزار سقط من أحد الأسطح ومات. فقام الحاخام حنانيا بار حاما، أحد حكماء أوائل القرن الثالث الميلادى بتشجيع اليهود فى المدينة على ترك جثته لكى تنهشها الكلاب. وهذا السلوك كان غير مقبول عادة، حيث إن هناك حاخامات آخرين كانوا أكثر اعتدالا. فكان ميمونيدس وحاخامات آخرون جاءوا من بعده يقنعون بمنع أسرة المهرطق من الحداد بعد موته وأمرها بالابتهاج. وتحدث ميمونيدس عن ذلك بوضوح فى كتابه «قوانين الحداد»، الفصل الأول، القاعدة ١٠.

«إن كل أولئك الذين يفصلون أنفسهم عن الطقوس العامة (لليهود)، مثل أولئك الذين لا يؤدون الفروض أو لا يحتفلون بالأعياد أو لا يترددون على دور العبادة أو يحضرون الدروس ولكنهم يعتبرون أنفسهم أحرارا ويتصرفون مثل الأمم الأخرى، والمهرطقون والمتحولون إلى أديان أخرى والوشاة يجب ألا يكون هناك حداد عليهم، وعندما يموتون فإن أشقاءهم وسائر أقاربهم يجب أن يرتدوا الملابس البيضاء ويقيموا الولائم ويبتهجوا، لأن أولئك الذين يكرهون الرب تبارك اسمه، قد هلكوا».

اتبع معظم اليهود قاعدة ميمونيدس بقوة حتى بداية التحديث اليهودى، وبعض اليهود الأرثوذكس يتبعونها حتى اليوم. وفى المدن الصغيرة فى شرق أوروبا فى القرن التاسع عشر ابتكر اليهود عادة أخرى وهى إهانة دفن المهرطقين واليهود الآثمين الآخرين، وهذه العادة التى ذكرت غالبا فى الكتابات العبرية واليديشية المعاصرة،

كان يطلق عليها «دفن الحمار»، وقد اشتقت من إحدى آيات الكتاب المقدس (أرميا ٢٢ : ١٩) حيث يتنبأ النبى بأن يهوياقيم ملك يهوذا «سوف يدفن دفن حمار».

وهذه العادة تتكون من ثلاثة عناصر عامة. أولا، يقوم أعضاء جمعية الدفن اليهودية، وتسمى الجمعية المقدسة وتتكون من الأفراد الأكثر حماسة بالمدينة، بضرب جثمان المهرطق. وبعد ذلك توضع الجثة على عربة مليئة بالروث وتسير فى شوارع المدينة. وفى النهاية يتم دفن الجثة خارج المقابر دون أى طقوس دينية. والمصطلحان «دفن الحمار» و«خارج المقابر» أصبحا شائعين فى العبرية واليهودية ومازالا يستخدمان للإشارة إلى النبذ الاجتماعى، وقام الكاتب اليهودى الشهير بيرتس سمولنسكن (٤٠ - ١٨٨٥) بتأليف رواية عبرية بعنوان «دفن الحمار»، ولاتزال متداولة. ويحكى سمولنسكن فى روايته عن شاب يهودى يعيش فى إحدى المدن الروسية الصغيرة، تم اعتباره مهرطقا بسبب شجار تافه نشب بينه وبين رئيس جمعية الدفن اليهودى. وقامت الأبرشية اليهودية باستئجار قاتل قام باغتيال المهرطق. وتم دفنه «دفن الحمار». ويعتبر سمولنسكن الأب الروحى للأسلوب الطبيعى فى الأدب العبرى. وتعتمد رواياته على الوصف الدقيق للحياة اليهودية فى الزمن الذى عاش فيه.

اختلف العالمون ببواطن الديانة اليهودية حول تعريف المهرطق. فحكماء التلمود عددوا أنواعا عديدة من المهرطقين أسموهم أسماء مختلفة. ويؤكد التلمود على نوع واحد من المهرطقين يسمى «الأبيقورى» وهو يشير إلى أتباع الفيلسوف اليونانى أبيقور (الذى كان يقول بأن اللذة هى الخير الوحيد فى الحياة). وفى (تراكتات سانهدرين)، ص٩٩ ب من التلمود، كان الأبيقورى يرمز إلى كل اليهود الذين لا يحترمون الحاخامات، وأكد أحد حكماء التلمود أن اليهودى الذى لا يحترم يهوديا آخر فى وجود حاخام يعتبر مهرطقا. وقال الحاخام مناحم هاميرى، فى تعليقه على الفقرة السابقة، أن

اليهودى الذى ينادى حاخاما باسمه دون استخدام لقبه الشرفى يعتبر مهرطقا.

وكان الرأى السائد حتى القرن الثانى عشر هو أن اليهود الذين لا يحترمون الحاخامات ليسوا مهرطقين، ولكنهم «يشبهون المهرطقين». فالمهرطقون الحقيقيون هم أولئك الذين كانوا ينكرون صلاحية التلمود كحجة دينية. وهذا التعريف لم يقلل من عقاب المهرطقين والآثمين الآخرين حينما يكون ذلك ممكنا فى ظل قوانين الطوارئ. وأدى هذا التعريف إلى الحد من الواجب المفروض بواسطة التلمود، والخاص بعزل الكثير من اليهود الذين يدفعون الضرائب عن المؤسسة الدينية. ففى النصف الأول من القرن العشرين، أعلن حاخامان شهيران وهما الحاخام حازون إيش والحاخام كوك الأكبر أن القوانين المتعلقة بالمهرطقين «لا تطبق لأن المعجزات المرئية لا تحدث». ومن الصعب تحديد إلى أى مدى يتم اتباع هذا الرأى اليوم. ومع ذلك سوف نركز فى هذه النقطة من مناقشتنا على الأزمنة قبل المعاصرة.

تبدأ مراجعتنا للعقوبات المطبقة فى ظل قوانين الطوارئ اليهودية على المهرطقين اليهود والآثمين الآخرين، بعبارات أخرى: الحاخامات اليهود الذين كانت ولا تزال سلطاتهم معترفا بها. وهؤلاء الحاخامات كانوا النظار الييشفوت «المدارس الدينية» فى العراق حتى حوالى عام ١٠٥٠ وكان يطلق عليهم اسم «الجاعونيم». (وهى تشير إلى جمع كلمة «جاعون» والتى تعنى فى العبرية «العبقرى»).

وترك الجاعونيم الكثير من الإجابات عن الأسئلة التى وجهت إليهم من كل بقاع العالم اليهودى. وهذه الأسئلة كانت تتعلق بكيفية تصرف اليهود، وخاصة المجتمعات اليهودية. وفى كتابه الذى أشرنا إليه من قبل، استشهد الحاخام سمحة عساف (١٩٢٢)، بمجموعة من هذه الإجابات والتى تقول بأن اليهودى الذى ينتهك السبت يجب أن يجلد وأن تحلق رأسه (٤٥). وأجاب الحاخام بالتوى جاعون كما أشار عساف،

عن السؤال الأكثر صعوبة الذى يقول : هل تجب معاقبة اليهودى الذى يرتكب إثماً يوم السبت أو فى أحد الأعياد الدينية بالجلد فى نفس اليوم المقدس إذا كان هناك خطر يتمثل فى احتمال هروبه قبل أن ينتهى السبت أو يوم العيد الدينى؟ وأجاب الحاخام بالتوى من خلال تذكير من سألوه بأن المؤسسة الدينية لديها سجن خاص بها وأن هذا الآثم يمكن سجنه يوم السبت أو يوم العيد الدينى ويتم جلده بعد ذلك فى وقت لاحق. ومع ذلك توصل الحاخام بالتوى إلى أن قدسية يوم السبت لا تحول دون جلد اليهودى الآثم «عساف ، ص٤٨) أما الحاخام تسيماخ جاعون، الذى عاش بعد الحاخام بالتوى، فسأل عما يجب فعله تجاه الكاهن اليهودى الذى تزوج امرأة مطلقة، وهو أمر محرم على الكهنة كما قال عساف «ص٥٢». عبر الحاخام تسيماخ جاعون عن خوفه من أن هذا الآثم إذا جلد فقط فإنه ربما يذهب إلى مكان آخر، وأثناء الطقوس الدينية قد يقوم بالمشاركة فى مباركة الكاهن ببسط يده فوق رؤوس أعضاء المؤسسة الدينية وأصابعه منفرجة، وأمر الحاخام تسيماخ جاعون بأن يتم قطع العقل الأخيرة من أصابع يديه بحيث يتم التعرف عليه ولا يسمح له بالمشاركة فى المباركة. أما الحاخام الجاعونى الأخير والأكثر شهرة فهو الحاخام هائى، الذى توفى عام ١٠٤٢، وخصص إجابة مستفيضة لشرح كيفية جلد اليهود الآثمين فى ذلك الوقت وأسهب على وجه الخصوص فى شرح كيفية حدوث ذلك من خلال محكمته. وأكد على أن السوط كان يصنع من خيوط القنب وكان ذا سمك خاص للآثمين الأسوأ. وكان يتم ربط الآثم بحيث «تكون اليد اليمنى مثبتة فى القدم اليمنى واليد اليسرى فى القدم اليسرى». ويقف من يقوم بجلده بالقرب من رأسه. وتبدأ الطقوس بتلاوة الآيات المناسبة من الكتاب المقدس. وبعد الجلد يقف المذنب عاريا وملابسه فى يده ويعترف بعدالة عقوبته. وفى النهاية تسأل المحكمة الله أن يعفو عنه.
وفى إجابات أخرى استشهد بها عساف فى الصفحتين ٥٦ و٥٧ حدد الحاخام هائى الآثام التى يجب جلد اليهود من أجلها. وتقصير الشعر

أثناء الأعياد الدينية القصيرة وارتداء الأحذية أثناء فترات الحداد وانتهاك حرمة السبت هي ثلاثة أمثلة لذلك. ويشير عساف أيضا في صفحتي ٥٨ و ٥٩ إلى أن هناك ردودا أخرى في القرن الحادي عشر تقدم دلائل على أن يهود مصر كانوا يجلدون الآثمين أمام أبواب المعابد الدينية، وأن حاخامات إيطاليا بسبب التشوش السياسي العام والاستقلال اليهودي الأكبر كان بإمكانهم إعدام الآثمين وقاموا بذلك بالفعل. وسجل عساف بالفعل العديد من عقوبات الإعدام التي قام بها الحاخام البابلي أبو أهارون، الذي هاجر إلى إيطاليا. فعلى سبيل المثال قام الحاخام أبو أهارون بعقاب أحد الزناة بالشنق وعقاب شخص ارتكب جريمة غشيان المحارم مع أم زوجته بالحرق. وقام عساف بتوضيح مدى التوسع في الجلد من خلال الإشارة إلى أن هناك حاخاما إيطاليا مجهولا قال بأنه إذا كان هناك يهودي يعيش في منزل مع يهود آخرين وقام ببيع غرفته إلى شخص غير يهودي فإنه يجب أن يجلد.

في إسبانيا سواء في ظل الحكم الإسلامي أو المسيحي ازداد استقلال اليهود، وبالتالي فإن العقوبات الخاصة باليهود الآثمين تطورت وتم تسجيل أكبر عدد منها، وفي ص٢٦ استشهد عساف بالحاخام صموئيل الأمير، الذي توفي عام ١٠٤٦: «فاليهود الإسبان كانوا دائما بعيدين عن الهرطقة، باستثناء بعض القرى بالقرب من المناطق المسيحية، حيث كانت الشكوك تراود بعض المهرطقين سرا. وقام أسلافنا بجلد بعض هؤلاء اليهود الذين استحقوا الجلد، والذين ماتوا بسبب ذلك». وأصر الحاخام هائي كما ذكرنا من قبل على أن اليهود الذين يتم جلدهم يجب أن يعترفوا بعدالة العقوبة التي أنزلت بهم وأن يتوبوا. وأوضح الحاخام هائي والعديد من الحاخامات الآخرين أن رفض التوبة يستلزم المزيد من الجلد حتى الموت.

وقد ظلت إسبانيا «خالية من الهرطقة» على الأقل جزئيا لأن المهرطقين كانوا يجلدون حتى الموت، وتباهى الحاخام صموئيل بذلك

تأكد إلى حد ما، تبعا لعساف فى ص ٦٣، من خلال قصة الفيلسوف والمؤرخ اليهودى الحاخام أفراهام بن داود الذى أوضح فى كتابه المسمى شلشليت هاقبالاه «سلسلة التقاليد»، كيف أن القرائيين. (وهم أتباع مذهب القرائية الذى نشأ في بغداد فى القرن الثامن ويحض على عدم التمسك بالتلمود)، عندما بدأوا فى الانتشار، أهينوا وطردوا من كل مدن قشتالة إلا واحدة وفى وقت لاحق بعد وفاة الحاخام داود، قام ميمونيدس بتخفيف عقوبة الجلد. وفى شروحه للمشناه «وهو الجزء الأساسى والأسهل من التلمود ويشرح نفسه بنفسه كما يحتوى على بعض التعليقات»، تراكتات كهولين، والمستشهد به لدى عساف فى ص٦٤، أشار ميمونيدس إلى أن اليهود الذين يرتكبون آثاما تستوجب عقوبة الإعدام «يتم الآن جلدهم فقط وينبذون ولكن هذا النبذ يجب ألا يرفع عنهم أبدا».

والآثام اليهودية التى يجب أن يعاقب عليها بأغلظ عقوبة بخلاف الوشاية التى سوف تتم مناقشتها على نحو منفصل، تتمثل فى عدم الرضوخ لمشيئة الحاخامات أو الاعتداء البدنى عليهم، وهذه التصرفات ليست نادرة الحدوث. وقام عساف فى ص٦٧ بالاستشهاد بردود حاخام القرن الثالث عشر شلومو بن غدريت، حاخام برشلونة الشهير، وقام الحاخام بن غدريت بمحاولة بيان أن أى حاخام «هو وشيوخ اليهود» يمكنه أن يعاقب اليهود الذين يعترضون على سلطة الحاخام و«المشهورين بآثامهم»، ليس فقط بالجلد ولكن بعقوبات أشد مثل قطع أيديهم أو أقدامهم أو قتلهم. وعالجت الكثير من الردود الأخرى بالتفصيل هذه العقوبات الصارمة، وأشار عساف فى ص٧٢ إلى أن الحاخام آشر كان غاضبا من الحاخام موشيه حاخام مدينة فالنسيا بسبب حكمه المخالف لإحدى العادات السائدة والتى تخضع لسلطة آشر والمتعلقة بالتزام يوم السبت. فمن توليدو كتب الحاخام آشر إلى الحاخام إسحاق فى فالنسيا وأمره بأن يحكم على الحاخام موشيه بالإعدام ما لم يتب بعد أن يغرم وينبذ. كما قام الحاخام آشر أيضا

بتناول الجانب المالي الخاص بعقوبة الإعدام، ففي ردوده على «المجتمع المقدس في أفيلاي، كما أشار عساف في ص ٧٤ ، أفاد بأن إعدام الآثم يماثل تشييد أسوار المدينة، فالإعدام يدافع عن طهارة اليهودية كما تقوم الأسوار بحماية المدينة، ولذلك كما يجب على كل يهودى دفع الضرائب لصيانة أسوار المدينة، فإن كل يهودى ملزم بالدفع من أجل إعدام اليهود الآثمين.

ومثالنا الأخير من إسبانيا هو ملخص ردود الحاخام يهودا، ابن الحاخام آشر. وهذه الردود المستشهد بها بواسطة عساف في ص ٧٧، مهمة ليس فقط لأنها وثائق تسجل استخدام العنف ولكن لأنها تصف الإجراءات المعتادة في حالات الطوارئ لعمليات اتخاذ القرارات الهالاخية في القضايا التي تعرض على المحكمة الحاخامية. والشرح التفصيلي لمنطق قانون الطوارئ اليهودى المختلف كلية عن الهالاخاه، يتضح جيدا في هذه الردود.

والركيزة الأساسية لإجراءات الهالاخاه المعتادة، القائمة على الكتاب المقدس والمستخدمة في كل القضايا المنظورة أمام المحكمة الحاخامية مع عدم وجود المستندات المكتوبة التي تستخدم فقط في القضايا المدنية، هي أن حكما يجب أن يعتمد على شهادة شاهدين أو أكثر من اليهود الذكور، وشهادة كل شاهد من الشاهدين يجب أن تتطابق تماما. وفي أحد الأمثلة التوضيحية قام الحاخام يهودا بالاستشهاد بقضية أحد اليهود الذى اعتدى على يهودى آخر بالضرب بقسوة حتى مات. ورأى شاهدان ، موشيه وإبراهام، واقعة الضرب. ورأى شاهدان آخران، يوسف وإسحاق، بداية الضرب، ثم غادرا المكان وبعد أن عادا شاهدا الشخص الذى تعرض للضرب ملقى على الأرض والدماء تسيل من رأسه. وبعد أن شكر الله «الذى ألهم ملوك الأرض أن يمنحوا اليهود سلطة الحكم، كما نحكم الآن»، أوضح الحاخام يهودا أن قواعد القانون اليهودى الحالي، والتي ليست جميعها تابعة للهالاخاه، يجب أن تطبق في القضية المنظورة. وقرر الحاخام

يهودا كما استشهد به عساف ما يلي :

«إذا وجدنا أن شهادة موشيه وإبراهام هي الشهادة الصحيحة فإن المتهم يجب أن يعدم، وإذا وجدنا أن شهادة أحدهما صحيحة ووجدنا أن شهادة يوسف أو إسحاق صحيحة، فإن يدى المتهم يجب أن تقطع، وإذا وجدنا أن شهادة موشيه أو إبراهام صحيحة ولكن شهادة كل من يوسف وإسحاق غير صحيحة فإنه يجب قطع اليد اليمنى للمتهم، أما إذا وجدت شهادة كل من موشيه وإسحاق غير صحيحة، ولكن شهادة كل من يوسف وإسحاق صحيحة، فإنه يجب قطع اليد اليسرى للمتهم. وإذا وجد أن كل الشهادات غير صالحة، فإن المتهم يجب أن ينفى من المدينة لأن مسألة قتله «للضحية» أصبحت شائعة».

فى دول أوروبية أخرى، كان الاستقلال اليهودى وعواقبه أقل قوة مما كان عليه فى إسبانيا. وربما يرجع ذلك إلى أن الدول الأخرى، على الرغم من طبيعتها الإقطاعية، كانت أقوى من الممالك الإسبانية قبل الجزء الأخير من القرن الخامس عشر. وفى إنجلترا، حيث كانت السلطة الملكية قوية بشكل خاص وحيث استوطن اليهود إنجلترا فقط بعد غزوها بواسطة ويليام الأول، لم تكن هناك، بقدر علمنا، أى حالات جلد أو عقاب لليهود بسبب جرائم دينية. وفى باقى دول أوروبا، حيث كان الاستقلال اليهودى يعتمد على ملاك الأراضى الإقطاعيين أكثر من اعتماده على الملك أو الامبراطور، كان هناك عدد أكبر من الحالات، على سبيل المثال، فى ألمانيا القرن الرابع عشر سجل الحاخام الشهير يوسف ويل تبعا لعساف فى ص ١٠٢، فى كتابه الخاص بالردود أن الحاخام شيمون من بلدة «براونسشفيج» سأله عما إذا كان يجوز فقء عينى يهودى قام بانتهاك حرمة السبت ويوم كيبور «عيد الغفران». وأجاب الحاخام ويل بأن ذلك جائز. وأشار إلى الدليل على ذلك من التلمود. وفى حالة أخرى كما جاء لدى عساف ص ١٠٤، أمر الحاخام تام، الذى كان يعيش فى شمال فرنسا فى القرن الثانى عشر بأنه فى حالة قيام يهودى بضرب يهودى آخر فإنه يجب أن يعاقب

بقطع يده وليس الجلد. وأورد عساف فى ص ١٠٣ أن حاخاما آخر رأى أباه ينزل عقوبة الجلد بأحد الآثمين. وكان الجلد يستخدم على نحو شائع فى ألمانيا كعقاب للآثام الدينية الأقل، وكان قطع الأطراف يعتبر مسألة نادرة الحدوث. وحتى استخدام عقوبة الجلد تناقص مع مرور الوقت، وكانت الغرامة والنبذ والصيام الإجبارى تستخدم بواسطة اليهود الألمان باعتبارها العقوبات الوحيدة.

وفى الدول الواقعة شرق ألمانيا وخاصة فى بولندا وبعد عام ١٥٦٩ فى الكومنولث البولندى - الليتوانى حيث كان الاستقلال اليهودى واسعا، كانت العقوبات التى يطبقها الحاخامات توازى تلك التى كانت تطبق فى إسبانيا. وكل مجتمع يهودى كان لديه السجن الخاص به وأدوات التعذيب الخاصة به، والتى كانت تسمى بالييديشية «كونيه»، وكانت توضع أمام أبواب المعابد الكبرى، وكانت تتكون من قضبان حديدية لتقييد ذراعى المذنب لكى تجبره على الوقوف فى مواجهة المترددين على المعبد الذين قد يبصقون عليه أو يصفعونه أو يلطمون وجهه أو يلحقون به أى أذى بدنى آخر. وكان الجلد يمارس بحرية فى المعبد وخاصة أثناء تلاوة صلاة الصباح. ويشير عساف فى ص ١٢٢ إلى أن حاخام القرن السادس عشر الشهير شلومولوريا، أكد لسائليه أن المذنب الذى يجلد جيدا لا يعود إلى الذنب مرة أخرى، وأن عدد الجلدات يجب أن يتحدد بواسطة المحكمة على نحو يتواءم مع الذنب. وفى الجرائم الخطيرة كان يحكم بالبتر والموت. وفى الجيل اللاحق على جيل الحاخام شلومو لوريا، كتب حاخام شهير آخر وهو الحاخام ماهرام مائير من لوبلين، تبعا لعساف فى ص ١٢٣، عن قاتل يهودى قبض عليه بواسطة السلطات البولندية. أصر ماهرام على وجوب إعدام القاتل بواسطة السلطات الحاخامية أو السلطات البولندية. وحذر ماهرام الحاخامات من استبدال البتر بالإعدام:

«إننى أتذكر ما حدث عندما كنت صغيرا، فى زمن الحاخام شيخنا آر. آى. بى ففى ذلك الوقت كان هناك يهودى شرير إلى أقصى حد،

وأمر الحاخام الأعظم باقتلاع عينيه وقطع لسانه، وبعد حدوث ذلك تحول إلى المسيحية وتزوج من امرأة غير يهودية وأنجب أطفالا. وكان هو وأفراد أسرته دائما أعداءً لليهود».

في القرن السابع عشر كان التشويه «أو البتر» كعقاب، بدلا من الموت أو الجلد، ينزع إلى الاختفاء بين يهود الكومنولث البولندي - الليتواني. وظهر النفي من المدينة كعقاب جديد. وكان يمكن للمجتمع اليهودي المستقل في مدينة معينة أن يحدد أي اليهود يمكنهم الإقامة في المدينة، وكان حق الإقامة يمنح تلقائيا لأطفال المقيمين القدامى ولزوجاتهم وللحاخامات. وكل اليهود الآخرين كان يجب عليهم التقدم بطلب إلى سلطات المجتمع، وبعد دفع الرسوم لمدة معينة يحصلون على حق الإقامة. وكانت إحدى أقسى العقوبات التي يمكن للمجتمع اليهودي الحكم بها هي النفي، لأن اليهود المنفيين كانوا يجدون صعوبة كبيرة في الحصول على حق الإقامة في مكان آخر. ومع ذلك فإن هذه العقوبة كانت تستخدم على نحو متزايد في القرنين السابع عشر والثامن عشر. وحينما قامت روسيا وبروسيا والنمسا بعد ذلك بتقسيم بولندا، فإن هذه القوى الاستعمارية الثلاثة قامت بتقييد استقلال المجتمعات اليهودية ومنعتها من طرد أعضائها من المدن.

وكان النفي في القرنين السابع عشر والثامن عشر يتم على نحو فوري، بصرف النظر عن وقت حدوث ذلك من أوقات السنة، وكان يستخدم كسلاح في النزاعات الدينية، مثل النزاع بين الحسيديين وخصومهم من الميتناجديم، وتبعا لما أورده عساف في ص ١٢٧، أمر اتحاد المؤسسات الدينية في ليتوانيا بالطرد الفوري من المدينة، بالإضافة إلى العقاب البدني والغرامة المالية لأي يهودي «يتعامل مع الحاخامات بازدراء».

وفي قرار آخر أصدر اتحاد المؤسسات الدينية أمرا بطرد اليهود الذين تم طردهم في السابق من مدينة أخرى. وكان اليهود المطرودون

يجبرون على توقيع وثيقة، شبيهة بتلك التى أوردها عساف فى ص ١٣٢ من مدينة كراكو، تنص على أنهم إذا ظلوا فى المدينة ولو حتى لليلة واحدة فإنهم يجب أن يقبلوا بأى عقوبة تطبق عليهم بواسطة زعماء المجتمع، بما فى ذلك «بتر الأذن أو الأنف أو أى عضو آخر». وفى حالة أخرى استشهد بها عساف تم الحكم على يهودى طرد من مدينة كراكو بسبب اشتراكه فى سرقة منزل أحد الأثرياء بأن يجلد أمام باب أحد المعابد، وكان عليه أن يوقع على تعهد ينص على أنه إذا وجد فى مدينة كراكو مرة أخرى فإنه يعلم أن «أذنيه سوف تقطعان بالإضافة إلى عقوبات أخرى».

وكانت آلة التعذيب تستخدم أيضا فى هذه الحقبة الزمنية كعقاب للمهرطقين على وجه الخصوص، ولكنها كانت تستعمل أيضا فى عقاب المذنبين الذين يرتكبون جرائم صغيرة. وفى عام ١٧٧٢، حينما بدأ زعماء المجتمع اليهودى فى «فيلنا» صراعهم ضد الحركة الحسيدية فإنهم عاقبوا الحسيديين أولا فى مدينتهم، وقبل عشية صلاة السبت كانت كل الكتابات الحسيدية قد أحرقت بالقرب من أداة التعذيب بحيث يرى كل رواد المعبد الرماد حينما يتطاير فى الهواء. وقبل حرق زعيم حسيدى «فيلنا»، مائير إيسار، تم جلده بشكل خاص فى «قاعة المجتمع». وبعد الجلد كان عليه أن يعترف بذنوبه، وذلك تبعا للصيغة التى أعدتها المحكمة الحاخامية فى المعبد أثناء صلوات صباح السبت. . وبعد ذلك تم سجنه لمدة أسبوع فى قلعة فيلنا، وأراد الجاعون، حاخام إلياهو السلطة الحاخامية الأعلى بمدينة فيلنا فى ذلك الوقت، وضعه على آلة التعذيب ولكن زعماء المجتمع اليهودى رفضوا ذلك ربما بسبب أهمية عائلة إيسار وهذه القصة التى أوردها عساف ص ١٣٩ موجودة بالتفصيل فى التاريخ المكتوب بالعبرية لهذه الفترة.

وقصة مائير إيسار تعتبر مثالا نموذجيا للاضطهاد الممارس بواسطة السلطات الدينية اليهودية فى أوروبا الشرقية ضد أحد المنشقين الدينيين اليهود فى نهاية القرن الثامن عشر، فالتعصب والنزاعات الدينية

المصحوبة بالنبذ من المجتمع وحرق أو دفن الكتب والشغب الشعبي ضد المهرطقين والمنشقين كانت السمة الغالبة لكثير من المجتمعات اليهودية الأوروبية خلال معظم فترات القرن الثامن عشر باستثناء تلك التى كانت موجودة فى إنجلترا وهولندا. ومع قرب نهاية القرن قلت الحماسة الدينية أولا فى ألمانيا وإيطاليا، وبعد ذلك فى المدن الأكبر فى أوروبا الشرقية، واستمر ذلك أثناء معظم القرن التاسع عشر بين الجانب الأعظم من التجمعات اليهودية فى أوروبا الشرقية والتى كانت تعيش فى مدن أصغر. والغالبية العظمى من المهاجرين اليهود إلى الولايات المتحدة وبريطانيا وبعض الأماكن الأخرى فى القرن التاسع عشر جاءت من أماكن كان فيها الاضطهاد الدينى لليهود بواسطة يهود آخرين يمارس على نطاق واسع لفترة طويلة من الزمن ووجدت نفسها فجأة فى بلدان لا يمكن ممارسة هذا الاضطهاد فيها، على الأقل على نفس النطاق.

ورغبة الكثير من يهود القرن الثامن عشر فى ممارسة الاضطهاد كانت تبدو أكبر من قدرتهم الفعلية على القيام بذلك، وأحد حوادث التاريخ والمتمثلة فى انشقاق مدينة «فرانكست» والذى حدث فى بولندا عام ١٧٥٦ واستمر لبضع سنوات بعد ذلك يقدم مثالا واضحا على ذلك، فحينما علم زعماء المجتمع اليهودى المستقل فى بولندا بهذا الانشقاق قام أحدهم وهو الحاخام باروخ اليونانى بكتابة خطاب مطول إلى صديقه الذى يعيش بألمانيا، والذى كان أحد أعظم حاخامات جيله وهو الحاخام يعقوب إمدين. وفى خطابه وصف الحاخام باروخ الوقائع وأهداف المجلس الرئيسى للمجتمع اليهودى الذى انعقد فى سبتمبر ١٧٥٦ بمدينة «كونستنتينوف» وكان المجلس يسمى «لجنة الأراضى الأربعة» إشارة إلى الأقاليم البولندية الرئيسية الأربعة. ووصف الحاخام باروخ تفاصيل الانشقاق وقال أن لجنة الأراضى الأربعة قررت «عرض الأمر على السيد العظيم الذى يحكم فى شئون العقيدة المسيحية البابا فى روما» وأن تكافح هذا الانشقاق، وكتب الحاخام

باروخ أيضا أن اللجنة طلبت «مساعدة الأساقفة البولنديين من أجل الحكم على هؤلاء الملعونين بالحرق على الخازوق». وأشار مائير بالبان المؤرخ الشهير للمجتمع اليهودى البولندى إلي أن الرغبة فى رؤية مئات «الملعونين» وهم يحرقون على الخازوق بواسطة السلطات المسيحية التى كانت فى هذا الوقت بالذات تضطهد اليهود البولنديين، تشير إلى مدى عمق الكراهية التى كانت تشعر بها الزعامة اليهودية تجاه المنشقين.

فشلت محاولة اللجنة. ومضى الحاخام باروخ إلى أبعد من ذلك محاولا توريط راعيه الوزير القوى برول الذى كان يتمتع بمكانة بارزة لدى الملك البولندى أغسطس الثالث، فى هذا الأمر. وأراد الحاخام باروخ من برول أن يرتب له مقابلة شخصية مع سفير البابا فى وارسو وبالتأكيد لم يكن البابا فى ذلك الوقت بنديكت الثامن عشر ليوافق على هذا الإحراق الجماعى، ولكن المنشقين على كل حال حظوا بمساعدة الأساقفة الأقوياء والشخصيات البارزة وحتى بمساندة الكونتيسة برول «زوجة الوزير» وكانت النتيجة هى أن الزعماء اليهود لم يستطيعوا كما أرادوا أن يمارسوا الاضطهاد.

ربما يكون من المفيد مقارنة حادث انشقاق فرانكست بما عاناه باروخ سبينوزا فى هولندا قبل ذلك بنحو مائة عام. وبسبب النظام الهولندى المتسامح نسبيا والأكثر معاصرة، لم يستطع المجتمع اليهودى فى أمستردام سوى عزل «أو نبذ» سبينوزا. فعلى الرغم من توق أعضاء هذا المجتمع لفعل ذلك فإنهم لم يستطيعوا جلد أو قتل سبينوزا، كما لم يستطيعوا أن يجبروه على الاعتراف علنا فى المعبد بأنه ارتكب إثما من خلال تعليقاته وعباراته التى تفوه بها عن اليهودية. فكل ما استطاعه المجتمع اليهودى هو نبذ سبينوزا ومنعه من الحضور إلى المعبد. وقبل سنوات قليلة من نبذ سبينوزا، قام المجتمع اليهودى بنبذ أوريل داكوستا لأسباب مشابهة.

ومع ذلك، فإن داكوستا لم يكن لديه ذلك الثبات الذى كان لدى

سبينوزا ولم يستطع الوقوف فى وجه استبعاده من المعبد ومن المجتمع اليهودى.

وطلب داكوستا من الحاخامات أن يصفحوا عنه. فعاقبوه ليس فقط بتقديم الاعتراف المعتاد ولكنه كان مضطرا أيضا للرقود أمام مدخل المعبد بحيث يقوم الداخلون بوطئه بأقدامهم قبل الصلاة لله، وافق داكوستا على الشرطين، وبعد أن اعترف بذنبه وداسته الأقدام، تم الصفح عنه فى الحال. ولكنه عاد مرة أخرى لأفكاره المهرطقة. وخوفا من أن ينبذ من جديد وأن يحدث له شيء أسوأ من أن يداس بالأقدام باعتباره مذنبا يعاود ارتكاب الإثم، قام بالانتحار.

والمقارنة بين مصيرى سبينوزا وداكوستا تقدم درسين لليهود المعاصرين الذين لايرغبون فى الخضوع للاستبداد السائد غالبا بين صفوف الأرثوذكسية اليهودية:

١) التوصل إلى حل وسط أو تسوية فكرية مع الأرثوذكسية اليهودية لا يمكن تحقيقه تماما كما هو الحال مع أى نظام استبدادى.

٢) النهج التبريرى فى تناول الماضى اليهودى، الذى هو فى الواقع عبارة عن مجرد تجميل كاذب وتزييف لجزء من التاريخ اليهودى ويهدف إلى محو الأهوال وممارسات الاضطهاد التى عاناها اليهود على أيدى زعمائهم وحاخاماتهم، لا يؤدى فى الواقع سوى إلى زيادة الأخطار الناجمة عن تكوُّن «الخومينية» اليهودية. ففى إسرائيل يؤدى ذلك الحل الوسط إلى زيادة الأخطار الناشئة عن احتمال هيمنة الحاخامات على المجتمع الإسرائيلى حيث لن يترددوا فى معاقبة اليهود الآخرين كما فعل أسلافهم الغابرون عندما لم يمنعهم أحد من فعل ذلك.

لقد رأينا أن التطبيق الرسمى والقانونى للعقوبات المغلظة كان يعتمد على مقدار الاستقلال اليهودى الذى وجد فى أماكن معينة وفى عصور معينة. وقامت روسيا وبروسيا والنمسا، كما أشرنا من قبل، بإلغاء الاستقلال اليهودى وأخضعت اليهود للقانون الجنائى المعتاد للبلاد التى يعيشون فيها. وعلى الرغم من مدى سوء القانون الجنائى فى ذلك

الوقت، فإنه كان أفضل وأكثر إنسانية من القانون اليهودى الذى يطبقه الحاخامات ووجدت المجتمعات اليهودية، التى حرمت على حين غرة من سلطتها فى اضطهاد المهرطقين، أنه من الصعب عليها أن تكيف نفسها مع الوضع الجديد. فرقابة الشرطة المهلهلة التى كانت توجد فى روسيا القيصرية أثناء معظم فترات القرن التاسع عشر سمحت للسلطات اليهودية باضطهاد المجددين الدينيين من خلال أحداث شغب، كانت أشبه بما كانوا يسمونها «المذابح» حينما ترتكب بواسطة غير اليهود ضد اليهود. وحتى عام ١٨٨١ فى روسيا كان عدد حوادث الشغب التى قام بها اليهود ضد اليهود الآخرين ربما يزيد على عدد المذابح التى قام بها غير اليهود ضد اليهود. وكان الحسيديون الذين عانوا الاضطهاد فى السابق هم أكبر وأسوأ المضطهدين، وكانت أنشطتهم موجهة بوجه خاص ضد الصحافة العبرية الناشئة فى ذلك الوقت والتى ظهرت قبل الصحافة اليديشية(*). واستفزت الصحافة العبرية الحسيديين بشكل أساسى من خلال الكتابة والاحتجاج على الاضطهاد الدينى الذى يمارسه الحاخامات وأتباعهم.

ومن أجل تجنب الاضطهاد من قبل مثيرى الشغب اليهود كانت معظم الصحف العبرية تطبع وتصدر فى سان بطرسبرج أو خلف الحدود البروسية، حيث كانت الشرطة قوية والمجتمعات اليهودية هناك تتكون من أفراد مثقفين.

يشتمل تاريخ اليهود فى روسيا حتى عام ١٨٨١ على الكثير من اضطهاد اليهود لليهود. والمثالان الآتيان اللذان يتميز أحدهما بالكبر والآخر بالصغر يعبران عن ذلك. المثال الكبير مأخوذ من مقال طويل كتبه دافيد عساف، ونشر فى جريدة «صهيون» (٤ نوفمبر ١٩٩٤)، وهى جريدة فصلية تصدر عن الاتحاد التاريخى الإسرائيلى ويصف عساف الشغب الذى حدث فى «أومان» بأوكرانيا، حيث تم دفن أحد الحاخامات الحسيديين الأكثر شهرة، وهو ناحمان من مدينة براسلو،

(*) اليديشية: هى خليط من اللغتين العبرية والألمانية كان يتحدث بها يهود ألمانيا والدول المحيطة بها.

وحيث كان يُهاجم أتباعه الذين كانوا يأتون إلى مقبرته مع مطلع كل عام يهودى للحج إليها، وكانوا يضربون عاما بعد عام لمدة عشرات السنين بواسطة الحسيديين الآخرين.

وبلغت حوادث الضرب السنوى ذروتها فى عام ١٨٦٣ من خلال هجوم غادر قام به تحالف الطوائف الحسيدية وتم وصفه بواسطة كاتب يهودى معاصر فى الصحف العبرية التى كانت تصدر فى ذلك الوقت. وأشار كاتب المقال إلى مدى التشابه بين هذه «المذبحة» الحسيدية وتلك التى ترتكب بواسطة المعادين للسامية. كما وصف أيضا كيف قام الحسيديون بتحطيم الصوان المقدس الذى تحفظ فيه صحائف التوراة. كما اعتبر الحسيديون المكان يمثل الهرطقة فى حد ذاته، وتم ضرب ورجم المهرطقين المزعومين وحينما أصابهم الإنهاك، هاجموهم مرة أخرى.

وقام المهاجمون باستغلال الفرصة لضرب اليهود المتمدينين الموجودين بالمكان، بمن فيهم النساء اللائى اعتبرن يرتدين ملابس غير محتشمة، وخوفا من حدوث هجمات أخرى، قام حسيديو «براسلو» باستئجار فرقة من الجنود الروس للدفاع عنهم. وفى العام التالى أدى انهيار التحالف الحسيدى وهجوم اليهود على اليهود فى مدينة رازيشفتس «جنوب كييف» إلى منح حسيديى براسلو هدنة مؤقتة، وقد اندلع شغب رازيشفتس حينما قال حاخام مقدس من مكان آخر بعمل طائش يتمثل فى زيارة رازيشفتس، حيث يقيم حاخام مقدس آخر، لجمع التبرعات.

وكما كتب عساف فى مقاله: «بالطبع، قام حسيديو الحاخام المقدس المحلى بلعن ورجم الحاخام الدخيل حتى أشرف على الموت!! وجرح العديد من الحسيديين.

وبعد ذلك زعم الحاخامان، كل من جانبه، أن ذبح الآخر غير شرعى (ليس كوشير)، كما زعم كل حاخام أيضا أن صلوات الآخر «مكروهة من الرب».

وقد اتهم الحاخام المقدس لمدينة رازيشفتس بأنه مزور للنقود واحتقره زملاؤه. وقامت الشرطة بإجراء تحقيق مهذب فى الأمر. وعلى الرغم من أن حسيديى براسلو حصلوا على هدنة مؤقتة، فإنهم تبعا لعساف، كانوا يهاجمون بشكل منتظم بواسطة الحسيديين الآخرين حتى عام ١٩١٤.

أما المثال الصغير فهو ذلك الذى حدث فى مدينة فيشيجراد عام ١٨٨٦ وكتبت عنه الصحافة العبرية المعاصرة. ومن خلال استشهاده ببحوث المؤرخين اليهود الجدد، كتب روزين فى المقال المشار إليه من قبل:

«قام حسيديو مدينة فيشجراد بالاعتراض على قائد فرقة الإنشاد الجديدة «للمعبد» لأن ملابسه نظيفة، ويضع حذاء مطاطيا فوق حذائه العادى.

ولذلك قاموا بشغب فى المعبد ضد هذا الشخص وضربوا خصومهم حتى سالت دماؤهم. وبعد ذلك تم القبض على الحاخام الذى حرض على الشغب وأخذ إلى مقر الحكومة لسؤاله عما حدث. أما مثيرو الشغب الفعليون فقد وجهت لهم تهم جنائية».

بعد عام ١٨٨١ بدأ الوضع فى روسيا فى التغير وتناقصت الهجمات اليهودية على اليهود لمدة أعوام عديدة أولا، فى عام ١٨٨١ بدأت المذابح الروسية والأوكرانية بتحريض من الحكومة، وبدأت الهجرة الجماعية لليهود من روسيا. بعد ذلك أصبحت رقابة الشرطة أكثر تشددا فى ظل حكم إلكسندر الثالث الذى صعد إلى العرش بعد اغتيال الثوار لوالده الكسندر الثانى. وعلى الرغم من تناقص هجمات اليهود على اليهود فإنها ظلت مستمرة فى روسيا حتى عام ١٩١٤.

فى المناطق البولندية التى كانت تسيطر عليها الشرطة النمساوية، كان الإشراف أقوى وبذلك توقفت هجمات اليهود على اليهود. وكان اليهود الأرثوذكس يستخدمون بعض الأشكال السرية للاضطهاد الدينى ضد اليهود المتمدينين، الذين أطلقوا على أنفسهم اسم «مسكيليم» أى

المتنورين. وفى حالات متطرفة كان يتم تحريض خدم المسكيليم لقتل مخدوميهم أو استخدام طرق اغتيال أخرى.

وكتب روزين عن ذلك يقول:

«بمناسبة اقتراب الذكرى السنوية لاغتيال رابين، قام البروفيسور زائيف جريس من قسم الفكر اليهودى بجامعة بن جوريون، بإرسال قصة تحكى ما حدث فى ليمبرج (الآن تسمى ليفيف) فى القرن التاسع عشر.

فى عام ١٨٤٨ كانت ليمبرج جزءا من النمسا. تم اغتيال حاخام يدعى أبراهام كوهين على يد اليهود لأسباب دينية. وكان هذا جزءا من المواجهة المحتدمة بين اليهود المتنورين والحسيديين المتعصبين، وتم نشر مقال عن ذلك فى الصحافة العبرية فى فلسطين وذلك فى جريدة «دافار» بعد عام من اغتيال أرلوزوروفيتش (أحد زعماء حزب العمل) وهوجم المقال بشدة من الصحافة العبرية اليمينية فى ذلك الوقت».

استشهد روزين أيضا بما قاله البروفيسور بارتال الذى كان يؤمن بأن هجمات الحسيديين فى المواجهة العامة القائمة كانت إرهاصة تبشر بحدوث المذبحة التى ارتكبها باروخ جولدشتاين(*). وعلق بارتال على ذلك بالقول أن المسكيليم كانوا يهاجمون الحسيديين أو اليهود المتدينين الأرثوذكس الآخرين فقط من خلال الهجاء. فقط إذا نفد صبرهم فإنهم كانوا يهاجمون أو يدافعون عن أنفسهم باستخدام العنف المادى.

وكتب روزين عن القصة التى أوردها البروفيسور جريس بخصوص اغتيال الحاخام كوهين بالسم مايلى:

«فى ليمبرج فى أربعينيات القرن التاسع عشر، بعد البحث عن حاخام لكى يرأس صلاتهم، عثر المسكيليم على الحاخام أبراهام كوهين، الذى كان حاخاما فى إحدى المدن النمساوية الصغيرة والتى تدعى «هوهنماس».

(*) يقصد بها مذبحة الحرم الابراهيمي التى ارتكبها السفاح باروخ جولد شتاين فى ٢٥ فبراير ١٩٩٤، وسوف نتعرض لها بالتفصيل فى الفصل السادس

وقد ولد أبراهام كوهين فى مدينة «بوهيميا» لأب يهودى فقير يعمل بائعا متجولا، ولكنه حصل على تعليم عالٍ. فبعد أن أنهى دراسته فى الياشيفاه حصل على تصريح لكى يصبح حاخاما فتوجه إلى جامعة براغ للدراسة فيها وحصل على درجة علمية منها. ويقول المؤرخ د. زائيف أهارون أشكولى، الذى قام بالبحث فى قصة الحاخام كوهين، حيث نشر تعليقه عام ١٩٣٤، أن الحاخام كوهين، كان معتدلا« ولكن باعتبار أنه حصل على تعليمه طبقا للأسلوب الألمانى فى ذلك الوقت. فإنه كان يعتبر متمدينا». وفى عام ١٨٤٤، تم تعيين الحاخام كوهين حاخاما لتجمع ليمبرج من المسكيليم، وبعد مرور عامين أصبح حاخاما لكل المسكيليم فى مقاطعة ليمبرج. وحاول من جانبه إحداث تغيرات فى الحياة اليهودية، ولكنه سرعان ما ووجه بمعارضة شرسة من جانب «المتعصبين الدينيين» كما أطلق عليهم أشكولى. على سبيل المثال قام كوهين بافتتاح مدارس يهودية تعمل كبديل للمدارس الدينية «البيشينوت» وحاول إلغاء اختبارات المواد الدينية اليهودية التى كان الحاخامات الأرثوذكس يفرضونها على كل الأزواج والزوجات الشباب عند خطبتهم. وكانت أهم مبادرة قام بها كوهين، تبعا لأشكولى، هى محاولته إلغاء الضرائب على اللحم الكوشير (الحلال) وشموع السبت، التى كان يدفعها يهود ليمبرج إلى السلطات النمساوية. وهذه الضرائب كانت عبئا على فقراء اليهود ولكنها كانت مصدرا للدخل للكثير من زعماء الأرثوذكس. وكانت طريقة دفع الضرائب تتم على النحو التالى: يحصل أحد الأثرياء اليهود مقابل دفع مبلغ معين للسلطات على حق فرض ضريبة معينة على اليهود وبذلك يحصل على مبلغ ضخم مقابل جهوده.

وقام خمسة من كبار جامعى الضرائب، والذين هم جميعا من المتقين، برئاسة المعارضة ضد كوهين. وكان يقودهم الحاخام هيرتس برنشتاين، المنحدر من إحدى العائلات الحاخامية المعروفة، وكان يليه الحاخام تسفى أورنشتاين ابن الحاخام الأرثوذكسى السابق

لمدينة ليمبرج. وفى عام ١٨٤٦، أرسل كوهين بمذكرة إلى إمبراطور النمسا يشير فيها إلى الظلم والتعسف الذى يحدث فى جمع الضرائب. وبسبب علاقته بالسلطات، تمت دعوته مرتين للتحدث إلى الإمبراطور. وقام جامعو الضرائب الخمسة بدورهم بإرسال مذكرة يشيرون فيها إلى أن جمع الضرائب هو مصدر رزق الآلاف من الأسر اليهودية. ومع ذلك وافقت السلطات النمساوية على طلب كوهين وقامت بإلغاء الضرائب فى مارس ١٨٤٨.

ربما لم يكن إلغاء هذه الضرائب عائدا بشكل أساسى إلى طلب كوهين. حيث إن ثورة ١٨٤٨، التى بدأت فى فيينا نتيجة لطغيان هابسبرج، ربما تكون السبب الأساسى فى ذلك. فقد نظر الليبراليون النمساويون إلى هذه الضرائب باعتبارها نوعا من التمييز وعارضوها وكان يساندهم فى ذلك المثقفون (أو المتنورون) اليهود. وكان اليهود الأرثوذكس، وخاصة حاخاماتهم، متحالفين بقوة مع الحكم الاستبدادى، ليس فقط فى النمسا ولكن فى أوروبا والشرق الأوسط. وواصل روزين سرد حكايته عن سوء حظ الحاخام كوهين قائلا:

«سواء كان ذلك بسبب المعارضة الأيديولوجية لكوهين أو لأسباب اقتصادية أو لكليهما، فإن الوجهاء اليهود الخمسة (أو جامعى الضرائب)، بدأوا فى عام ١٨٤٨ كفاحا شاملا ضد الحاخام أبراهام كوهين. فقاموا أولا بتعليق لافتات فى المعابد تحرض اليهود على البصق فى وجهه ورجمه. وحينما زاد اضطهاده، طلب منه أصدقاؤه الموافقة على أن تتم حراسته طوال الوقت، ولكنه رفض، قائلا إنه لايعتقد أن اليهود سوف يقتلونه. بعد ذلك قاموا بتعليق لافتات تقول بأن «قانون المطارد». (الذى سوف يتم شرحه لاحقا) ينطبق على الحاخام كوهين. على سبيل المثال، كانت إحدى اللافتات تقول: «أنه أحد اليهود الآثمين الذى يقول التلمود عنهم أن دمهم حلال» (بمعنى أن أى يهودى يستطيع ويجب عليه أن يقتلهم).

وقالت لافتة أخرى: «هل يوجد يهودى يمكنه أن يحررنا من الحاخام الذى يدمر أتباعه؟» وقرر المتعصبون أولا أن يتم الاغتيال أثناء عيد البوريم(*) فى ١٨٤٨، وقاموا حتى بإجراء القرعة لتحديد الذى سوف ينال شرف قتل الحاخام، ولكنهم أخفقوا. وبعد مرور شهر على ذلك وأثناء عيد الفصح فى عام ١٨٤٨ قام حشد من اليهود برجم منزل الحاخام كوهين بالحجارة، ولم ينقذه سوى عدد كبير من رجال الشرطة. ومع ذلك فى يوم ٦ سبتمبر ١٨٤٨، نجح إبراهام بار بيلبل، أحد السفاحين اليهود، فى دخول منزل الحاخام دون أن يراه أحد وتوجه إلى المطبخ ووضع سم الزرنيخ فى حساء الحاخام، أثناء طهوه، وبعد وقت قصير، تناول الحاخام كوهين وأسرته الحساء، ومات الحاخام وابنته الصغيرة. ولم يقم الحسيديون وزعماؤهم بحضور الجنازة وقاموا بالاحتفال بموته. علاوة على ذلك، لم يقم أى حاخام أرثوذكسى بنطق كلمة واحدة لإدانة التحريض على القتل أو القتل.

وشارك الكثير من اليهود القوميين الذين لم يكونوا من الأرثوذكس فى التزام الصمت. وقام المؤرخ اليهودى جراتس، مؤلف التاريخ الأول لليهود، بحذف هذه القصة من تاريخه، الذى نشر بعد ذلك. وقام اليهود الأرثوذكس بإخراج جثة الحاخام القتيل من مقابر الوجهاء وقاموا بدفنها فى مكان آخر».

يقول البروفيسور زائيف جريس:

«إن ما توصلت إليه فى النهاية، وأنا آسف لذلك، هو أنه لاشىء جديد فى اليهودية» فنزع الشرعية والتحريض والكتابة على الحوائط وعلى وجه خاص صمت الحاخامات فى تلك الأزمنة وكل شىء آخر كان يماثل تماما ما حدث قبل اغتيال رابين.

هل كان قتل الحاخام أبراهام كوهين حالة استثنائية؟ فى ديسمبر عام ١٨٣٨، قام حاكم جنوب غرب روسيا، الجنرال ديمترى جابربلوفتش

(*) البوريم: هو عيد الأنصبة. الذى يحتفل به اليهود، وهذا العيد يطلق عليه العرب اسم عيد المساخر لأن اليهود يحتسون فيه الخمر بكميات كبيرة ويستمر لمدة أسبوع.

بيبيكوف، بإصدار منشور إلى حكام المقاطعات الخاضعين لسلطته وطلب منهم فيه مراقبة ما يجرى فى المعابد اليهودية وما يحدث فى المنازل اليهودية لدراسته. وكتب يقول «فى هذه الأماكن، كثيرا ما تحدث أشياء تترك وراءها قتلى من اليهود. وهذه الجرائم خطيرة لأنها تحدث فى أماكن مخصصة للصلاة ودراسة المبادئ الدينية. كما أنها تخضع أيضا للأحكام المستقلة للمحاكم الحاخامية، التى تتصرف تبعا لمعتقدات خاطئة تتعلق بالتخلص من «الوشاة» الذين يكشفون عن جرائم زملائهم المتدينين. وينجح الحاخامات غالبا فى تضليل التحقيق «الرسمى» لدرجة أن شخصيات القتلة ليست هى فقط التى تظل مجهولة ولكن أيضا شخصيات الضحايا.

يعتقد الكثير من المؤرخين الإسرائيليين الجدد أن أنواع العنف التى كانت تمارس ضد المهرطقين والوشاة متصلة ببعضها البعض على نحو حميم.

وهناك قانونان إضافيان من قوانين الهالاخاه لهما أهمية خاصة بالنسبة لاغتيال رابين. وهذان القانونان، اللذان كان يتم استخدامهما منذ الأزمنة التلمودية لقتل اليهود، لجأ إليهما القاتل، إيجال عامير، فى تبريره لقتل رئيس الوزراء رابين ولايزالان يتم التأكيد عليهما بواسطة اليهود الذين وافقوا أو أدانوا هذا الاغتيال على استحياء. وهذان القانونان هما «قانون المطارد» و«قانون الواشى». القانون الأول يأمر كل يهودى بقتل أو جرح أى يهودى يرى أنه ينوى قتل يهودى آخر. وتبعا لشروح الهالاخاه، ليس من الضرورى رؤية ذلك الشخص وهو يطارد الضحية. فيكفى أن تعلن السلطات الحاخامية، أو حتى العلماء الثقة، أن قانون المطارد ينطبق على هذا الشخص. والقانون الثانى يلزم كل يهودى بقتل أو جرح أى يهودى آخر، دون أى قرار من السلطة الحاخامية المعنية، قام بالوشاية لدى غير اليهود، وخاصة السلطات غير اليهودية، بشأن الأمور اليهودية أو قام بإبلاغها معلومات عن الممتلكات اليهودية أو قام بتسليم أشخاص يهود أو

ممتلكات يهودية إلى الحكم أو السلطة. والسلطات الدينية المختصة مخولة أن تفعل، وفى أوقات معينة فعلت ذلك، تلك الأشياء المحظورة على اليهود الآخرين فى القانون الثانى.

وأثناء الفترة الطويلة من التحريض التى سبقت اغتيال رابين قام الكثير من الكتاب الحريديم والمسيانيين بتطبيق هذين القانونين على رابين وزعماء إسرائيليين آخرين.

وقام الضالعون فى الديانة اليهودية بالإشارة إلى تطورات لاحقة فى الهالاخاه تشتمل على فئات أخرى من اليهود الذين يعرفون على أنهم «أولئك الذين ينطبق عليهم قانون المطارد» وكل يهودى من واجبه قتل أولئك المدرجين فى هذه الفئات. ومن الناحية التاريخية، قام يهود الشتات باتباع هذا القانون كلما أمكن ذلك، حتى ظهور الدولة المعاصرة على الأقل. وفى الإمبراطورية الروسية قام اليهود باتباع هذا القانون حتى نهاية القرن التاسع عشر.

كانت أرض إسرائيل ولاتزال تعتبر من قبل كل اليهود المتطرفين ملكية قاصرة على اليهود. ومنح الفلسطينيين السلطة على أى جزء من هذه الأرض يمكن أن يفسر على أنه عمل من أعمال الوشاية.

كما فسر بعض اليهود المتطرفين العلاقات التى نشأت بين رابين والسلطة الفلسطينية على أنها تضر بالمستوطنين اليهود. وفى هذه الحالة يعتبر رابين من الوشاة. وقام الحاخامات ذوو النفوذ، مثل زعيم جوش أمونيم الحاخام موشيه لفنجر، بالهجوم علنا على الوشاة من أمثال رابين وبعض وزراء حزبى العمل وميرتس وبعض أعضاء الكنيست. وحاول البروفيسور آسا كاشير، الأستاذ بجامعة تل أبيب، الذى يحظى باحترام واسع فى إسرائيل، تنوير الجمهور الإسرائيلى من خلال كتابة خطاب إلى محرر هاآرتس يتناول المعنى المحدد للمصطلح المستخدم بواسطة لفنجر وخطر الاغتيال المنطوى عليه.

وذهبت تحذيراته أدراج الرياح بالنسبة للجميع بمن فيهم رابين ومحررو ها آرتس. كما تجاهل الشاباك أيضا، وهو ذلك الفرع من

الشرطة السرية الإسرائيلية المسئول عن الشئون المحلية والمسئول عن حماية رابين، المخاطر المتضمنة فى التطبيق المحتمل والمرجح لقانون الواشى على رابين. وأصر الشاباك حتى آخر لحظة على أن خطر القتل يأتى فقط من جانب المتطرفين المسلمين. ومما يثير الدهشة، أنه بنهاية أغسطس ١٩٩٨، كانت وسائل الإعلام الإسرائيلية تعج بتحذيرات الشاباك من أن المتعصبين المتدينين اليهود ينوون اغتيال نتنياهو، ووزير الدفاع موردخاى ووزراء آخرين بسبب موافقتهم من حيث المبدأ على انسحاب إسرائيل من ١٣٪ أخرى من الضفة الغربية. وهذه التحذيرات كانت تقوم على نفس المنطق الأصولى الذى أدى إلى اغتيال رابين، كما أشارت إلى بعض الأخطار التى تمثلها الأصولية اليهودية.

كان اغتيال رابين نتيجة منطقية للأنشطة الدينية المتطرفة للجماعات السرية اليهودية عام ١٩٨٤. فكان أعضاء هذه الجماعات السرية يقومون بزرع القنابل تحت الباصات العربية بالقرب من القدس فى يوم الجمعة. وكانت هذه القنابل الزمنية معدة بحيث تنفجر بعد بداية عشية السبت حيث يكون السفر تبعا للشريعة اليهودية محظورا ومحرما. وفى هذا الوقت، قبل الانتفاضة، كان الكثير من اليهود الإسرائيليين يستقلون الباصات العربية. وكانت الفئة الوحيدة التى ليس من المرجح أن تستخدم هذه الباصات فى الوقت الذى سوف تنفجر فيه القنابل هى فئة اليهود المتطرفين.

وكان الأعضاء المنتمون لهذه الجماعات السرية اليهودية يحصلون على موافقة الحاخامات قبل القيام بهذه العمليات.

وكان بيريز ورابين وشامير، الذين يتصرفون طبقا للاتفاق الذى توصلت إليه حكومة الوحدة الوطنية التى لاتزال فى السلطة، يأمرون الشرطة بالكف عن التحقيق مع الحاخامات المتطرفين. ولم يقم أى من الحاخامات بالاعتراض على المنطق الدينى الذى يقف وراء زرع هذه القنابل.

والنتيجة التى لامفر من التوصل إليها هى أن بعض الحاخامات

وافقوا ولم يعترض الآخرون على القتل المتعمد لليهود غير المتدينين، بسبب آرائهم المهرطقة المزعومة. وقالت جريدة يديعوت أحرونوت فى ١٦ نوفمبر ١٩٩٥، إن الحاخام ناحوم رابينوفيتش اقترح زرع الألغام والمواد المتفجرة حول المستوطنات المهددة بالإخلاء من قبل الجيش الإسرائيلى. وهذا الاقتراح يتبع نفس المنطق. وحينما سأل عن الخطر المتمثل فى تهديد حياة الجنود اليهود نتيجة لاقتراحه، أجاب الحاخام رابينوفيتش قائلا: «إذا أطاعوا الأمر بإزالة أى مستوطنة يهودية، فإنهم بذلك يكونون «يهودا آثمين» وبذلك فإن كلامه ينطوى على أنهم يستحقون الموت. وهذا يمكن أن يرى فى سياق الكره المزدوج لغير اليهود واليهود العلمانيين الذى بشر به حاخامات الاستيطان.

إن سبب هذا التجاهل المتعمد لهذا الخطر، من قبل الكثير من اليهود الإسرائيليين، يتلخص فى رؤيتنا للشوفينية اليهودية، تلك الرؤية السائدة بين اليهود. فالشوفينيون يزيفون تاريخ أمتهم من أجل أن يبدو أفضل مما هو عليه. كما أنهم أيضا يزيفون الوضع الحالى من خلال الزعم بأن أمتهم هى الأفضل. وهذا الزعم، الذى يزعمه الكثير من اليهود، يكون خطرا بشكل خاص حينما يعزز من خلال تحالف التعصب الدينى والتجاهل المتعمد. فالشوفينية اليهودية تكون ناقعة السم على وجه الخصوص، لأن الجمع بين الدين اليهودى والقومية اليهودية ساد لفترة طويلة ولايزال يسود عبر الكثير من اليهود. ولايجب نسيان أن الديمقراطية وحكم القانون جاءا إلى الدولة اليهودية من الخارج. وقبل نشوء الدولة الحديثة، كانت المجتمعات اليهودية فى جانبها الأعظم يحكمها حاخامات استخدموا وسائل وحشية واستبدادية بالغة السوء مثل تلك التى تستخدم بواسطة الأنظمة الشمولية. وأعز أمانى الأصوليين اليهود الحاليين تتمثل فى إعادة هذا الوضع.

إن المعلومات الواردة فى التلمود نفسه عن قتل وعقاب الوشاة اليهود شحيحة وغير محددة.

وكان الخوف من السلطات الرومانية والساسانية مسئولا جزئيا عن ذلك. ونفس الموقف قد وجد أثناء زمن الجاعونيم فى العراق، الذين عاشوا هناك من حوالى عام ٧٥٠ ميلادية إلى عام ١٠٥٠ فى ظل الحكم القوى للخلافة العباسية ونادرا ماتتناول ردود الجاعونيم الوشاة فقط وتطبق فقط عقوبات دينية فى معظمها. وقال الحاخام بالتوى، تبعا لعساف فى ص٤٩ من كتاب «العقوبات» فى منتصف القرن التاسع أن الواشى ليس فقط اليهودى الذى يقوم بالوشاية ولكنه ذلك الذى يقول أثناء شجار علنى مع يهودى آخر أنه سوف يوشى به. ومع ذلك طبق بالتوى عقوبة معتدلة تتمثل فى اعتبار هذا الشخص «شريرا» وبذلك يصبح غير قادر على إعطاء وعد أو شهادة.

وفى إسبانيا الخاضعة للحكم الإسلامى بعد انهيار الخلافة الأموية القوية فى السنوات الأولى من القرن الحادى عشر، كان الموقف مختلفا وكثيرا ما كان يتم إعدام الوشاة. وفى مدينة «اليسينا» التى كان معظم سكانها من اليهود فى منتصف القرن الحادى عشر، أمر الحاخام يوسف هليفى ابن هاميجاش، وكان أحد العلماء البارزين، تبعا لعساف فى ص٦٣ من «العقوبات»، أمر اليهود برجم أحد الوشاة أثناء صلاة «النعيلة» يوم كيبور وكان يوافق يوم السبت. والرجم يعتبر عادة انتهاكا خطيرا لكل من يوم كيبور ويوم السبت، علاوة على ذلك فإن صلاة «النعيلة» التى ترتل مرة واحدة فى العام مع اقتراب يوم كيبور، هى غالبا أكثر الصلوات قداسة لدى اليهود. واختيار هذا الوقت بالذات ربما كان الهدف منه الحاجة إلى الإشارة لكل اليهود أن واجب قتل أى واش يهودى يعتبر أكثر أهمية من أية اعتبارات دينية أخرى. والواقع أن ميمونيدس كتب فى شرحه المعتمد للمشناه(*)، كما استشهد به عساف فى كتاب «العقوبات» ص٦٣: «يحدث كل يوم فى الغرب «إسبانيا وشمال أفريقيا» أن يتم قتل الوشاة الذين أبلغوا عن أموال اليهود، أو

(*) المشناه: هو كتاب دينى لليهود.. يحتوى على الشرائع الدينية اليهودية بشكل تفصيلى فى كافة المعاملات اليومية ومعاملات النساء بالإضافة إلى المعاملات التجارية والزراعية وهو مكون من ستة فصول.

يتم الإبلاغ عنهم لغير اليهود حتى يتم قتلهم أو ضربهم أو يسلمون للأشرار» وهذا الحكم، الذى استخدمته السلطات اليهودية لاحقا، يمثل سابقة مهمة: فالوشاية مسموح بها، أو حتى الاستمتاع بها، حينما تتم بواسطة السلطات اليهودية للمجتمع اليهودى فى الحالات الضرورية. واليهود الأفراد فقط هم من يجب أن يقتلوا إذا قاموا بالوشاية.

وفى موضع آخر من تفسيراته قال ميمونيدس أن واجب قتل كل من الوشاة والمهرطقين هو تقليد يطبق فى كل مدن الغرب. وبعد استعادة معظم إسبانيا بواسطة المسيحيين، فيما عدا غرناطة، استمر قتل الوشاة وزادت كثافته فى ممالك غرناطة والقشتل وأراجون. وعدد الحالات المسجلة فى الردود الإسبانية كبير جدا. والأمثلة القليلة الآتية تعبر عن ذلك:

فقد أجاب الحاخام آشر، كما جاء بكتاب «العقوبات» لعساف فى ص٧٣، عن سؤال عن يهودى معروف بأنه واش، وأن المحكمة الحاخامية تحقق فى القضية. ورد آشر بالقول أن قتل الوشاة لايحتاج شهودا ولكن مجرد التعبير عن الرأى بواسطة يهود آخرين بأن شخصا معينا هو واش. «فإذا كنا نحتاج إلى شهادة شاهد عيان فإننا ربما لانستطيع إدانة الوشاة أبدا».

«وهذا نفس المنطق الذى يستخدمه المحققون فى الدول الشمولية المعاصرة والنظام الإسرائيلى الاستعمارى فى الأراضى المحتلة منذ عام ١٩٦٧»، قام الحاخام آشر بالهجرة إلى إسبانيا قادما من شمال فرنسا حيث كان حاخاما مشهورا بالفعل وكان على دراية واسعة بعادات الإشكناز وكذلك بعادات اليهود الإسبان. ولذلك فإنه كان يستطيع القول عن علم ومعرفة بأن الممارسة الشائعة فى الدياسبورا كانت تتمثل فى الحكم بالموت على الواشى الذى قام بالوشاية عن اليهود أو أموالهم ثلاث مرات.

وكان الحاخام آشر يؤمن بأن ذلك ضرورى من أجل ألا يزيد عدد الوشاة بين اليهود. وبعد أن تأمل كل ذلك قليلا، توصل إلى أن قتل

الواشي كعقاب هو عمل خير. فذلك يدل على أن كل أعداء الله يجب أن يهلكوا.

وفي رد آخر، يستشهد به عساف في ص ٧٤، تناول الحاخام آشر موضوعا يهوديا يسمى أبراهام، أو آلوت. فبعض اليهود اتهموه بأنه قام بالوشاية مرات عديدة. وأصر الحاخام آشر على أن الجميع يجب أن يعلموا أن الواشي يمكن أن يعاقب حتى في يوم كيبور ولو وافق يوم سبت، وقال أن هذا حدث في ألمانيا وفرنسا.

كما أشار الحاخام يهودا، ابن الحاخام آشر، تبعا لعساف في ص٧٩ من كتاب «العقوبات»، (في حالة يهودي قام بالوشاية لسنوات عديدة) إلى أن كل من يقتله سوف يكافئه الله. واليهودي الذي يستطيع قتل الواشي ولايفعل يمكن أن يعاقب عن كل ما ارتكبه الواشي كما لو كان هو الذي فعله».

وفي قضية أخرى، أعلن الحاخام يهودا أن اليهود يجب أن يقتلوا الوشاة بأنفسهم خشية أن يرفض القضاة غير اليهود توقيع عقوبة الإعدام عليهم. وفي بعض الحالات كانت تقوم التجمعات اليهودية بشراء حياة الواشي من الملك وبعد ذلك تقوم بإعدامه علنا. وحدث ذلك على سبيل المثال، في برشلونة في أبريل عام ١٢٧٩، حيث سجل الحاخام شلومو بن عذريت ذلك في كتاب ردوده، فقد قام أحد اليهود ويسمى فيدالان دي بورتا، والذي ينتمي إلى إحدى العائلات النبيلة، بالوشاية إلى الملك بيدرو الثاني ملك أراجون، والذي كان أيضا كونت كتالونيا. فبعد أن تم طلبه بواسطة سكان كتالونيا من اليهود، وافق الملك «غالبا بسبب المال» على تسليمه للسلطات اليهودية في برشلونة والتي كانت قد حكمت عليه بالإعدام، وقام يهود برشلونة بسوقه «إلى الشارع المواجه للمقابر في برشلونة وقطعوا أوردة ذراعيه. فنزف حتى مات»، وبعد مرور ثلاثة أعوام على الإعدام، قام أشقاء الضحية بالاحتجاج على ذلك. وقام الحاخام شلومو بن عذريت بالدفاع عن الحكم بالقول بأن هذه الأحكام كانت تنفذ غالبا في أراجون والقشتل.

كما قام أيضا بالكتابة إلى ألمانيا من أجل طلب مساندة الحكم من الحاخام الأكثر أهمية فى ذلك الوقت، وهو مائير ماهارام، من روزنبرج. وقانون الواشى واضح أيضا فى ردود إسبانية أخرى مهمة لأنها اعتمدت على آراء الحاخام البولندى الشهير فى القرن السادس عشر، شلومور لسوريا. وهذه يستشهد بها بواسطة عساف فى كتاب «العقوبات» ص٨٣ إلى ٨٧ : وإنه «أى الواشى» لايقتل فقط من خلال قرار المحكمة الحاخامية، ولكن أى يهودى يمكنه أن يقتله بنفسه ويكافئه الله! ونفس العبارة تظهر فى العديد من الردود الحاخامية.

فى أواخر القرن الخامس عشر قام اليهود الإسبان بقتل وتشويه الواشين. وقام اليهود فى مجتمعات أخرى، خاصة فى شمال أفريقيا والبرتغال ، تأثرا باليهود الإسبان، بفعل نفس الشىء، وكتب الحاخام شيمون، ابن الحاخام تسيماخ الذى هاجر من إسبانيا وذهب إلى الجزائر فى أوائل القرن الخامس عشر، كما جاء بكتاب عساف ص٨٩، أن قتل الواشى واجب مقدس. كما أدرك الحاخام شيمون أن القتل لم يكن ممكنا دائما ولذلك نصح فى هذه الحالة بأن الواشى يجب أن يوسم على جبهته أو يجلد ولكنه فى كل الأحوال يجب أن يذاع اسمه كواش فى كل المجتمعات.

إن المعلومات المتعلقة بقتل الوشاة فى المجتمعات الإشكنازية الأولى فى شمال فرنسا وألمانيا نادرة قبل القرن الثالث عشر وغير موجودة بعده.

ويرجع ذلك غالبا إلى الاستقلال اليهودى الأقل والسلطة الأقوى للدول غير اليهودية، وشهد الحاخام آشر، كما ذكر من قبل، أن قتل الوشاة فى ألمانيا فى زمنه كان شائعا. وقدم القليل من الأدلة على ذلك. وكتب الحاخام تام، وكان أحد الحاخامات الكبار فى شمال فرنسا، تبعا لعساف فى ص ١٠٧، أن مجلس حاخامات فرنسا، المنعقد فى تروزيس، قام بمناقشة المشاكل «الحادثة بسبب مجرمى أمتنا» الذين يقومون بالوشاية سرا أو علنا، وبسبب اليهود الذين قدموا قضاياهم

ضد اليهود الآخرين إلى قضاة غير يهود، وبذلك فإنهم يهزأون بسلطة المحاكم الحاخامية. والعقاب الواضح الوحيد الذى كانوا يطبقونه على هؤلاء المجرمين هو النبذ أوالعزل» والذى كان يتضمن عدم التحدث معهم: وكان الحاخامات يخففون من هذا الخطر بعض الشيء من خلال قولهم بأن أولئك اليهود الذين يخشون غضب الملك أو الإقطاعيين يمكنهم التحدث إلى الوشاة المنبوذين ولكنهم يجب ألا يستخدموا هذا التصريح كمجرد حجة للقيام بذلك.

وقال بعض الحاخامات أن القانون العتيق المهجور ضد الوشاة يمكن أن يطبق أيضا. وفى الجزء الأخير من القرن الثالث عشر، تبعا لعساف ص١٠٧، كتب الحاخام مائير بمدينة روزنبرج أن اليهود يمكنهم قتل أو تشويه الواشى، من خلال قطع لسانه، حيث يظل فى حالة عزلة تامة. وفى حالات قليلة فى ألمانيا فى تلك الفترة تم تطبيق عقوبة القتل أو التشويه على الوشاة. وإحدى تلك الحالات كانت تشتمل على أحد الوشاة بمدينة ستراسبورج فى أوائل القرن الرابع عشر. وقام الحاخام صموئيل شليتشتات بمدينة ستراسبورج بالحكم على الواشى بالإعدام.

وقام المجتمع اليهودى بالكتابة إلى قاض غير يهودى حيث أمر بإغراقه فى نهر الراين. وقام بعض أصدقاء الواشى حينئذ باستعطاف بعض الإقطاعيين والذين قاموا باستعطاف الإمبراطور. وقام الأصدقاء بالشهادة فى المحاكم غير اليهودية وقدموا شهادة موقعة مكتوبة باللاتينية. وشهدوا بأن الحاخام شليتشتات أرسل بخطاب إلى اليهود قال فيه أن الواشى يجب أن يقتل. كما شهدوا أيضا بأنه قام بجمع التبرعات من ستراسبورج والمجتمعات اليهودية المجاورة للتأكد من تنفيذ الإغراق. وفحوى ذلك أن القاضى الذى أصدر الحكم تمت رشوته.

وكانت نتيجة ذلك هى أن الحاخام شليتشتات اضطر للاختباء من السلطات لعدة أعوام.

وبعد ذلك هرب من ألمانيا إلى العراق، وقام بالشكوى لرئيس المجتمع اليهودى العراقى، دافيد ابن هودايا، من مظالم اليهود الذين اضطهدوه.

وبناء على ذلك قام دافيد ابن هودايا بالأمر بعزل المذنبين كتابة. وقام الحاخام شليتشتات بالعودة إلى ألمانيا ومعه أمر العزل. أما ما حدث بعد عودته فغير معروف، حيث تنتهى القصة هنا، ومنذ ذلك الحين والمصادر الحاخامية لاتشير إلى القتل ولكنها كثيرا ما تتحدث عن عزل الوشاة.

هناك معلومات تفصيلية متوافرة عن اليهود الإشكناز فى بولندا فى القرن السادس عشر. وقد تمتع هؤلاء اليهود، كما ذكرنا من قبل، بسلطات واسعة فى الكومنولث البولندى - الليتوانى . ولذلك فإن قتل وتطبيق عقوبات أخرى على الوشاة اليهود، حينما تكون الدلائل متوافرة، كان شائعا. وقام الحاخام شلومو لوريا، كما أوضح عساف فى ص١٢٢ من كتاب «العقوبات»، بالإصرار على وجوب قتل الوشاة. وأضاف:

«من الأفضل قتلهم بدلا من تشويههم ، على سبيل المثال، من خلال قطع ألسنتهم، وذلك من أجل اقتلاع الشر من بيننا، فاليهودى الذى يتم تشويهه فى حكم المؤكد أنه يتحول إلى ديانة أخرى لكى ينتقم ولسوف يحكى أكاذيب عن اليهود. فأنا أرى أن تشويههم سوف يسبب معاناة كبيرة لليهود».

وبعد بداية القرن السابع عشر، كان الحاخامات البولنديون والسلطات اليهودية المستقلة يميلون إلى استخدام لغة أكثر حذرا عندما يكتبون عن قتل الوشاة اليهود.

وفى حالة واش يهودى معين تم طرده من مدينة بنسك ومن كل ليتوانيا ولكنه ظهر فى مدينة لوبافيتش، استخدمت لجنة يهود ليتوانيا فى حكمها العبارة العبرية «هتارات دم» بمعنى «إهدار دمه». وهذه العبارة التى أصبحت شائعة فى مثل هذه الأحكام، كانت أقل مباشرة من الأمر الفعلى بقتل الواشى. وفى نفس القضية قالت لجنة يهود

ليتوانيا، بعد الحكم بعزل اليهود الذين يكشفون الأسرار اليهودية حتى في يوم كيبور، كما سجل ذلك عساف:

«في حالة قيام أى شخص بالوشاية، حتى عن أموال يهودية. وبالذات في حالات الإيذاء البدني فإن كل يهودي يعرف القانون ولذلك ليست هناك حاجة لإصدار أية أحكام. إننا فقط نحذر، ونأمر أى يهودي يرى أو يسمع أى شيء عن ذلك، سواء كان يتصل به أم لا، أن يقوم في غضون ثلاثة أيام بإبلاغه إلى وجيهين من وجهاء مدينته لاتربطهم صلة بالواشي. وإذا لم يفعل ذلك فإنه يصبح منبوذا، ويطبق عليه عقاب الواشي. وسوف يقوم الوجيهان بفعل ما عليهم فعله. ولكن إذا كان الواشي يتمتع بالقوة والنفوذ ولم يستطيعا فعل أى شيء تجاهه، يقوم الحاخامات والوجهاء بكتابة اسمه في سجل المدينة، بحيث لايتم ختان أولاده ولايتزوج أحد من بناته وينبذ من كل الأمور المقدسة. كما يقوم الحاخامات بالانتظار حتى تتحقق الآية. «وعندها سوف أنتقم» (وهي آية تتكرر كثيرا في البنتاتوخ وتعني أن انتقام الله قد يتأخر ولكنه يأتي. البنتاتوخ هو الخمسة كتب الأولى من الكتاب المقدس ويقال أن موسى كتبها بنفسه وهي الأكثر قداسة لدى اليهود).

مرة أخرى، كانت اللغة المستخدمة أكثر حذرا ومباشرة من الأمر المباشر بقتل الواشي أو اليهودي الذي لم يبلغ عنه. والعبارة الأخيرة من الحكم تتعلق بذلك.

وهناك مثال بولندي آخر يوجد في السجل المحفوظ للمجتمع اليهودي في كراكو. وتتم مناقشته بواسطة عساف في ص١٣٣ من كتاب «العقوبات»، وهذا السجل يدين إسرائيل، ابن الحاخام أهارون فليتشكر، بسبب وشايته باليهود في أمور مالية والسرقة واستخدام العنف وارتكاب جرائم دينية لايمكن كتابتها وتواصل الاتهام.

«نحن، وجهاء المجتمع والأكثر شرفا (المحكمة الحاخامية)، نظرا لشرف عائلته قررنا تخفيف العقوبة عنه». ولذلك نحكم عليه بأن يحرم من كل التجمعات الدينية وبألا يكون قادرا على الشهادة أو القسم.

(أمام المحكمة الحاخامية). كما يجب وضع طوق من الحديد حول رقبته. كما تجب عليه إعادة ما سرقه، سواء من أشخاص أو مجتمعات. كما تصادر جميع ممتلكاته».

بالإضافة إلى ذلك فإنه أمر بمغادرة المدينة، ولم يسمح لأحد من ذريته بالإقامة فيها.

وهذا الحكم المخفف قد صدر فى ربيع ١٧٧٢.

المثال البولندى الثالث مأخوذ من مقدمة لكتاب تلمودى، تاهارات قوديش، الذى نشر فى ١٧٣٣، ووضعه الحاخام بنيامين، ابن الزعيم الدينى البولندى الهام، الحاخام ماتاتيا. وبين هذا الكتاب، الذى أشار إليه عساف فى ص١٣٣ من كتابه «العقوبات»، إن الوشاة ازداد عددهم على مدار فترة زمنية معينة، على الرغم من القتل والعقوبات الصارمة الأخرى التى طبقت عليهم. وشكا الحاخام بنيامين مر الشكوى من عدد كبير من الوشاة اليهود فى زمنه.

وأضاف أن الكثيرمن اليهود يساعدونهم ويتملقونهم كما طلب من اليهود تجنب الوشاة.

وكان اقتراحه يتمثل فى «إهدار دمهم حتى نستأصل شأفتهم» كما حرم الحاخام بنيامين قبول أى أموال منهم للأغراض الخيرية، كما أضاف أنه فى إحدى الدول البعيدة نجح اليهود فى القضاء على الوشاة وبذلك عاشوا فى أمان على الرغم من أنهم أنفقوا مقدارا كبيرا من المال فى سبيل ذلك، الأمر الأكثر أهمية هو أن تحقيقات الشرطة القيصرية فى قتل الوشاة اليهود والكثير من شهادات اليهود المثقفين فى القرن التاسع عشر تبين أن مشكلة الوشاة اليهود لم تحل عبر هذه التوصيات.

وبعد تقسيم الكومنولث البولندى - الليتوانى بين روسيا والنمسا وبروسيا عام ١٧٩٥، وبعد الإلغاء اللاحق لاستقلال المجتمعات اليهودية، بواسطة القوى الغازية الثلاثة، تناقص العنف الممارس بواسطة اليهود، وخاصة السلطات اليهودية، ضد اليهود الآخرين

سريعا. واختفى العنف بدرجة ملحوظة فى الجزء البروسى من بولندا وظل بنفس المستوى السابق تقريبا فى المناطق الخاضعة لروسيا. ومع ذلك كان العنف الذى يمارس فى المنطقة الروسية، يحدث فى الخفاء. وفى المنطقة التى كانت تحكمها النمسا، كان الموقف معقدا بعض الشيء، فالعنف اليهودى الذى تمثل، على سبيل المثال، فى اغتيال الحاخامات المعتدلين، حدث فى ظروف معينة.

إن المستويات الثلاثة للعنف بين اليهود فى المناطق الثلاثة المقسمة من بولندا يجب أن تعزى إلى المستويات المختلفة من التأثيرات المعاصرة بعد التقسيم. فقد كان اليهود فى الجزء البروسى من بولندا يعيشون فى ملكية استبدادية مسلحة بالشرطة الجيدة والإدارة المدنية التى كانت متأثرة بدرجة كبيرة بالنزعات المعاصرة. حدث التقسيم الأول لبولندا حينما كان فريدريك الثانى الأكبر، صديق فولتير والفلاسفة الفرنسيين الآخرين لعصر التنوير، يحكم بروسيا. وظلت آثار التنوير، على الأقل بين صفوف العاملين بالإدارة البروسية، قوية لمدة جيل على الأقل بعد وفاة فريدريك الثانى عام ١٧٨٦. وهناك أمر على نفس الدرجة من الأهمية يتمثل فى أن التنوير اليهودى الذى بدأ فى بروسيا والذى اكتسب حتى قبل تقسيم بولندا مجتمعا قويا من اليهود المتنورين، تمحور حول برلين، وعبر عن نفسه فى ذلك الوقت بالعبرية وبالألمانية: «وهؤلاء اليهود المتنورون يمكن التعبير عنهم من خلال الغالبية العظمى من اليهود الذكور فى المناطق التى تم ضمها إلى بروسيا.

وكان اليهود فى المنطقة الروسية من بولندا، على النقيض يعيشون فى نظام أكثر تخلفا حيث كانت إدارته ضعيفة وغير فعالة على الرغم من القشرة الرقيقة من التنوير التى قدمتها كاثرين الثانية.

وكانت روسيا خالية من اليهود على مدى مئات السنوات وأول يهود سمح لهم بالإقامة فى الإمبراطورية القيصرية كانوا أولئك الذين يعيشون فى الأراضى البولندية التى تم ضمها. فمنطقة «بال» سيئة السمعة، وهى المنطقة الوحيدة من روسيا التى سمح لليهود، مع بعض

الاستثناءات القليلة، بالإقامة فيها حتى عام ١٩١٧، كانت هى المنطقة التابعة للكومنولث البولندى – الليتوانى التى ضمت إلى روسيا. أما «روسيا القديمة» فقد حافظت على «نقائها» من خلال حظر دخول اليهود إليها. وبسبب عدم وجود يهود، كان لدى الروس، وخاصة أقطاب الكنائس الروسية نزعة قوية لمعاداة السامية.

فمعاداة السامية فى روسيا فى عام ١٨٠٠ كانت أسوأ من أى بلد آخر فى ذلك الوقت. علاوة على ذلك، قام النظام القيصرى مع بداية الاستيلاء على بولندا بفرض ضرائب خاصة على اليهود بالقوة حتى عام ١٩٠٥، وكذلك فرض إجراءات تمييز عنصرى أخرى ضد اليهود وأدى عدم وجود مدن وبنادر كبيرة، فيما عدا ستراسبورج وموسكو والتى كانت محظورة على اليهود، والتعليم غير المتطور إلى تمكين معظم اليهود الذين ضموا إلى روسيا من مواصلة طقوسهم القديمة وخاصة فى المجتمعات الصغيرة حتى ثمانينيات القرن التاسع عشر. وكانت العادات والطقوس القديمة تشتمل على اضطهاد المهرطقين وقتل الوشاة.

ومع ذلك، وجدت جماعة صغيرة ومتنامية من اليهود المتنورين أنه أصبح من الأسهل الاعتراض على هذه الطقوس والعادات القديمة وغيرها فى ظل الحكم الروسى عما كانت عليه الحال فى ظل ظروف الاستقلال اليهودى فى الكومنولث البولندى – الليتوانى. ومنح الحكم الروسى على الرغم من كل عيوبه، لليهود المتنورين (أو المثقفين) حماية أكبر مما كانت لديهم فى السابق، مكنتهم على الأقل من الشهادة بخصوص قتل الوشاة.

كان اليهود فى الأراضى التى ضمت إلى النمسا فى حالة وسط بين حالتى بروسيا وروسيا. وبعد عام ١٨٤٨ وخاصة بعد عام ١٨٦٧، حينما منحت النمسا شكلا محدودا من أشكال الدستور والحريات المدنية الأخرى، اقترب الوضع اليهودى فى النمسا أكثرمن الوضع فى بروسيا، وبعد اتحاد ألمانيا عام ١٨٧١ اقترب من النموذج الألمانى،

كانت النمسا وأسرة هابسبرج ذات نزعات قوية ومعادية للسامية حيث كانت أبرز ما تكون فى ظل حكم ماريا تريزا (٤٠ - ١٧٨٠)، والتى كنت غالبا أكثر حكام القرن الثامن عشر معاداة لليهود فى أوروبا وكانت مسئولة عن أكبر طرد لليهود قبل العصر النازى: حيث طردت حوالى ٧٠ ألف يهودى من براغ ومدن بوهيمية أخرى فى عام ١٧٤٥.

واضطرت ماريا تريزا إلى تغيير قرارها وسمحت لليهود بالعودة فى غضون فترة زمنية قصيرة بسبب المعارضة القوية من جانب حليفتيها بريطانيا وهولندا، والتى اعتمدت عليهما فى الحروب النمساوية المتتابعة.

وقام خليفتها جوزيف الثانى بممارسة سياسة مناقضة لسياستها وفى عام ١٧٨٢ أصدر قرارا يقضى بمنح اليهود حقوقا محدودة ولكنها لاتزال لها مغزاها وقد فعل ذلك متحديا المعارضة القوية. وبعد وفاة جوزيف عام ١٧٩٠، تنازعت النمسا النزعتان صعودا وهبوطا حتى قرر الإمبراطور فرانس جوزيف تبنى سياسة موالية لليهود عام ١٨٦٧.

قدم المؤرخون الإسرائيليون الجدد دلائل تبين أنه حتى ثمانينيات القرن التاسع عشر كان قتل الوشاة اليهود بواسطة يهود فى الإمبراطورية القيصرية شائعا. وفى مقاله الذى يتناول المؤرخين الإسرائيليين الجدد قام روزين بالاستشهاد بالكاتب، شاؤول جيينسبرج، الذى كتب فى سيرته الذاتية أنه خلال القرن التاسع عشر تم إغراق المئات من الوشاة اليهود فى نهر الدنيبر، أكبر الأنهار التى كانت تنبع من «بال». وهؤلاء الوشاة كان يتم اتهامهم وإدانتهم تبعا لقانون الوشاة وذلك لأنهم ببساطة كانت تحوم حولهم الشكوك بأنهم أبلغوا السلطات بشىء ما.

وكتب روزين يقول: «مثل أبراهام كوهين، كان بعضهم يعمل على تحقيق أهداف أيديولوجية معينة مثل الرغبة فى نقل المجتمع اليهودى إلى نمط حديث للحياة» وقام د. دافيد عساف ببحث بعض هذه الأمور وقال: «بعض هؤلاء الوشاة كانوا متخصصين قدموا للسلطات معلومات عن إخفاء الضرائب، ولكنهم حتى فى هذه الحالات، كان يحكم عليهم

من خلال المحكمة العسكرية الحاخامية ويتم إعدامهم دون أية محاكمة مما يساعدنا على فهم الصراع بين اليهود المتنورين والأرثوذكس، وخاصة الحسيديين!! وكما بينا من قبل، كان الواشى اليهودى يحكم عليه بالموت سرا دون أن يمنح فرصة قول أى شيء دفاعا عن نفسه. وهذا النوع من أنواع الإعدام كان يستخدم لمئات السنين حتى العصر الحديث. وسأل روزين عساف عما إذا كان المجتمع اليهودى يعتبر هؤلاء الوشاة خونة وأجاب عساف بالقول:

«لم يكونوا يعتبرون كذلك بواسطة اليهود المتنورين، أكثر من ذلك، أراد اليهود المتنورون أن يصبح اليهود مواطنين للدولة. واشتمل ذلك من وجهة نظرهم، على دفع الضرائب والخدمة فى الجيش.

وكان تقديم معلومات للسلطات فى حالات كثيرة ضروريا من وجهة نظرهم. وعندما تقارن الموقف بذلك الذى يوجد فى إسرائيل الآن (بعد عام من اغتيال رابين) فإنك سوف تجد، مع بعض التغيرات، أن الصراع الحالى مشابه لما كان يحدث حينئذ».

ومن أجل بيان ماذا كان يحدث، قام عساف باستعراض إحدى الفضائح التى قام بالبحث فيها والتى تتعلق بحاخام حسيدى شهير من مدينة «روزين» وهو إسرائيل فريديمان، الذى كان معروفا باسم «رجل روزين المقدس». وكان فريدمان كشخصية حسيدية كبرى مهما، لأن الحركة الحسيدية لعبت دورا جوهريا فى تلك الاغتيالات.

ويقول عساف على لسان روزين:

«كان فريدمان واحدا من أعظم الزعماء الحسيديين، وفى كتب التاريخ اليهودى يقدم على أنه شخص قليل المعرفة ولكنه باعتباره صاحب نفوذ فإنه كان يتمتع بمباهج الحياة. وكان مواظبا على استخدام قانون المطارد ضد بعض الوشاة من مدينة «أوشيتس» فى مقاطعة بودوليا بأوكرانيا.

وفى فبراير ١٨٣٦ وجدت جثة أحد الأشخاص، «إسحاق

أوكسمان»، تحت كتل الجليد فى نهر متجمد.

وكانت الجثة مشوهة بدرجة كبيرة، نتيجة للتعذيب، لدرجة أنه كان من الصعب التعرف على صاحبها.

ولكن بعد مرور بعض الوقت، تعرف عليها أحد الشهود.

أيضا اختفت جثة شخص آخر بعد قتله وهو صموئيل شفاتسمان. ونحن نعلم الآن أنه قد تم خنقه بينما كان يؤدى الصلاة بالمعبد، وتم تقطيع جثته إلى قطع وتم حرقها فى الفرن الذى كان يسخن مياه حمام المجتمع اليهودى. وبعد التحقيق الذى أجرته الشرطة، كانت النتيجة هى أن يهود المجتمع الذى ارتكبت فيه الجريمة، بما فى ذلك أقارب القتيل يعرفون تماما ما حدث، وكيف حدث. ولكنهم لاذوا جميعا بالصمت، إما بسبب النظام القوى المتبع أو بسبب الخوف. وهذه القضية كانت نموذجا لما تقوم به المحكمة الحاخامية التى تصدر حكما غير مكتوب بقانون المطارد وعقوبات الإعدام. وقام يوسف بيرل، أحد زعماء اليهود المتنورين فى جاليسيا، بتقديم معلومات سرية إلى السلطات الروسية من أجل إدانة الحاخام إسرائيل».

وقال عساف، الذى وصف جرائم قتل حسيدية أخرى، أن بيرل الذى كان يكره الحسيديين، تصرف على هذا النحو لأسباب رأى أنها أيديولوجية.

واكتشف روزين، فى مقابلة شخصية مع المؤرخين الجدد، أن الطوائف الحسيدية المختلفة كانت تتصارع بعنف مع بعضها البعض بسبب المصالح الاقتصادية.

وكتب يقول: «بما أن الحسيدين كانوا يقدمون المال لرجالهم المقدسين وكان هؤلاء يعيشون فى القرن التاسع عشر على نحو يضاهى رغد العيش والأبهة التي يعيش فيها الملوك المعاصرون، فقد كانوا مهتمين بالأماكن التى يأتى منها المال».

كانت يهودية ما قبل العصر الحديث تعج بالكثير من حالات العنف بين اليهود والتى ذكرنا بعضا منها فقط. ومع ذلك، فإن هذه الأمثلة القليلة تكفى لتبين لنا أن الأصولية اليهودية فى إسرائيل، فى شكليها المسيانى

والحريدى، هى أصداء لموقف كان يوجد قبل بزوغ شمس العصر الحديث وفقدان ذلك النمط من الاستقلال اليهودى بسلطاته الاستبدادية التى كانت تسمح بقتل أو معاقبة الوشاة بقسوة. وما حدث فى الأصولية اليهودية لايختلف عما حدث فى الأشكال الأخرى من الأصولية. وتم ابتكار بعض البدع من أجل إخفاء النوايا الحقيقية.

فالرغبة السائدة من الناحية الأيديولوجية تتمثل فى العودة إلى «الزمن الجميل» حيث كان كل شىء يسير كما ينبغى. وفى حالة النموذج المسيانى اليهودى من الأصولية، فإن الفكرة التى تحركه هى استخدام الوسائل المعاصرة من أجل توفير القوة اللازمة لإعادة إنشاء الطريقة التقليدية للحياة على نحو فعال.

وأخطار الأصولية اليهودية، التى ضربت بجذورها فى أعماق المجتمع الإسرائيلى باعتبارها على الأقل جزءا من السلطة الحاكمة، عظيمة. وبالنسبة لغير اليهود فى الشرق الأوسط، العرب وخاصة الفلسطينيين، فإن الخطر الأساسى يكمن فى الشكل المسيانى للأصولية اليهودية، وهذا يتبدى كأوضح ما يكون فى الدور الذى تقوم به المستوطنات التابعة لليهود المتطرفين فى الأراضى المحتلة.

ومع ذلك، بالنسبة لليهود الإسرائيليين الذين لايقبلون معتقدات الأصولية اليهودية، تكون كل الأشكال المتفرعة منها مصدرا للخطر. وموقف الأصولى اليهودى من المهرطقين أسوأ كثيرا من موقفه من غير اليهود. وهذا يناظر الموقف الموجود فى ديانات أخرى. وأحد الأمثلة المعاصرة لذلك يتمثل فى موقف النظام الإيرانى من البعثيين «أنصار حزب البعث»، الذين يعتبرهم مسلمين مهرطقين، والذى هو أسوأ كثيرا من موقفه من المسيحيين واليهود.

إننا نؤمن إيمانا راسخا بأن النظام الأصولى اليهودى، إذا تولى مقاليد الحكم فى إسرائيل، فإنه سوف يعامل اليهود الإسرائيليين الذين لايقبلون معتقداته أسوأ مما يعامل به الفلسطينيين، وهذا الكتاب هو محاولة لتقديم فهم أوسع للأصولية اليهودية ونأمل أن يساهم فى الحيلولة دون تحول التهديد إلى واقع.

طبعت بمطابع روزاليوسف

الأصولية اليهودية فى إسرائيل

لعل من أبرز الأسباب المهمة لقيامنا بنشر هذه المؤلفات التى يقوم بها أعضاء حركة المؤرخين الجدد.. كونهم يهودا وإسرائيليين استطاعوا أن يحكموا ضمائرهم ولو للحظات، ويضعوا أيديهم على مثالب الصهيونية التى نشأت عنصرية وستظل كذلك.

الأمر الثانى الذى لا يجب أن نغفله.. أن الأسلوب الذى يحلو للبعض استخدامه فى الدفاع عن حقوق الشعب الفلسطينى المشروعة.. والصوت العالى الأجوف وبيانات الاستنكار والإدانة التقليدية.. وتلك الهتافات الصاخبة التى قد نسمعها هنا أو هناك فى أرجاء الوطن العربى، لم تعد مجدية، بل أثبتت فشلها على طول الخط، ومن ثم ليس أمامنا سوى التحلى بأساليب العصر فى فضح الممارسات الصهيونية وأعمال القمع والقهر التى تمارس ضد الشعب الفلسطينى فى الأرض العربية المحتلة.. ولعل ما يقدمه لنا المؤرخون الجدد من معلومات ووقائع ودراسات.. تجعلنا مطالبين باستثمارها فى الاتجاه الصحيح من أجل تغيير كثير من المفاهيم المغلوطة لدى الرأى العام العالمى وإيقاظ الضمير الإنسانى فى الدول الغربية التى تعرضت عقولها لعمليات غسيل فكرى على مدى العقود الماضية من خلال ماكينات الإعلام الصهيونية التى لا تكف أبدا عن بث الأفكار الزائفة والصور المغلوطة عن حقيقة الأوضاع فى الصراع العربى الإسرائيلى.

ما نريد أن نقوله ونؤكد عليه.. أن حماسنا وغيرتنا الشديدة على القضية العربية يجب ألا تفقدنا مميزات مهمة نحتاج إليها فى جولات صراعنا مع الصهيونية والكيان الإسرائيلى، وعلينا أن نعمل العقل دائما، فكما كانت هناك جولات للسلاح خلال الخمسين عاما الماضية، وكما توجد الآن جولات أخرى داخل الأراضى المحتلة من خلال الانتفاضة الباسلة، كذلك هناك معركة أخرى موازية لها لا تقل ضراوة وحمية، ألا وهى توصيل الحقائق إلى وسائل الإعلام العالمية حتى يستيقظ الضمير الدولى ويعى أهمية وحتمية عودة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى وضرورة تنفيذ قرارات الشرعية الدولية [illegible] اليوم لمنتظرون وهو آت.. إذا ما لجأنا إلى أسلوب [illegible] العصر والتزمنا بالعقل بدلا من الانفعالات والعواطف.

روز اليوسف

